Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كارلهاينز برنهردت

لبنان القديم

ترجمة ... ل كيلو

مراجعة: زياد منى

Bibliotheca Alexandrina
0137000

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لبنان القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لبنان القديم
تأليف: كَارلْهَاينز بِرنهَردْت
ترجمة: ميشيل كيلو
مراجعة: زياد منى
تصميم الغلاف: نبيل المالح
تنفيذ الغلاف: سامي أرناؤوط
تنفيذ الخرط والرسوم: زياد منى
التنضيد والإخراج: مؤسسة سندباد
الطبعة الأولى: 1999
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

قَدْمُس للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: 6177
هاتف: 9836 222 (11-963+)
فاكس: 7226 224 (11-963+)
بريد إليكتروني: cadmus@net.sy

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كَارلهَايْنْز بِرنهَرْدْت

لبنان القديم

ترجمة: ميشيل كيلو

مراجعة: زياد منى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتويات

مقدمة الطبعة العربية 7
بين البحر والسهب 11
أقدم المستقرات 25
غابات الأرز 33
الأرز في الشعر والأسطورة 57
الدخول إلى تاريخ العالم 67
الفراعنة ولبنان 75
الفينيقيون ومدنهم 99
أرجوان، زجاج وفن برونز 109
تجارة، بناء سفن ومستعمرات 121
آلهة وعبادات 141
بين القوى الكبرى 157
الإسكندر والسلوقيون 175
تحت السيطرة الرومانية 189
معابد الجبال وطرق الحجيج 201
بدايات المسيحية 215
الملاحق 221
التسلسل الآثاري 223
حقب التتابع التاريخي 225

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثبت الصور 233
ثبت المراجع 241
فهرس الأعلام والأقوام 245
فهرس الأسفار الكتابية 251
فهرس الآلهة الوارد ذكرها في الكتاب 253

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة العربية

ليس كتاب لبنان القديم غير مجمل سهل الفهم، اقتطع من دراسة علمية أشمل وضعت بين عامي (1973 م) و(1975 م) وكان مخططاً لها أن تستكمل وتصل إلى العصر الحديث. بيد أنه لا يوجد من هذا العمل التكميلي غير أجزاء وحسب، نشرت في مجلات مختلفة.

هذا الكتاب يعبر عن الوضع الذي كان عليه البحث في عام (1975 م). منذ ذلك الوقت، لم يتح غير القليل فقط من المواد الأثرية الجديدة، فقد كان من غير الممكن التفكير بمواصلة أعمال التنقيب، التي كانت قائمة على قدم وساق، خاصة في الصرفند وصيدا وصور وبعلبك، في ظروف حرب الأعوام الستة عشر المدمرة، والغزوين الإسرائيليين للبنان عامي (1978 م) و(1982 م) وإن انفردت بعثة التنقيب الألمانية بمواصلة عملها في كامد اللوز (كوميدي) خلال أعوام (1977 - 1981 م) وأصدرت منذ عام (1971 م) نشرات تلخيصية تتضمن نتائج تنقيباتها هناك.

لحسن الحظ، تجاوزت مواقع لبنان الأثرية الحرب الأهلية دون أن تصاب بأضرار كبيرة. كما كانت محدودة كذلك خسائر (مفقودات) المتحف الوطني في بيروت، الذي أعيد افتتاحه عام (1998 م). واستأثر الحفاظ على المواقع الأثرية باهتمام خاص عقب إنهاء الحرب الأهلية؛ وهو اهتمام انصب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بصورة خاصة على الكشف عن الشواهد الأثرية لبيروت القديمة، والموغلة في القدم، داخل مركز المدينة الذي كان الدمار يلفه كله تقريباً. هنا، كانت العجلة مطلوبة، لأنه كان سيعاد بناء المناطق التي انكشفت الآن بأقصى سرعة ممكنة بواسطة شركة (سوليدير) الشركة اللبنانية لتطوير وإعادة بناء مركز بيروت، التي تأسست عام (1992 م) ووضعت برنامجاً يسمح بأعمال تنقيب في المدى القصير على الأقل، ويجعل الأقسام الممثلة لحقب المدينة القديمة المتتابعة، في متناول الدارسين، بعد إقامة الشروط الضرورية لحفظها على المدى الطويل. من المفهوم أن الأمور لا تستقيم هنا دون تسويات تُعقد بين المصالح المتصارعة للآثاريين وشركات البناء. هكذا بدأت أعمال التنقيب عام (1994 م) بمشاركة دولية غير مألوفة من قبل، كشفت عن بنى مدينية سليمة بدرجة تثير الدهشة، ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، صحبها كم هائل من اللقى الحضارية. وعثر كذلك على أدلة تؤكد وجود توطن من العصر الحجري الحديث والطباشيري الأقدم. هنا، كما في جبيل، قامت أسوار المدينة الكنعانية / الفينيقية الهائلة، التي بنيت في مراحل أربع بين عامي (2000 ق. م و 450 م) بوظيفتها حتى نهاية العصر الهلنستي، تاركة بصماتها على استمرارية تطور المدينة، التي ارتبطت في حقب متأخرة بتوسعها الكبير نحو الجنوب قبل كل شيء. عموماً، يمكننا توقع حدوث إثراء جوهري لتاريخ لبنان القديم الحضاري والاقتصادي بفضل نتائج تنقيبات بيروت، التي ستضيف قسمات جديدة إليه. لنذكر في هذه المناسبة أيضاً أعمال التنقيب التي بدأتها بعثات فرنسية ويابانية وألمانية في منطقة عكّار، بمحاذاة الحدود مع الجمهورية العربية السورية، حيث تتمثل جميع الحقب الأثرية من الحجري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديم وحتى عصرنا الحالي، وينفتح مجال رحب أمام التنقيات المستقبلية في هذه المنطقة التي عرفت دوماً بأهميتها الزراعية، لكن البحث التاريخي والأثري تجاهلها ولم يولها غير اهتمام محدود. في السنوات القادمة، ستمحو هذه النشاطات «بقعة بيضاء» أخرى من خريطة لبنان الأثرية.

كَارلْهَاينْز بِرنهَرذْت

دمشق في نيسان 1999

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين البحر والسهب

«إنه لأمر أكيد، أن أعشاباً لا مثيل لقدرتها على الشفاء ولا شبيه لشذاها، تنمو في مثل تلك الجبال، شديدة الكثافة والجبروت.»[1]

يحتل لبنان، من حيث امتداده وارتفاعه، المركز الأول بين الجبال الساحلية في شرق البحر الأبيض المتوسط. فهو يرافق الساحل على مسافة طولها قرابة مئة وسبعين كيلومتراً وعرضها حوالي خمسين كيلومتراً، تبدأ مع انهدام حمص العريض وتصل إلى هضبة الليطاني عميقة الأغوار، التي تغطي جبالها وسهولها المرتفعة وانهداماتها قرابة خمسة آلاف كيلومتر مربع. ويتكون لبنان أساساً من قمة واحدة عملاقة، تبلغ ذروتها في ثلثه الشمالي (القرنة السوداء وارتفاعها 3083 متراً) وتبقى تحت ألفي متر في جنوبه، ثم تنخفض إلى مستويات متوسطة الارتفاع في الجليل.

إذا قارنا لبنان ببقية المناطق الجبلية في الشرق الأدنى، وجدناه يدين إلى سمات جيولوجية ثلاث بطبيعته الغنية سهلة الاستغلال، وبأهميته الناجمة عنها بالنسبة إلى اقتصاد وثقافة وتاريخ العالم القديم. تتجسد أولى هذه السمات في خصوصية تميز تضاريسه التي تعبّر عن نفسها في المدارج العريضة نسبياً للسفوح الغربية لجباله. في مناخ البحر الأبيض المتوسط الحار، ومع الغطاء النباتي المنتشر في مواقع مرتفعة من جباله، تسمح هذه المدارج

1. Jonas Kortens, *Reise*, Halle 1751, S. 470.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بزراعة الأرض واستيطانها حتى المشارف المباشرة لقمم الجبال. هذا المعطى الإيجابي يصير قابلا للاستغلال بسبب توافر ظروف ري وسقاية ملائمة، تعود إلى السمة الجيولوجية الثانية للبنان، المتجسدة في ارتفاعه الكبير وقربه من الساحل. فهو أعلى جبل في دائرة واسعة، وهو يتعرض لمناخ البحر الرطب، لذلك يتلقى كمية وافرة من الأمطار تتفاوت نسبتها من مكان لآخر، فيبلغ متوسطها السنوي حوالي ألف مليمتر في السهل الساحلي، وألفاً وخمسمئة مليمتر في المرتفعات الجبلية؛ وهذه أرقام مرتفعة لا تعرف أية منطقة أخرى في الشرق الأدنى مثيلاً لها. بسبب ارتفاع لبنان الشديد، يكون التوزيع الفصلي للأمطار ملائماً بدوره. وبينما تهطل كمية المطر الأساسية بين نهاية شهر تشرين الأول ومنتصف شهر نيسان، تشهد الجبال عواصف مطرية متفرقة حتى أثناء أشهر الصيف، غير المطيرة عموماً في محيط لبنان، لذلك يتصف وضع المياه فيه بسمات مناسبة، خاصة أن قسماً كبيراً من هطولات المطر الشتوية يسقط في شكل ثلوج يستمر ذوبانها معظم أشهر الصيف قرب القمم، مغذياً الأنهار ومناطق السقاية والري بكميات كبيرة من المياه في هذا الفصل الفقير بالأمطار، وجاعلاً من لبنان منبع أكبر ثلاثة أنهار دائمة الجريان في سورية وفلسطين، هي نهر العاصي، والليطاني، والأردن.

ليس التكوين الثانوي الناشط للمنحدر الغربي للجبل سوى نتيجة من نتائج غنى لبنان بالأمطار. فقد تشكلت هنا بالتدريج منظومات هضاب واسعة التشعب عميقة الأغوار من الحجر الكلسي والرملي الرخو، أبقتها انهداماتها العمودية الهائلة بمنأى عن طرق المواصلات في الغالب. هذه المنظومات الشديدة، المتبلورة تحت قمم القسم الأعلى من السفح الغربي مباشرة، قسمت لبنان إلى مقاطع منعزلة متفرقة بعضها عن بعض بشدة، وأدت إلى نشوء ظاهرة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لمجمل تطوره الحضاري، تتجلّى في كون طرق مواصلاته أخذت ومازالت تأخذ إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يومنا اتجاهاً شمالياً / جنوبياً أو بالعكس، وتعتمد حصراً على السهل الساحلي، أو على الهضبة العليا، الواقعة بين سلسلتي جباله الغربية والشرقية.

تكمن السمة الجيولوجية الثالثة، التي يرجع إليها قسم من خصب لبنان، في طبيعة الحجر الكلسي الذي يتكون الجبل منه بالدرجة الأولى، ويتوضع في طبقتين بينهما تشكل رملي كبير بهذا القدر أو ذاك، تخالطه طبقات جيرية. ترجع طبقة الحجر الكلسي العليا إلى العصر الطباشيري. إنه حجر هش، نفوذ وسريع التفتت، يميل لونه إلى البني بتلاوينه المختلفة، لكنه يأخذ لوناً رمادياً شبيهاً بلون الغرانيت، حين يكون على سطح الأرض ويتعرض فترة طويلة للهواء. وهو موجود في مناطق واسعة من ريف لبنان. أما طبقة الكلس الدنيا فقد تكونت في العصر الجوراسي بفعل انهدامات الجبل وتكسراته التي بلغت قمته العليا، لذلك نجدها في الوديان العميقة وفي قممه الجنوبية، حيث أزال تآكل شرائح الكلس الطباشيري العليا ما تحتها من أحجار رملية. بعكس حجر الكلس العلوي، لا يبدي الكلس الجوراسي الرمادي الأحمر أي ميل إلى التلون باللون البني، بسبب وجود مخزون مرتفع من الحديد فيه، متوفر بكثرة وقابل للاستخراج في مواقع كثيرة. بيد أن النتائج المترتبة على تعرية طبقتي الحجر الكلسي تبقى، مع ذلك، العامل الأكثر أهمية بالنسبة لاقتصاد لبنان، حيث أفضت رخاوة الحجر إلى تشكل مساحات كبيرة من الأراضي الكلسية، جعلها المناخ الحار غنية غنى خاصاً بخام الحديد. يقدم هذا تفسيراً لاصطباغ الأرض الكلسية باللون الأحمر الداكن، وللسبب الذي جعل الخبراء يسمونها (الأرض الحمراء)؛ وهي أرض ذات خصوبة مرتفعة جداً، وخاصة في المناطق التي تختلط فيها بنواتج تفتت طبقات الحجر الرملي والجيري. تشكل (الأرض الحمراء) التي تحملها الأنهار إلى السهول، قاعدة زراعات غنية المردود. وترتفع قيمتها وأهميتها الاقتصادية لسببين: أولهما إنه لم تتكون في أي مكان من لبنان أراضٍ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خصبة بعد تدمير غطائه الغابي الأصلي، وثانيهما أن الأرض الحمراء تقدم ظروفاً ملائمة لنمو النباتات الشجرية، التي تبذل جهود ناجحة منذ بعض الوقت لاستعادتها من جديد.

تتفاوت فاعلية هذه الشروط الملائمة للتوطن والزراعة، وتتباين القدرة على استغلالها بتفاوت ارتفاع الأرض. من هنا، تكتسب مناطق لبنان الزراعية الصغيرة، شديدة التنوع من حيث نباتاتها وزراعاتها، صفات خاصة تميزها. نقدم فيما يلي أولى هذه المناطق. إنها منطقة السهل الساحلي، التي يسميها السكان المحليون ببساطة (السهل). وهي منطقة ضيقة جداً بوجه عام، تقطعها رؤوس جبلية تتقدم حتى البحر في أماكن مختلفة. ولا يزيد عرضها عن كيلومترات ثلاثة إلا بين صيدا وصور وشمال طرابلس، حيث ترتد رؤوس جبال لبنان الشمالية مسافة كبيرة إلى الخلف، لتبتعد عن الشاطئ تاركة مساحات كبيرة من سهل عكّار للزراعات الحقلية (شكل 1). تتميز الحافة الساحلية بزراعة الأشجار المثمرة، وقد ذاع صيت بساتين البرتقال الواسعة حول طرابلس وصيدا. إن المناخ شبه المداري بصيفه الحار وهوائه الرطب وشتائه المعتدل، وكذلك ظروف السقاية الجيدة، يسمحان بنمو مختلف ثمار المنطقة الحارة؛ بما في ذلك موز طيب المذاق يزرع هنا منذ مئات السنين.

يغلب الطابع الصخري على الشاطئ، الذي يخضع، مع ذلك، لتبدلات سريعة نسبياً، تنتج عن خسارات صغيرة متكررة في الأرض الزراعية تحدث أثناء العواصف الشتوية، توازنها بالمقابل تشكلات طمي ورسوبيات الأنهار في مواقع أخرى. فضلاً عن هذا، فقد كانت للخلجان الصغيرة الكثيرة، التي تعتبر مرافئ طبيعية ملائمة، أهمية فعلية بالنسبة للتطور الاقتصادي والحضاري للمنطقة الساحلية.

يلي السهل الأرض الوسطى، يسمونها ببساطة (الوسط) التي تدخل فيها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

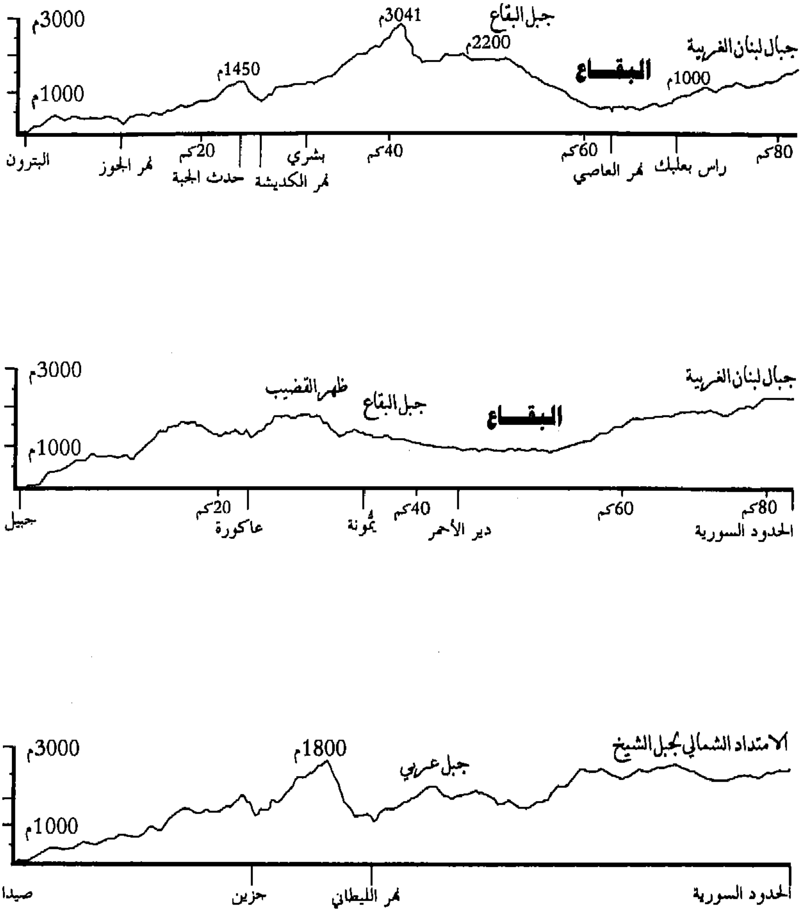

الشكل (1): رسم مقطعي للبنان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الأراضي الواقعة تحت ارتفاع ألف وخمسمئة متر، وتتميز بكثافتها السكانية، شأنها في ذلك شأن المنطقة الساحلية. لا تكون مدارج منحدرات لبنان الغربي الشبيهة بالشرفات مساحات زراعية واسعة، بينما التكوين الثانوي، المتشكل من خلال منظومات الهضاب المتشعبة، شديد الوضوح والتبيُّن. مع ذلك، تعتبر العتبة الأدنى من (الأرض الوسطى) عريضة ومستوية إلى حد ما، خاصة في الشمال بين البترون وطرابلس، حيث يفضلون في أغلب الأحيان زراعة الأشجار على الزراعات الحقلية، وبالتحديد منها الزيتون والأشجار المثمرة التي تتحمل الصقيع. بينما يزرعون في المناطق الأعلى التفاح والخوخ والإجاص والمشمش والجوز بكميات كبيرة، ويستثمرون توظيفاتهم في مرافق الري وشق المدرجات المكلفة على المنحدرات. هنا، مازلنا نرى الكثير من شجر التوت، الذي يشهد على الازدهار الذي بلغته ذات يوم تربية دودة القز المنتجة للحرير. في حين تقدم كروم تزرع قرب الحد الأعلى للأرض الوسطى عنباً يقارب حجم حباته في حالات كثيرة حجم ثمرة الخوخ.

على العموم، تحتل الزراعة والبستنة جزءاً صغيراً فقط من (الأرض الوسطى) لأن لبنان حافظ في هذه المنطقة بالذات على طابعه جبلاً غابياً، أو، وهذا قول أصح، استعاد فيها طابعه الغابي من جديد، عبر العناية بنباتات الغابات الموجودة أو بغرس نباتات جديدة. هذه المناطق المليئة بالتلال، التي تتناثر بين حقولها وبساتينها غابات صغيرة فيها بقايا قلاع قديمة من عصر الصليبيين أو حطام كنائس مبنية على الطراز الأوروبي، كثيراً ما تذكر بالجبال الألمانية، حيث يتميز المشهد العام بتكويناته الصخرية العجيبة، التي تبعث الحياة في المنحدر الغربي للجبل.

ويثير إعجابنا (الجسر الحجري الطبيعي) العملاق قرب فَارَيّا، الممتد مسافة خمسة وثلاثين متراً، ويسمونه جسر الحجر، الذي يرجح أن تكون يد الإنسان قد أسهمت في إبداع تكويناته المنسقة. فضلاً عن المتاهات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحقيقية من التكوينات الصخرية الغريبة، التي تطبع بطابعها المنطقة ما بين نهر إبراهيم ونهر الكلب، حيث كهوف ومغاور كبيرة وصغيرة يمكن العثور عليها في جميع الاتجاهات؛. وحفرت المياه المتساقطة من أماكن كثيرة في الجبال مجاري تحت أرضية، تتفجر بغتة على شكل ينابيع غزيرة المياه على بعد كيلومترات عديدة منها، كما يمكننا أن نلاحظ بصورة خاصة في الأماكن التي يقطع الحت فيها الشرائح الغرانيتية الكتيمة المتكونة من طبقة حجر رملي، وتخترق مياه المطر والثلوج سريعة الذوبان حجر الكلس الطباشيري الواقع فوقها، وتماشي تلك الكتل الغرانيتية وتتبعها قبل أن تتفجر على سطح الأرض، حال أن ينتهي، أو تنقض من ينابيع كهفية هائلة إلى الوديان، حيث يستمر جريانها حتى آخر الصيف، وتكون لها أهمية هائلة بالنسبة لري مدرّجات (الأرض الوسطى) والتزود بمياه الشرب. ليس من النادر أيضاً أن تقع أرض الينابيع تحت مستوى سطح البحر، كما هي حال الينبوع الواقع قرب (رأس شكّا) على عمق ستين متراً من سطح البحر وبُعد ثلاثة كيلومترات من الشاطئ. وقد أخبرنا كتّاب العصر القديم عن وجود نبع تحت سطح الماء قرب جزيرة أرواد، على الساحل السوري.

يطلق سكان جبال لبنان العليا على منطقتهم تسمية صائبة هي (الجرد) أي (الأرض القفر). في هذه المنطقة، تسود المشهد قمم مستديرة هائلة رمادية اللون، ومنحدرات مغطاة بكتل صخور وأحجار كبيرة الحجم (دبش) ترتفع ارتفاعاً شاهقاً فوق (الأرض الوسطى) متجاوزة العتبة العمودية الأخيرة للمنحدر الغربي. لذلك نادراً ما نصادف مستقرات مسكونة بصورة دائمة في المواضع التي تقع فوق ارتفاع ألف وستمئة متر من الجرد، مع أن الزراعة تمارس في أماكن أعلى من ذلك، نعثر في مواقع مختلفة منها على زراعة حبوب وثمار أرضية مستنبتة في أحواض صغيرة، تتوضع في التلال على ارتفاع ألف وتسعمئة متر. بينما تقتصر الأرض (القفر) على قمم الجبال الدبشية، والمهاوي الصخرية، والتكدسات الأقل كثافة لكتل الصخر والرماد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاتمة ذات المنشأ البركاني في جبل الكنيزة الشمالي، حيث يبدأ الكلس الجيري باحتلال ظهر الجبال. في المناطق الأخرى، توجد أيضاً حياة نباتية وحيوانية تغطي جميع الأمكنة، بما فيها تلك التي قطع تجريد الجبل من غطائه الشجري فيها شوطا كبيراً جداً، لكن بعض النباتات تنمو فيها رغم ذلك، ما إن تتمكن بعض التربة الحمراء من التكون أو البقاء بين الصخور. في مطلع العام، حتى تتغطى منحدرات هذه المنطقة بمصفوفة غنية من الأزهار تعيش حتى أول الصيف، وتصمد حتى على ظهور الجبال، فيما تقدم الفئران الحقلية الصغيرة، وحشرات الجراد، والضِّباب، وسواها من صغار الزواحف وجبات شهية للنسور والعقبان، التي يمكن رؤيتها وهي تحلق غالباً فوق مهاوي وسهول التلال المرتفعة. بالإضافة إلى ما سبق، يمكننا أيضاً مصادفة بقايا غطاء غابي قديمة هنا وهناك، وان كانت نادرة الوجود، بينما يشكل أرْز لبنان الشهير أيكاً كبيراً بعض الشيء في مواقع مختلفة من الجبل. وثمة غابات ممتدة، مختلطة وقليلة الشجر شمالي لبنان الأعلى، في محيط وديان ينابيع نهر أبو موسى، المنحدرة من كتلة القرنة السوداء. في هذا الريف الصخري الذي يصعب التنقل فيه، استطاع دب لبنان الرمادي الصغير، وكذلك الذئب، البقاء حتى عشرينيات قرننا، تذكرنا اليوم بها أسماء الينابيع مثل (عين الديب) و(عين الدِّبَّة).

يتألف ظهر الجبل من شريط ضيق في معظمه، يسير في خط مستقيم تقريباً من الشمال إلى الجنوب الغربي، وإن أصابه بعض التشوش في منطقة القرنة السوداء، حيث ينقسم إلى حافتين ترقى كل منهما إلى ارتفاع يربو على ثلاثة آلاف متر، تنحدران كلتاهما تدريجياً نحو الجنوب، لتشكلا سهلاً مرتفعاً مليئاً بالتلال عرضه من ستة إلى عشرة كيلومترات، وارتفاعه من 1850 إلى 2150 متراً فوق سطح البحر الأبيض المتوسط. هذا السرج، الذي يمتد عشرين كيلومتراً ويصل إلى كتلة جبل صنين، كان في العصر القديم واحداً من مناطق الغابة الصنوبرية الأساسية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن خلا اليوم خلواً تاماً من الغابات، ويستخدم مرعىً صيفياً لقطعان الأغنام والماعز، الأمر الذي أدى إلى نمو نباتات دون غيرها من نباتات الأرض الغابية القديمة، في مقدمتها تلك التي يتجاهلها حتى حيوان الماعز قليل المتطلبات. عموماً، تكمن الأهمية الاقتصادية لمنطقة جبل لبنان العليا في صلاحيتها للرعي.

يختلف المنحدر الشرقي للبنان اختلافاً تاماً في طبيعته عن الأرض المتدرجة، الواقعة إلى الغرب من ظهر الجبل. إذ تنقطع هنا فجأة الكتلة العلوية للكلس الطباشيري ويتشكل جدار عمودي يصل ارتفاعه إلى ألف وخمسمئة متر، أدى إلى خلو المنطقة إلا من مزارع متفرقة أو كفور صغيرة توضعت في فتحات الجبل التي تخترق سفحه العمودي الانحدار. هذه الوديان قليلة العمق تتبع غالباً مسالك عديدة بعضها قديم، بينما ظهر لبنان نفسه مطروق ويسمح بالانتقال، وان كان الثلج والضباب يعطلان المرور فيه خلال فصل الشتاء تعطيلاً تاماً معظم الأحيان، حتى في المسالك الطرقية الحديثة؛ في حين يسهل خلال أشهر الصيف الجافة اختراق مواضع كثيرة منه في ساعات قليلة، سيراً على الأقدام أو على ظهور الدواب.

لئن كان الانحدار العمودي الشرقي يتداخل في جنوبي لبنان تداخلاً مباشراً مع السهل، فان القسم الشمالي من أرض جبل البقاع التلالية، بدءاً من زحلة على وجه التقريب، التي تزداد عرضاً كلما أمعنت في التوجه شمالاً، تفصل المسقط الجبلي عن السهل. فإذا ما انحدر المرء عن ظهر الجبل، وجد وادياً ضيقاً على ارتفاع يراوح بين ألف وثلاثمئة وألف وسبعمئة متر، تليه مرة أخرى أرض جبلية يعقبها سهل بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية، هو بالأحرى انهدام بين ظهر الجبل وجبل البقاع كان في العصر القديم طريق نقل مهم لأشجار الغابات. أما مستقرات الوادي القليلة، فقد توضعت في مناطق الينابيع دائمة التدفق، التي كانت نادرة إلى حد بعيد، لأن الشرائح الأرضية التي تتفجر منها تقع على ارتفاعات أدنى. بالمقابل،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشكلت في هذه المناطق بحيرات صغيرة نجمت عن ذوبان الثلوج، أشهرها بركة يَمُّونة، التي كانت تتقلص بسرعة خلال الصيف لتغدو محض بقعة مائية صغيرة، اعتقدت الحكاية الشعبية أنها هي التي تغذي نبع أدونيس في أفقًا، على الجانب الآخر من ظهر الجبل؛ الأمر المستبعد الحدوث في الواقع، لكون النبع يقع على ارتفاع ثلاثمئة متر فوق سطح البحيرة.

مازال جبل البقاع أجرد وقليل السكان إلى يومنا، وان كان القسم الأبعد من جنوبه وشماله مختلفاً بعض الشيء، ويتكون في الجنوب من ظهر جبل ضيق انحفرت فيه بتكرارية معينة وديان عرضية يفصل بينها كيلومتران أو ثلاثة، عرفت بكثافة سكانها منذ أقدم الأزمنة، التي ترجع إلى تربتها الجيرية الخصبة وجودة ظروف الري القائمة فيها. هنا، ينمو العنب وتنتشر الفاكهة بوفرة، وتشتهر مزارع الكرز في وادي نهر الحبيس. أما في الشمال، فثمة مناطق غابات أكبر في الأراضي الجبلية الأعرض، البعيدة عن الطرق الجيدة، تتمتع بشيء من الشهرة؛ تستحق الذكر منها غابة الأرز الواسعة (حوالي ثلاثمئة وخمسون هكتاراً) قرب السويسة، على بعد بضعة كيلومترات شمالاً من وادي الشربين، الذي ما عاد جديراً باسمه (وادي السرو) لأن منحدراته مغطاة بالأحرى بشجر البلوط.

يعد السهل المرتفع بين جبال لبنان الغربية والشرقية المنطقة الأكثر أهمية بالنسبة إلى الزراعة اللبنانية. في الشرق القديم، كانت هذه المنطقة تسمى (الغمقة) أي (المنخَفَض). أما الإغريق فأسموها من جانبهم كُويليسيرْيا (سورية المُجَوَّفَة) وهي تحمل اليوم اسم البقاع، وتشكل جيولوجياً جزءاً من الانهدام الممتد بين جبال الأمانوس والبحر الأحمر، وتتكون من سهل يراوح عرضه بين ثمانية كيلومترات واثني عشر كيلومتراً، تحيط به ذرا جبال لبنان الشرقية والغربية، بارتفاع يصل إلى قرابة ألفي متر فوق منخفضه الذي يبلغ ارتفاعه الوسطي تسعمئة متر فوق سطح البحر، وتغطي التربة الحمراء الخصبة القسم الأوسط منه، جاعلة منه موقعا مثالياً للزراعة. تتناقص مزايا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرض في شمال البقاع، حيث تتراجع الأرض الخصبة أكثر فأكثر أمام مساحات حجرية ذات طابع يكاد يكون صحراوياً، تنبت فيها حشائش سهبية عقب سقوط الأمطار الشتوية. هنا أيضاً، تظهر في بعض الأماكن تلال تتناثر فيها كميات كبيرة من حصى أسود صغير يذكّر بالنشاط البركاني الذي كانت قد شهدته؛ ويمكننا ملاحظته، على سبيل المثال، في محيط نصب الهرمل المثير للاهتمام، الذي يقوم على أرضية من الصخور البركانية السوداء، ويمثل مشاهد لصيد الوعل والدب والخنزير، الحيوانات البرية التي يصعب اليوم تصور وجودها في الأرض القفر لمنحدره الشمالي. تشير تمثيلات النصب بوضوح إلى الوضع الأحسن الذي تمتعت المنطقة به في العصر القديم، عندما كانت النباتات الغابية الأصلية لم تختف منها تماماً بعد.

يعاني القسم الأوسط من البقاع، ذو التربة الأكثر خصوبة، مشكلات مائية، الأمر الذي قد يثير الاستغراب، إذا ما نظرنا إلى العدد الهائل من الينابيع التي تتفجر عند أقدام سلسلة جبال لبنان الغربية، والعدد الأقل الذي يتفجر عند أقدام سلسلة جبال لبنان الشرقية أيضاً، ويغذي نهرين دوليين هما الليطاني والعاصي. وقد مر حين من الدهر كانت هذه المنطقة فيه «مُصَدِّرة للماء»؛ تؤكد ذلك بقايا قناة تمر على الحد الغربي لجبال لبنان الشرقية، تنطلق من الينابيع الغزيرة قرب لبوة وتمتد نحو الشمال، حيث يرجح أنها كانت تشكل جزءاً من شبكة مياه مدينة تدمر على بعد مئة وثمانين كيلومتراً. هنا، لم تستطع ظروف الري الملائمة موازنة مساوئ المناخ الجردي القاسي، الذي ساد الوادي المرتفع إلى الشرق من الجبل، فجعل الصيف حاراً وجافاً والشتاء بارداً وقاسياً نسبياً. كما جعل أمطاره أقل من أمطار منحدرات لبنان الغربية، التي يحجبه ظلها المطير. إن اعتماد المنطقة الشديد على الأشهر الشتوية ترك أثره غير الملائم عليها، فالأمطار الشتوية والمياه الناجمة عن ذوبان الثلوج تبلل وترطب البقع الزراعية، إلا أن أشعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشمس الحارقة وجفاف الهواء يسلبان التربة رطوبتها بسرعة إلى عمق أمتار عديدة. لذلك، يعد وجود نظام ري فعال شرطاً لا غنى عنه، إذا ما أريد لزراعة البقاع أن تكون وافرة المحاصيل.

مر البقاع بتطور خاص. فقد كان مهماً كطريق مواصلات حتى زمن مدن الساحل الهلنستية، التي اتصلت عبر مداخله المفضية إلى مسالك سلسلة جبال لبنان الغربية بطرق الاتصال الشمالية / الجنوبية المهمة، الذاهبة من شمال سورية إلى مصر وبالعكس. هذه الطريق كانت ذات قيمة خاصة في العصر الشرقي القديم، لأن الطريق الساحلية لم تصبح أداة اتصال فعّالة إلا في زمن لاحق، ولأن طريق القوافل الشرقية عبر دمشق وشرق الأردن كانت أطول ومحفوفة بالمصاعب. عند القيام بعمليات عسكرية، كان من الأنسب دوماً اختيار أرض البقاع الخصبة في السير من الشمال إلى الجنوب وبالعكس. وقد استخدمت الجيوش في تنقلاتها سهل البقاع مراراً وتكراراً منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، مما فرض على سكانه أعباء اقتصادية جسيمة. يضاف إلى ذلك أن نجاح الدول المجاورة المتكرر، دمشق إلى الشرق، حماة في الشمال، ومملكة بني إسرءيل في الجنوب، في إخضاع البقاع لسيطرتها، حرمه أي تطور ازدهاري، أقله قبل العصر الهلنستي، وان كانت التجارة البينية ومحطات القوافل قد عادت عليه بالأرباح في أزمنة الهدوء.

بالمقابل، كانت شروط الموقع أكثر ملاءمة بكثير في مدن السهل الساحلي، حيث غطى جبل لبنان ظهرها، وقدم لها منتجات طبيعية كانت مرغوبة بشدة في الشرق الأدنى القديم. صحيح أن جدار لبنان كان سهل الارتقاء نسبياً بالنسبة إلى طرق التجارة، لكنه كان بالمقابل صعب الاختراق من قبل جيوش الغزاة. إلى هذا، أدى انقسام الشاطئ إلى مقاطع طبيعية أوجدتها رؤوس جبلية يصعب اجتيازها، إلى تشكل مدن ـ دول، بينما وجهت الموانئ كثيرة التوسع نحو مناطق ما وراء البحر. وإذا ما استثنينا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة صور، التي تنفتح الأرض الواقعة وراءها على الجليل الأعلى دون أن ترتطم بعوائق جبلية مميزة، وجدنا أن المدن الساحلية لم تبدأ بامتلاك أراض واسعة في ما وراء لبنان إلا منذ العصر الهلنستي.

ستبقى صورة تضاريس لبنان أحادية الجانب، إذا لم نذكر القوى الطبيعية المدمرة، التي غالباً ما أنزلت الموت والفناء بالإنسان وأعماله. أما أكثر قوى الطبيعة تدميراً فهي الزلازل، التي بقي لبنان خاضعاً لها إلى زمننا الحاضر، شأنه في ذلك شأن بقية المنطقة الساحلية السورية / الفلسطينية. ويكون تأثير هذه الاهتزازات الجيولوجية على أعلى درجة من الفظاعة، عندما ترافقها موجات مد بحري، مثلما حدث في هزات عامي (138 ق. م) و (70 ق. م) وهزة عام (551 م) التي ضربت الساحل السوري ـ اللبناني، كما يروي المؤرخون القدماء. وقد أودت تلك الأخيرة بحياة ثلاثين ألف إنسان في بيروت، وقتلت الهزة السابقة لها ما مجموعه مئة وسبعين ألف إنسان في الساحل السوري. ومازال علماء الآثار يجدون آثار مثل هذه الكوارث الطبيعية في بعض مواقع التنقيب. كما يشهد ركام معابد العصر الروماني بكتلها الحجرية الضخمة المتشققة، وجدرها المتصدعة، وأعمدتها المنهارة، على قوة وعنف هزات لبنان الأرضية. من جانبها، بقيت الزلازل مألوفة في الأزمنة الحديثة، فقد حدث عام (1759 م) زلزال أصاب دماره الرهيب، بين ما أصابه، مباني بعلبك، وزلزال عام (1822 م) الذي أصاب ضرره الشديد شمالي سورية بالدرجة الأولى، حيث قتل أربعين ألف إنسان. وشهد عام (1837 م) هزة أرضية أحدثت دماراً رهيباً في صيدا خاصة. فلا عجب أن الإنسان كان يحسب حساباً دائماً للهزات والزلازل، ويقوم بمحاولات وتدابير معمارية للحد من أثرها على المنشآت والمباني الثابتة. أما المثال الذي يشهد بصورة خاصة على ذلك، فهو قصر ملك أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، الذي دعمت جدره بعضادات خشبية ضخمة. هذه الرغبة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحد من أضرار الزلازل والهزات الأرضية ترجمت نفسها منذ بداية العصر الهِرُودِي في أبنية قامت على أساسات أرضية مكونة من أحجار ضخمة، أُريد بها تثبيت الأرض في وجه الزلازل، والإفادة من التجارب التي تراكمت بفعل كوارث أعوام (160) و (138) و (70) و (41 ق. م) المتعاقبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقدم المستقرات

«كانت الخطا، التي تحققت من خلالها سيطرة الإنسان، بطيئة. كما ازداد تأثيرها بصورة تدريجية.»[1]

ليس التعبير الدارج عن (ثورة العصر الحجري الحديث) صحيحاً إلا بعد إخضاعه لبعض التقييد. صحيح أن الانتقال إلى الزراعة الحقلية كان حدثاً غيّر تغييراً جذرياً سائر ميادين حياة إنسان العصر الحجري، إلا أن هذا التغيير كان نتاج تطور طويل جداً، يرجح أنه بدأ بمحاولة نشر الأشجار المثمرة المستنبتة، والاحتفاظ بالحيوانات البرية الملائمة في زرائب مسيّجة؛ وهي تحسينات في شروط الحصول على الغذاء تمت بفعل إكراهات خارجية لعب دوراً حاسماً فيها تناقص أعداد الحيوانات البرية، وزيادة أعضاء مجموعات الصيادين والملتقطين. وثمة ما يؤكد أن بداية العصر الحجري الأوسط (يبدأ من حوالي عام 12000 ق. م) عرف استغلال موارد غذائية جديدة في لبنان أيضاً، وأن أعداد صنانير وحراب صيد السمك ازدادت في منتصف العصر الحجري وتحسنت نوعيتها. وتشير لقى أثرية من أهمها العظام وأحجار النار إلى أن الإنسان حاول منذ تلك اللحظة استخدام أساليب محسنة لاستغلال ثروة البحر. في هذه الحقبة، تم كذلك بناء مستقرات أولى للصيادين على الشاطئ، لم تكن في البدء غير تجمعات أكواخ متواضعة سكنها هؤلاء بصورة مؤقتة. ثم، مع تضاؤل مجال عمل أسر صيادي الأسماك، وجد

1. Childe, V. G., *Der Mensch schafft sich selbst*. Dresden 1959, S. 71.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء أنفسهم مضطرين إلى الاعتماد بصورة متعاظمة على الموارد الغذائية النباتية.

لم يكن العصر الحجري الحديث، الذي يرجعون اليوم بدايته إلى نهاية الألف الثامن قبل الميلاد، عصر انتقال إلى الزراعة الحقلية والحياة في مستقرات وحسب، بل كان أيضاً عصراً حدثت فيه تمايزات كبيرة بين أبناء العصر الحجري، الذين كانت عاداتهم الحياتية قد وحدتهم بقوة. في هذا العصر، توصل الإنسان مبكراً إلى الزراعة الحقلية في بعض الأماكن، في حين واصل لفترة طويلة ممارسة الصيد والالتقاط في أماكن أخرى، كمناطق الجبال الغابية ومنها لبنان. وفي حين قام في وادي الأردن منذ أمد طويل المستقر المديني الأول المزود بأبواب وجُدر، على أرض ما سيسمى في ما بعد أريحا، كان لبنان مايزال مكاناً لصيادين وقناصين ينتقلون إلى الزراعة من حين لآخر.

يرجع مستقر لبنان الأقدم، الذي تعرف الدراسات الأثرية معلومات دقيقة عنه اليوم، إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث؛ هي مرحلة تعلم الإنسان فيها صنع الأواني من الطين. هذا المستقر الذي تشكل بصورة حرة جزئياً قام في منطقة مدينة جبيل الحالية، التي ينظر إليها، لهذا السبب، باعتبارها أقدم (مدينة) يمكن إثبات وجودها في لبنان. يتعلق الأمر هنا ببقايا بيوت صغيرة وبائسة لجماعة صيادين عاشت في بداية الألف الخامس، تكوّن كل كوخ منها من حجرة واحدة فقط، لا تزيد مساحتها على أربعة إلى خمسة أمتار مربعة، هي أقرب إلى مخبأ منها إلى مسكن.

مثلما حدث في مستقرات العصر الحجري الحديث في محيط لبنان، دفن موتى جبيل القديمة بدورهم تحت أرض أكواخها. وقد حدث هذا بأبسط الطرق، إذ كانت تحفر حفرة صغيرة في الأرض يوضع الميت فيها وهو جالس القرفصاء. وثمة محاولات تفسير مختلفة لعادة الدفن المنزلي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغريبة هذه، التي نجدها أيضاً، من حين لآخر، في أزمنة متأخرة جداً. منها أنهم أرادوا الحفاظ على الميت في دائرة الأسرة؛ أو حماية جسده من الحيوانات المفترسة. فهل ارتبطت هذه العادة بشكل من الأشكال بالإيمان باستمرار الوجود بعد الموت؟ هذا ما لا نعرفه.

يشير كل شيء إلى أن جبيل بقيت خلال زمن طويل مستقر صيادي أسماك شديد التواضع. كما يبدو أن طبيعة هذه الحقبة لم تشهد غير تغير بسيط حتى إبان فترتها التالية، التي شهدت الصعود التدريجي لاستخدام النحاس، وأسميت فترة العصر النحاسي (بدأت من حوالي عام (4100 ق. م)) وفق ما تخبرنا به اللقى الأثرية. لا شك أن جبيل تلك الحقبة (بين عامي (3500) و (3200 ق. م)) كانت قد غدت مدينة واسعة بعض الشيء شغلت مساحة تكاد تعادل مساحة الأكروبولِس، الذي امتلكته فيما بعد. من جانبها، غدت البيوت أكبر وأمتن، وتكونت أسقفها المسطحة من جذوع أشجار الصنوبر الإبري الرقيقة، تغطيها طبقة من الطين المتيبس، التي نجد ما يماثلها اليوم في قرى الشرق الأدنى. بحسب تصميمها، غدت الآن بيوت الغرفة الواحدة ذات شكل تحت أرضي، وهذا تطور ارتبط على الأرجح بالهدف الذي كانت تخدمه في كل حالة من الحالات. إلى جانب البيوت رباعية الزوايا، نجد نموذجاً ذا أبعاد شبه دائرية، وأخيراً نموذجاً دائرياً تماماً. إنها بيوت تذكّر ببيوت (خلية النحل) السورية المعروفة، التي ربما كانت أبنية تخزين تحفظ فيها غلال الزراعات الحقلية الأكثر تطوراً. أما مجاميع البيوت المتفرقة، فكانت ترتبط بعضها ببعض من خلال طرق مبلطة بالغرانيت. وتدل بقايا زينة مصنوعة من الذهب والفضة على وجود شيء من الرفاء والعلاقات التجارية فيها، بينما أقلع النحاس، مادة صنع الأسلحة والأدوات، عن أن يكون معدناً نفيساً. تلفت النظر كذلك الأشكال الجديدة للفخار الذي تحسنت نوعيته، والإنفاق الأكبر على دفن الموتى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صحيح أن الدفن تحت أرض البيوت السكنية بقي سائداً، لكن الميت لم يعد يطمر، بل صار يسجّى في أوعية فخارية كبيرة. وقد تم اكتشاف أكثر من ألف وثمانمئة عملية دفن على هذه الطريقة في جبيل، وتشير الجرار والأكواب المدفونة مع الجثة إلى أنهم أخذوا يزودون الميت بشيء من الأدوات. ويرجح أن يكون الأحياء قد لجؤوا إلى الأضاحي من أجل ضمان «استمرار وجود» الميت.

ترتبط الحضارة المتطورة للعصر النحاسي اللبناني ارتباطاً وثيقاً بتطور الشرق الأدنى القديم العام. ويظهر هذا الارتباط في فخار هذه الحقبة اللبناني، وثيق القرابة بفخار حفريات شمال سورية وبلاد ما بين النهرين. ويعكس قوة الصلات بين مناطق الحضارة الإنسانية المبكرة في الشرق الأدنى، التي لعبت العلاقات التجارية دوراً هاماً فيها دون أي شك. ويبدو أن من حملوا ونشروا النبضات الحضارية الجديدة في العصر النحاسي تحدروا أساساً من شعوب أتت من سهوب تقع على حافة هذه المناطق الحضارية، تغلغلت في نهاية الألف الخامس إلى ما يسمى (الهلال الخصيب) أي إلى المنطقة الممتدة من فلسطين عبر شمال سورية إلى جنوب بلاد ما بين النهرين. وثمة قبول للفكرة التي ترى في هذا أول موجة هجرة معروفة قامت بها عناصر من الشعوب السامية نحو الشرق الأدنى الخصيب.

بدأ لبنان يلعب دوراً أكبر في الحياة التجارية قرب نهاية العصر النحاسي، حين أخذت مصر ما قبل الملكية تستخدم خشب البناء المستخرج من غاباته. صحيح أن استيراد الخشب لم يكن آنذاك كبيراً بعد، لكن ظهور البعثات المصرية في منطقة الساحل اللبنانية من حين لآخر أحدث بالتأكيد انعكاسات عززت تطورها، بينما كان يتم بالتأكيد تخطّي طور مستقرات صيادي الأسماك وزراع الحقول المتواضعة في زمن سابق للزمن الذي تحدده لنا اللقى الأثرية المتاحة اليوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعلمنا نتائج حفريات جبيل أيضاً أن بعض شروط الحضارة المدينية المهمة تشكلت بسرعة، مع الانتقال من العصر النحاسي إلى العصر البرونزي المبكر (من حوالي عام (3200) إلى (300 ق. م)) بدليل ظهور المعالم الأولى للتحصينات المدعمة، التي كانت قد اقتصرت أول الأمر على تسييج التجمعات السكنية التابعة لإحدى الأسر الكبيرة. كما تم الإقلاع عن عادة دفن الأموات داخل المستقر، وظهر نمط بيت لبناني متوائم مع الظروف المناخية المحلية، يختلف عن مباني البلد الداخلية بسطحه المحدب قليل الميل، ويشبه البيوت الحالية في المناطق الساحلية غزيرة الأمطار. كان تصميم سقوف هذه البيوت المتينة يتسم بخصائص مميزة، فالدعامة التي في قمته تقوّى بدعامات تشبه الأعمدة تقوم في منتصفه، بينما تقوي دعامة جدارية أخرى الدعامات. في هذا النمط من البناء، كان العمود الأوسط عنصر التصميم الأهم، الذي سيميز لأمد طويل منازل جبيل، ويذكّر (بشجرة البيت) في الأبنية السكنية التي عرفها نمط أبنية الطوب المشوي القوطي في شمال ألمانيا.

يثير الاهتمام، في هذا السياق، ربط (شجرة بيت) العهد القديم بالخرافة المصرية: حسب خرافة أوزيرس التي نقلها لنا الكاتب الإغريقي بلوتارخ (46 - 120 م) يلقي القاتل سِيت قتيله أوزيرِس مع التابوت في البحر، فيحمله التيار إلى جبيل، حيث تحتويه في جذعها بمرور الزمن شجرة أثل قائمة في المكان. يرى ملك جبيل الشجرة العملاقة ويقرر جعل جذعها دعامة مركزية لأكبر قاعات قصره؛ فيتم قطعه واستخدامه لهذا الغرض، دون أن يلاحظ أحد التابوت الموجود فيه. في هذه الأثناء، تصل إيزيس الباحثة عن جثمان بعلها إلى جبيل، وتعرف عبر نبوءة بمكان التابوت داخل العمود الخشبي، فيأمر الملك بإخراجه وتسليمه إليها.

ليست هذه الأسطورة قديمة بالقدر الذي يعتقده بعض الباحثين، الذين يرون في الصراع بين أوزيرس وسِيت انعكاساً للصراعات بين مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والوافدين الساميين في نهاية الألف الرابع أو حتى الخامس قبل الميلاد. إن ما يثير اهتمامنا هو التصورات التي تقدمها حول علاقات مصر وجبيل، والتي تفترض أنها قديمة قدم التاريخ وتضفي عليها جانباً أسطورياً ـ دينياً. من الأهمية بمكان، في هذا السياق، أن الأسطورة ترتبط بعناصر من عبادة النبات، التي تأخذ في بلد مصدر للأخشاب كلبنان شكل عبادة تدور حول الشجرة تبين إلى أية درجة حددت الغابة اللبنانية منذ البداية شكل الارتباط التاريخي الوثيق بين لبنان وبلاد النيل (شكل 2).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

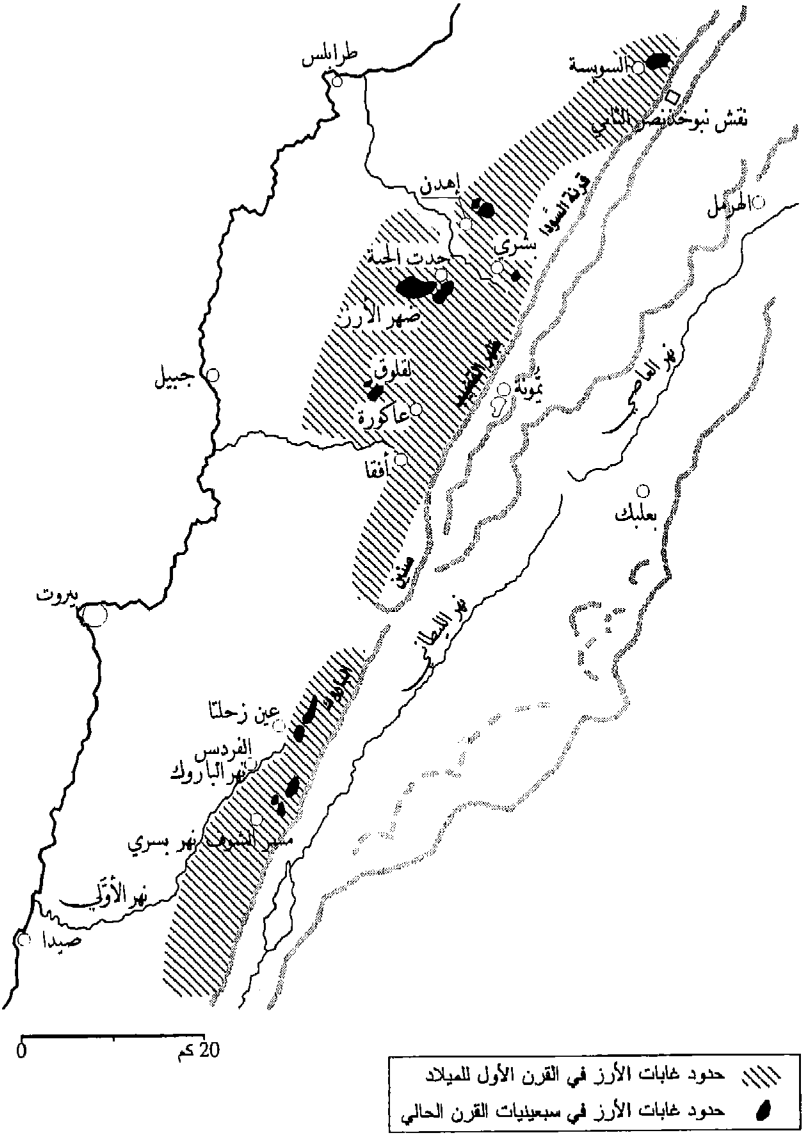

الشكل (2): غابات الأرز في لبنان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غابات الأرْز

«أُشبِهُكِ بأرزةٍ في لبنان، جميلة الأغصانِ
وارفةِ الظِّل، عاليةٍ، رأسها بين الغيوم.»[1]

لسبب وجيه، تزين شجرة الأرْز علم دولة لبنان، (بلد الأرْز) الكلاسيكي طوال آلاف السنين، الذي بقيت شهرته موضع شك رغم ذلك. لكن أشجار غابة أرْز بشرّي الشهيرة، التي يفكر المرء فيها عادة عندما يتحدثون عن الأرْز، لا تصلح خشباً للبناء إلا بصعوبة، بسبب جذوعها المليئة بالنتوءات وأغصانها المتشعبة. لهذا السبب، ربما تمت مماهاة ما أسماه العهد القديم [إيريز]، وأسمته النصوص الأكادية خشب [إيرينو] الآتي من لبنان، مع سواه من الأشجار إبرية الأوراق. لكن لا شجرة العرعر السامقة ولا شجرة التنوب الكِيلِيكِيَّة يمكن مقارنتها جدياً بشجرة الأرْز، خاصة أن هذه يمكن أن تتردى في ظروف مكانية غير ملائمة إلى ما بلغته شجرة أرْز بشري، التي تعرضت في شبابها للتشويه بفعل الماعز، والانهيارات الثلجية. عندما تكون شجرة الأرْز في غابات خاصة بها ومحمية، فإنها تنمو باستقامة ورشاقة، كما تظهر حالات كثيرة عرفها لبنان. لم تكن تسميات النباتات دقيقة دائماً في المراجع الشرقية القديمة ومراجع العصر القديم، بل وجد في أحيان كثيرة تبديل في الأسماء لصالح الأرْز، الذي تم اكتشاف كميات كبيرة من الدعامات والأشياء الأخرى المصنوعة من خشبه في

1. سفر حزقيال (31:3). كافة الاقتباسات الكتابية من نسخة الكتاب المقدس الصادر عن جمعية الكتاب المقدس في لبنان. الطبعة الأولى 1993.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حفريات مصر وماري. لذلك لا يجوز أن يراودنا أي شك في هوية الأرْز، الذي ما زال اللبنانيون يطلقون عليه اسم (أرْز) أو (أرِز) القديم.

رجعت أهمية أرْز لبنان الاقتصادية في العصر القديم إلى وجوده بوفرة كبيرة كشجرة غابية تتميز بها مناطق أعالي الجبال. كما أن الخشب المخصص للاستعمال، القادم من لبنان، كان في الأغلب خشب أرْز، وهذا ما أقام تطابقاً بين الأهمية الكمية لغاباته والأهمية النوعية لخشبه. يقول نقاد الأرْز إن خشبه هش وقصير العمر. هذا القول لا ينطبق إلا على القشرة الخشبية الواقعة تحت اللحاء مباشرة، أما نواة الشجرة فهي من خشب مائل إلى الاحمرار، طيب الشذى، يتصف بالصلابة والديمومة. وثمة أيضاً منتجات فرعية للأرْز هي الصمغ والقار وزيت الأرْز الذي يمكن الحصول عليه بالتقطير، ومازال استخلاصه من أغصان الأرز يتم اليوم أيضاً بالطريقة القديمة، أي باستخدام موقد من لوحين حجريين تضرم النار بينهما.

لم تكن غابات الأرْز حكراً على لبنان وحده، بل كانت موجودة على العموم في جبال سورية وآسيا الصغرى الساحلية، وفي قبرص وشمال غرب إفريقية. لكن كانت للبنان أهمية خاصة بين مناطق الأرْز ترجع إلى قربه من بلاد النيل، ذلك أن مصر القديمة كانت عاجزة عن تغطية حاجتها المتزايدة إلى الخشب من مواردها الذاتية. وكانت قابلية أخشابها المحلية للاستعمال محدودة، بسبب قسوتها وكثرة النتوءات في جذوعها. ومع ذلك، استخدمها المصريون وصنعوا منها سفناً ضخمة، ركبت من ألواح قصيرة من خشب الطلح والجميز. وحين تأكدوا من وجود عيوب في توازنها، عملوا لإزالته بوساطة جدائل ضخمة من الحبال، تلتقي في مقدمة السفينة فتبقيها متماسكة كأنها مضمومة في شبكة. ورغم ما في ذلك من غرابة، كانت هذه السفن قادرة على مخر البحر، فصار وصول أبناء مصر القديمة إلى لبنان ممكناً بالطريق البحرية، وكذلك وصولهم إلى مخزون غاباته الخشبي. يوجد أقدم خبر مكتوب عن واردات مصر من خشب لبنان في مقطع من حوليات ثلاث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنوات متعاقبة إبان حكم الفرعون سْنُفْرُو (بدءاً من حوالي عام «2630 ق.م»، يشير بطريقة لافتة إلى استخدام قسم من خشب الأرْز المستورد في بناء السفن، ويقول إن أربعين سفينة مصرية قامت بنقله إلى مصر. لم تكن كمية الأخشاب التي جلبتها هذه البعثة الكبيرة ضخمة بالتأكيد، لأن وزن السفن المصرية كان ثقيلاً وعدد ملاحيها كبيراً؛ ولأنه لم يكن بإمكان هؤلاء التخلي عن استخدام المجداف اليدوي في الإبحار، خاصة أن التيار البحري والريح كانا يعوقان غالباً سير سفنهم في رحلة العودة. لم تكن قدرة السفن على الشحن كبيرة إذن، لذلك بنيت في العام التالي لوصول المادة المستوردة ثلاث سفن فقط، لخدمة أغراض فرعون التمثيلية والتفاخرية. كان استخدام الخشب المستورد في السفن التجارية يقتصر على الأجزاء التي لا يصلح المحلي منه لبنائها. ينطبق هذا قبل كل شيء على التدعيم العرضي للسفن، الذي تم إدخاله في منتصف الألف الثاني، واستخدمت فيه ألواح تغطية امتدت من أحد جانبي السفينة إلى الآخر؛ فأمكن الاستغناء عن حزمها بالحبال. لكن التوازن الطولي للسفن، التي بقيت مسطحة دون حيزوم (قاع) كان يجب أن يؤمن، كما في السابق، بواسطة حبل ضخم يربط مقدمة السفينة ومؤخرتها بعضهما إلى بعض بقوة. لسير هذه السفن المسطحة سيراً آمناً عبر الأمواج، كان على دفة التوجيه ذات الأمتار الستة إلى الثمانية، المستخدمة حتى في السفن الأصغر، أن تكون قادرة على تحمل إجهادات هائلة. لذلك فضل بناتها صنعها من خشب أرْز لبنان، الشهير بقدرته على الصمود لفترة طويلة في الماء. بالمقابل، لم يكن خشب الأرْز الثقيل ملائماً بالقدر نفسه لصنع صواري السفن. وإذا صح أن صارية السفينة الرمزية لدولة صور قد صنعت، كما يقول سفر حزقيال (27:5) من جذع شجرة أرْز لبنانية، فان هذا لم يكن بالتأكيد من العادات السائدة في بناء السفن. هذه الصواري، كانت تصنع من خشب شجرة التنوب الكِيلِيكِيَّة أو صنوبر حلب، الموجود بدوره بوفرة في غابات لبنان (شكل 3).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

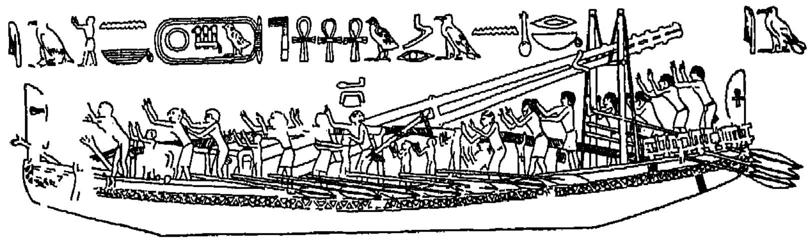

الشكل (3): سفينة بحرية مصرية من اسطول الملك ساحور (حوالي عام 2500 ق. م). مجسّم في معبد الموتى الملكي في ابوصير. السفينة عادت إلى المرفأ وانزلت صاريتها. اما المخلوقات الصغيرة ذوات الرؤوس الحليقة فهي العبيد.

استخدم القسم الأكبر من واردات مصر من خشب لبنان لأغراض دينية على الأرجح. فكان يستعمل في التجهيز الداخلي للمعابد، وفي بناء السفن؛ فالسفينة كانت وسيلة انتقال البشر والآلهة في مصر، لذلك كانت القوارب المخصصة لمواكب الآلهة جزءاً دائماً من أثاث المعابد، وبنيت من خشب مستورد نفيس، من (أحسن ما في الشرفة) كما لقبوا لبنان آنذاك بحق. وقد سعى المصريون حتى في أوقات الضعف الشديد، وفي ظل أعظم الصعوبات، إلى الحصول على خشب لبنان، كما يقول تقرير (وِن ـ أمون) الذي سافر حوالي عام (1080 ق. م) إلى جبيل، «كي يجلب الخشب لسفينة أمون رع، ملك الآلهة، الكبيرة والرائعة». يوضح نص (وِن ـ أمون) أن خشب الأرز كان يؤخذ دون غيره بعين الاعتبار لدى بناء سفينة للآلهة. كما أن السفن كانت جزءاً من الحاجات التي تدفن في القبر مع الميت، كي لا يبقى دون وسيلة نقل في العالم الآخر. وقد تمت تلبية هذه الحاجة في العادة من خلال نماذج صغيرة من السفن تدفن مع الميت، وإن كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المملكة القديمة قد دفنت مراكب نيلية يصل طولها إلى حوالي خمسين متراً في مقابر الملوك. أما مادة السفن الاحتفالية، فكانت في الأعم من خشب الأرز وغيره من أخشاب أشجار لبنان (شكل 4). كان الخشب المستورد مرغوباً، كذلك، في صناعة التوابيت، التي كانت حاجة ضرورية في جميع الأزمنة. واستأثرت بقسم كبير من الخشب المستورد القبور التي اعتبرت مقامات دائمة للأموات، من الضروري أن تكون متينة وشبيهة بمساكن الأحياء إلى أبعد حد ممكن، وخاصة منها قبور الملوك والأعيان تحت الأرضية الرحبة، التي عرفها العصر الملكي المبكر وعصر المملكة القديمة (حوالي عام 3000 إلى 2300 ق. م) (شكل 5). يفسر هذا لماذا تم أحياناً تغطية أكثر من أربعين غرفة بغطاء خشبي كثيف، منها غرف رئيسة غطى الخشب أقساماً واسعة منها. هذا الغطاء كان يجب أن يكون متيناً بدرجة تجعله قادراً على

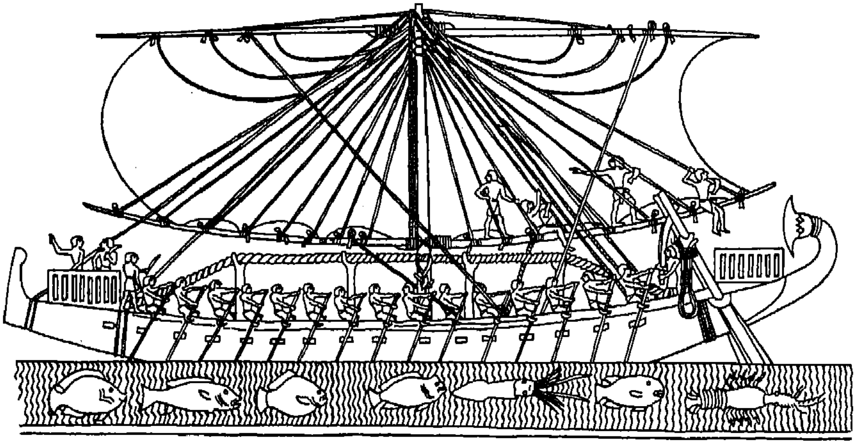

الشكل (4)، سفينة بحرية مصرية من أسطول الملكة حتشبسوت (حوالي 1490 ـ 1468 ق. م). مجسّم في معبد الموتى الملكي في دير البحري. يلاحظ تطور دفة التوجيه بالمقارنة مع طراز سفن المملكة القديمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

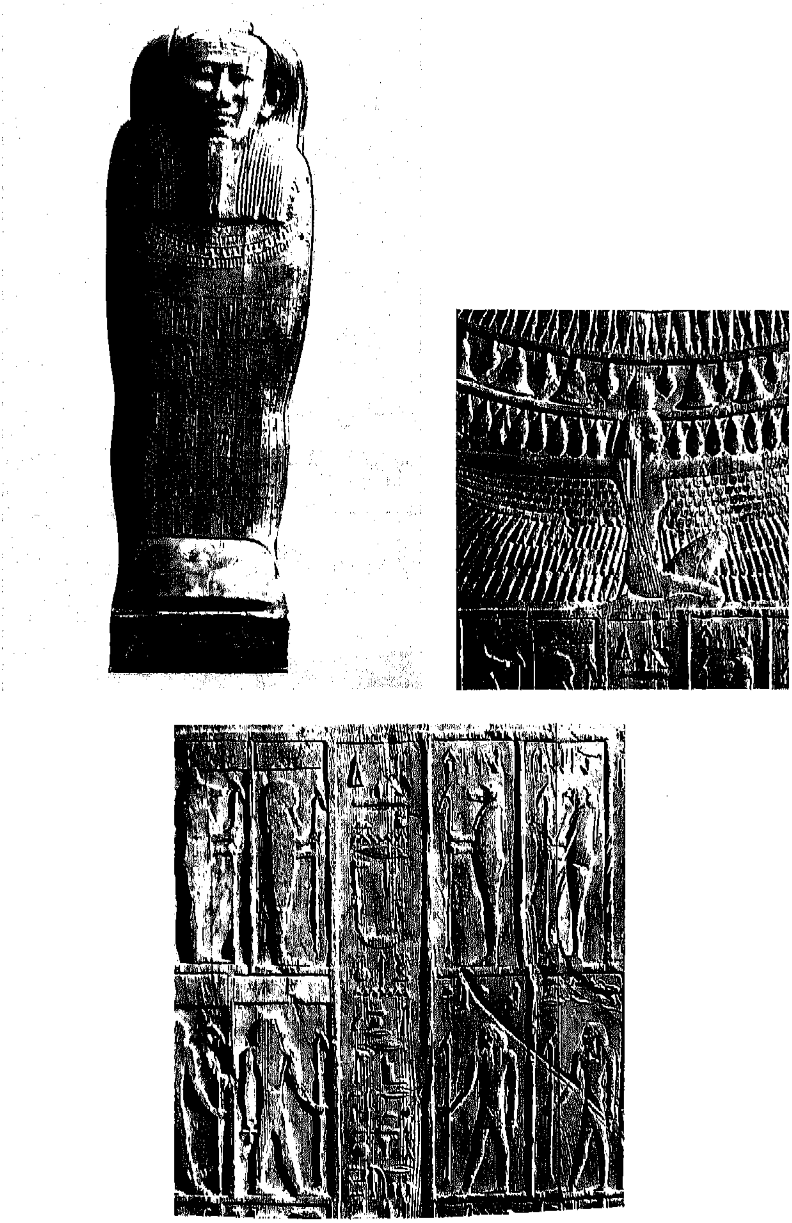

الشكل (5): توابيت مصرية مصنوعة من خشب الأرز (غير معروفة المصدر).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمل وزن قبة القبر المتكومة فوقه. أخيراً، تطلب دفن الموتى استعمال كميات أكبر من صمغ الأرْز الذي كان يحفظ أجسادهم، والذي كانت تحشى به فراغات أجسام المومياءات. أخيراً، لم يكن ممكناً الاستغناء عن منتجات الأرْز في التبخير والتعطير أثناء ممارسة الطقوس والعبادات.

تظهر هذه النظرة العامة أهمية استيراد الخشب والمنتجات الغابية من لبنان إلى مصر. من جانبها، لم تكن بلاد ما بين النهرين أقل اعتماداً من مصر على استيراد الخشب. وإذا كانت توجد بالنسبة لها مناطق غابية أقرب، فإن استنزافها المتعاظم أدى إلى جعل لبنان شريكاً أكبر في وارداتها من الخشب طوال الألف الأول قبل الميلاد. قبل ذلك بفترة قصيرة، ظهرت أيضاً الدول السورية ـ الفلسطينية الصغيرة في سوق الأرْز اللبناني. وهناك معلومات دقيقة عن واردات سليمان من الأرْز لإشادة أبنيته التمثيلية ـ التفاخرية. فالإصحاحان السادس والسابع من سفر الملوك الأول يقولان إن دور خشب الأرْز في أعمال البناء كان كبيراً جداً، وإن ألواحه كانت تغطي المعبد وتكسو جدره الداخلية برفوف مصنوعة من خشبه؛ «وكان على الهيكل من الداخل أرْز... فلم يكن يَبين حجر لأن كله من الداخل كان أرْزاً» ـ سفر الملوك الأول (6:18). لذلك أسمي المعبد بحق «بيت أرْز» يهوه، إله بني إسرءيل ـ سفر صموئيل الثاني (7:7).. أما أرض المعبد فقد غطيت بألواح من خشب السرو أتت بدورها من لبنان. من جانبها، كسيت قاعة العرش والقضاء بخشب الأرْز ـ (سفر الملوك الأول 7:7). كما كان هناك بناء مميز هو (بيت الغابة اللبنانية) الذي بلغت مساحة أرضه 50 × 25 متراً، فكان أكبر مبنى في مجمع قصر أورشليم الذي بناه الملك سليمان، وحمل سقفه المكون من خشب الأرْز خمسة وأربعون عموداً ارتفاع كل منها خمسة عشر متراً.

ثمة مضاهاة مثيرة للاهتمام مع هيكل سليمان، نجدها في أساطير حول بعل تم العثور عليها في ميناء أوغاريت (رأس الشمرا) القديمة في شمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سورية، يرجع شكلها الحالي إلى حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. تنبئنا هذه النصوص، بين أشياء أخرى، عن بناء معبد لإله المدينة الأوغاريتي بعل، وتتحدث عن تصميمه الذي ينتمي إلى نفس الطراز الذي ينتمي إليه هيكل سليمان. هذا المكان المقدس الخاص ببعل يوصف بدوره كبيت من أرْز، ويمتدح لبنان كمصدر له. هذا أمر يلفت الانتباه، لأن أشجار الأرْز كانت موجودة بأعداد كافية في جبل الأقرع، مقر الإله بعل الأوغاريتي ذاته، إلى جانب غابة أرْز أكبر كانت قائمة داخل البلاد على بعد ثلاثين كيلومتراً فقط من أوغاريت، وغابة أخرى لا زالت موجودة إلى اليوم في جبل النصيرية الشمالي قرب مصيف صلنفة الجبلي، في موضع يصعب الوصول إليه. يدفعنا هذا كله إلى سؤال جوهري حول ما إذا كانت غابات الأرْز قرب أوغاريت قد استنفدت عند نشوء عبادة بعل، وهو ما نستبعد حدوثه، وما إذا كان أبناء الميناء الأوغاريتي قد استقدموا خشب الأرْز من مدن الساحل الجنوبية إلى مدينتهم بطريق البحر، خاصة أن النقل البحري كان أسهل بكثير من النقل البري؟ لا يجوز أن تجعلنا هذه الاحتمالات نستبعد إمكانية وجود تفسير ديني تاريخي لهذه الظاهرة، قوامه أن لبنان كان (جنة غابات) الآلهة، وأنه كان بوسع غابات أرْزه وحدها تقديم الخشب المناسب لإقامة بيوت أرْز الآلهة. هذه الأهمية الدينية لأرْز لبنان، التي أدخلناها ضمن حقل نظرنا في الصفحات السابقة، ستناقش عن كثب في الصفحات التالية من هذا الكتاب. لذلك نكتفي الآن بالتعريج على بعض وجهات النظر الاقتصادية والجغرافية حول هذا الموضوع.

كيف كان يتم الحصول على خشب الأرْز؟ أين وكيف كان يقطع ويحضر إلى الوادي فيشحن في السفن أو ينقل بطريق البر؟ ثمة دلائل كثيرة تشير إلى أن تدابير البعثة المصرية في الألف الثالث قبل الميلاد كانت على درجة شديدة من البساطة. فقد كانوا يجهزون أسطولاً يخرجون به إلى البحر، فان كانت الريح مواتية، بلغوا بعد أربعة أو خمسة أيام موقع رسو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناسب على الشاطئ اللبناني. عندئذ، لم يكن المصريون يضيعون وقتهم في البحث عن قوى عاملة محلية. وتدل بلطة وجدت في وادي نهر إبراهيم بين تجهيزات وحدة مصرية لقطع الأخشاب، أن هؤلاء كانوا يتولون بأنفسهم قطع أخشاب الجبال الغربية بالنسبة لهم، وأن الفريق الذي كان يقوم بنقله تابع لأسطول يضم أربعين سفينة كان كبيراً بدرجة تكفي لإنجاز هذا العمل، لأنه كان يتألف من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رجل على الأقل، يشكلون فرقة ضخمة تستطيع إنجاز العمل وحمايته عسكرياً ضد سكان مستقرات الشاطئ اللبناني، الذين لم يكن بوسعهم آنذاك حشد قوة عسكرية أكبر. كان تفاهم المصريين مع السكان المحليين وكسب ودهم أمراً سهلاً. هذا ما تؤكده أضاحي كثيرة جداً قدمها الفراعنة وموظفو الحقب التي سادت فيها الأسر الثانية وحتى السادسة، التي أمكن العثور عليها في حفريات أقدم معابد مدينة جبيل. وليس من الخطأ الافتراض أن هدية نفيسة كانت تستميل ليس فقط الآلهة، بل كذلك أمراء المدينة. فضلاً عن أن المصريين لم يكونوا مجهولين في المستقرات الساحلية القائمة عند أقدام جبل لبنان، إذ كان ثمة تبادل بين مصر وجبيل شمل سلعاً أخرى منذ فجر حقبة الأسر والمملكة القديمة. هل نحن حيال مستعمرة لرجال أعمال مصريين يقيمون بصورة دائمة في مستقرات ساحل لبنان الكبيرة؟ هذا ما ليس أكيداً أو محتملاً. حتى عندما كان المصريون لا يشترون الخشب ويتسلّمونه في سفنهم، بل كانوا يقومون بقطعه وتحميله بأنفسهم، كان سكان السواحل يعيشون من مصاريف بعثاتهم. فالفريق الكبير العدد من بحارة وعساكر السفن كان محتاجاً إلى التزود بالمواد الغذائية، والى مؤونة كافية من السمك لرحلة الذهاب، التي كانت مدتها تقدر عادة بضعف مدة رحلة الإياب على أقل تقدير، بسبب الرياح غير المواتية التي كانت السفن تواجهها وهي في طريقها إلى مصر. ولما كان تأمين هذه المستلزمات بالقوة مستحيلاً، لأن سكان السواحل، الذين لم يكن عددهم كبيراً آنذاك، كانوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستطيعون أخذ ممتلكاتهم متى شاءوا والهرب بسرعة إلى المنطقة الجبلية غير السالكة، فان الإبقاء على قاعدة التموين المصرية كان يرتبط بالعلاقات الطيبة مع السكان المحليين. وبدفع ثمن ما يطلبه المقيمون فيها.

كانت البعثات نافعة ومجدية، بسبب وجود الغابات الجبلية في موقع مناسب وقريب من الشاطئ. وكانت المصاعب التي تواجهها البعثات قليلة، متى كانت الجبال قريبة من الشاطئ، والموانئ الطبيعية موجودة بكثرة فيه، كما كانت حال ذلك المقطع من الساحل الواقع بين بيروت والبترون، حيث نهر إبراهيم، مكان العثور على البلطة المصرية المذكورة آنفاً، والمصطبة (الشرفة) الجبلية الوسطى الواقعة إلى الشمال من واديه، التي تحمل اليوم اسم جبل الكورة، موقع غابة قديمة لا نعلم إن كان هو أرض نِغو [نغو]، المحددة في المخطوطات المصرية من زمن المملكة الجديدة كمصدر لواردات مصر من الأرْز؟ ثمة بقية من أرْز ماتزال قائمة في هذه المنطقة. وهناك بضع أيك صغيرة منه في الكتلة التي ترتفع إلى ما فوق ألف وتسعمئة متر فوق المصطبة الجبلية الوسطى، القائمة شمال الطريق المفضية إلى مركز الرياضة الشتوية الحديث في اللَّقْلُوق. هذه البقايا النائية، التي توجد على مقربة مباشرة من المرتقى المؤدي إلى منطقة ظهر الجبل، لا تبعد غير خمسة عشر كيلومتراً فقط عن جبيل. أما إذا قصدناها من منحدرات جبل الكورة، الممتدة إلى الغرب منه، فانه لا يكون علينا أن نجتاز غير بضعة كيلومترات قليلة وحسب. في هذه المنطقة المجاورة لجبيل، نجد أقدم وأهم منطقة لتصدير الأرْز إلى مصر. ترى، أليس أمراً شديد الدلالة أن سفن الشحن المصرية كانت تسمى (سفن جبيل)؟ إن المصريين ما لبثوا أن تخلوا بعد حين عن بعثات الأرْز نصف العسكرية، لأن أرباحها ما عادت تناسب تكاليفها، ولأنه كان من الأفضل ترك السكان المحليين يقطعون الخشب ويجلبونه إلى الشاطئ، ويبيعونه لهم على ظهور السفن؟ مهما كان الأمر، فان لدينا تقارير تخبرنا بوصول بعثة أرْز مكونة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عشرين سفينة أرسلت إلى لبنان في حكم الملك الأول للمملكة الوسطى أمينوحتب الأول (1992 ـ 1962 ق. م).

كيف كانت الغابات تستغل؟ هذا ما تخبرنا به نصوص مصرية من المملكة الجديدة والعصر المتأخر؛ ونجد تفاصيل وافية عنه بصورة خاصة في تقرير (وِن ـ أمون) الذي سبق ذكره: بعد أن تم توضيح الجانب المالي للصفقة، بعث ملك جبيل ثلاثمئة رجل وثلاثمئة من ثيران الجر إلى الغابة كي ينفذوا المهمة. أول الأمر، كانت الأشجار تقطع وتترك مرمية طوال فصل الشتاء. في الصيف التالي، كانت تجر إلى الشاطئ لتخزن هناك وقد صارت جاهزة للشحن. يزودنا تحتمس الثالث (1468 ـ 1436 ق. م) بتقرير مماثل يقول إن الأمراء المحليين أمروا أن تجر الثيران جذوع صواري الأعلام من الجبال إلى الشاطئ. وينقل إلينا المؤرخ الروماني ديودور الصِّقلّي (القرن الأول قبل الميلاد) معلومات من زمن متأخر كثيراً حول استخدام أعداد أكبر بكثير من القوى العاملة وحيوانات الجر. فقد استخدم أنتِغُنُس مونوفثالموس، أحد خلفاء الإسكندر عام (315 ق. م) ثمانية آلاف رجل وألف ثور جر لجلب الخشب من الجبال.

كما تم التفكير من حين لآخر باستخدام الطرق المائية لنقل جذوع الأشجار إلى الوديان. إلا أن أياً من الأنهار أو الروافد المعنية لم يكن ملائماً لهذا الغرض، فالمجاري المائية سالت في وديان غير مطروقة، ضيقة في بعض الأماكن ومليئة بالنتوءات الصخرية، يمكن أن تمرر قطعاً صغيرة من الخشب في أحسن الأحوال، لكنها لا تصلح لمرور جذوع عملاقة يبلغ طولها ثلاثين متراً. رغم هذا، في حوزتنا دليل على نقل الخشب بواسطة الماء إلى البحر، هو الاتفاق بين سليمان وحيرام الأول ملك صور. بحسب نص العهد القديم، يتعهد حيرام بالتالي: «ورجالي ينزلونه من لبنان إلى البحر، فأطوفه وأقطره إلى الموضع الذي تسميه لي، وأرميه هناك فتأخذه» ـ (سفر الملوك الأول 5:23). في هذا المثال، كانت الجذوع تسلم إلى المشتري أمام باب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

داره. وقد سلمت إليه بالفعل في حيفا، كما نستدل من ملاحظة حول عملية نقل مماثلة تمت في سياق إعادة بناء هيكل القدس بعد عام 538 قبل الميلاد - (سفر عِزرا 3:7). أما القصد من هذا الإجراء فكان واضحاً: إنه اختصار مئتي كيلومتر من طريق بري وعر جداً وعصي على المرور في بعض الأماكن، باستخدام طريق بحري طوله مئة وسبعون كيلومتراً فقط. يفترض هذا كله أن الملك حيرام كان يأخذ الخشب من غابات المنطقة المجاورة لصيدا، التي كانت تخضع، على كل حال، لسيادة صور عند منعطف الألف الثاني إلى الألف الأول!

يفترض اليوم أن مصدّري الأخشاب اللبنانيين تحولوا في مرحلة مبكرة إلى توريد منتجات خشبية يتطلب صنعها مهارات خاصة. بغض النظر عن طريق النقل التي كان يمكن للمرء التفكير باستخدامها، فان تقليص الكتلة المطلوب تصديرها كان أمراً مفيداً في جميع الأحوال. ويخبرنا (وِن ـ أمون) عن إفراغ «أخشاب منحوتة» مختلفة، بينها الكتل الأمامية والخلفية التي استخدمت في سفينة الدولة الخاصة بالإله أمون. كما أرسلت سواري أعلام نصف جاهزة إلى مصر لم تكن تحتاج إلا إلى تجميع فقط. ربما كان هذا هو الذي جعل فناناً مصرياً من زمن سِثو (1305 - 1290 ق. م) يصور الغابة اللبنانية كغابة شبيهة بدغل الخيزران، وهو الذي دفع تحتمس الثالث إلى الأمر بتصنيع مراكب صغيرة ذات مجاديف في أماكن إنتاجها بلبنان، على أن تشحن من مرفأ جبيل إلى مصر (شكل 6). يخبرنا تحتمس كذلك عن استخدام سفن صنعت في جبال لبنان لعمليات عسكرية قام بها الجيش المصري؛ فقد أمر خلال حملته الثامنة في الشرق الأدنى ببناء «سفن كثيرة من خشب الأرْز، وضعت على عربات جرتها ثيران مرت بها أمام جلالتي، ليتم اجتياز النهر الكبير [الفرات] بواسطتها......». هذه السفن يرجح أنها كانت مراكب تجديف كبيرة بعض الشيء، وهذا يجعل من واقعة نقلها لمسافة ثلاثمئة وخمسين كيلومتراً على الأقل إنجازاً عظيماً. وفق ما تقدمه المصادر لنا من معلومات،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان لا بد من مرور ألف عام قبل أن تتكرر عملية مشابهة. فالكاتب الإغريقي فلافيوس أريان (القرن الأول قبل الميلاد) يخبرنا أن الإسكندر المقدوني أمر قبل وفاته بوقت قصير بإحضار سفن من فينيقيا إلى الفرات. يدور الأمر هنا حول وسائط نقل أكبر ذات سبعة مقاعد للتجديف، نقلت مفككة ثم أعيد تجميعها من جديد على الفرات. غير أن المؤرخ الروماني الأقدم كُونتوس كُورتيُوس يقدم لنا رواية أخرى حول هذا الحدث، نعتقد أنها أكثر صحة من الرواية الأولى، تقول إن الإسكندر أمر بقطع الخشب في لبنان وجلبه إلى ثبابِسَكوس (تِفسَه) على الفرات، لبناء السفن هناك.

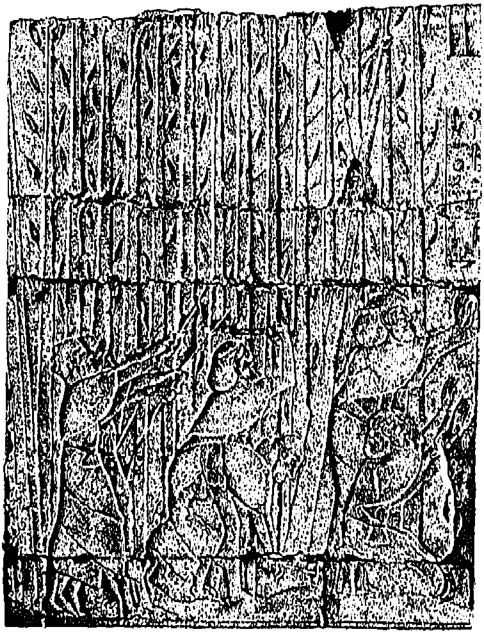

الشكل (6)، اكداس من ارز لبنان مخصصة لفرعون مصر سِيثو الأول. مجسّم من الجدار الخارجي لمعبد امون في الكرنك. يقف سيثو على اليمين خارج مقطع الصورة. اما جذور الأشجار فمخصصة، حسب الكتابة المنقوشة على المجسّم، لبناء سفينة نهرية ولسواري الرايات في معبد امون. يوضح المجسّم ان الفنان لم يمتلك غير صورة غامضة عن اشجار لبنان التي تصورها كاشجار الموز.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما سبق أن ذكرت، غطت دول بلاد ما بين النهرين حاجتها إلى الخشب لفترة طويلة من أشجار مناطق جنوب آسيا الصغرى الطرفية، وخاصة منها منطقة الأمانوس، أي (جبل الأرْز) وفق تسمية منقوشة بالخط المِسماري. لكن غابات لبنان ربما تكون قد تلقت في أزمنة أقدم زيارات قامت بها من حين لآخر بعثات قدمت من بلاد ما بين النهرين للحصول على الخشب. وهناك شهادة على أن ملك ماري يَحدُونليم (1825 - 1793 ق. م) قام بمشروع كهذا، وإن كان التقرير لا يذكر، على كل حال، اسم منطقة الغابة، بل يكتفي بذكر قربها من البحر، وهذا ينطبق على غابات جبل الأمانوس وجبل النصيرية، وإن كان من الضروري التذكير بأن منحدرات لبنان الشمالية كانت هي الأقرب إلى ماري. لا نقدر أن نحدد بدرجة كافية كذلك مصدر (أخشاب العطر والصمغ، الأرْز والسرو والريحان) التي يذكر نص من ماري وصولها من قطنا (هي اليوم قرية المشرفة، الواقعة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال من حمص) التي يرجّح موقعها أن يكون جبل النصيرية مصدر ما وصل منها إلى ماري. ويرد أقدم ذكر مؤكد لـ [لبنني] كهدف لبعثة أرْز قدمت من بلاد ما بين النهرين في زمن الملك الآشوري تغلاتبلصَّر الأول (1114 - 1076 ق. م) وإن كان الاستغلال الآشوري المكثف لغابات لبنان لم يبدأ إلا في زمن المملكة الآشورية الجديدة، حوالي عام (900 ق. م).

لم تكن الظروف الخارجية ملائمة لنقل الخشب إلى أشور، فكان من الطبيعي أن يتطلع الآشوريون إلى اختصار الطريق البري المتعب، ويتصرفوا بطريقة مشابهة لطريقة حيرام ملك صور، فينقلوا جذوع الأشجار بطريق البحر، لجزء من المسافة على الأقل، من الشاطئ اللبناني إلى أحد مرافئ سورية الشمالية، ويستخدموا جزءاً من نهر العاصي صعوداً نحو المنطقة التي ستبنى فيها أنطاكية، فيما بعد. أمّا متابعة النقل، فكان لها طرق أقصرها خطوط القوافل الشمالية القديمة التي تمر من حلب عبر حَرّان، حيث كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتحتم التغلب على حوالي ستمئة كيلومتر من طريق برية قبل بلوغ المنطقة المركزية من المملكة الآشورية. وعند بلوغ نهر الفرات كان يمكن نقل الأخشاب بالطريق المائية إلى بابل أولاً، ثم تحويلها من هناك عبر طريق برية إلى نهر دجلة، ليقوم البشر أخيراً باستغلال تياره السريع الصاعد ويجروا الأخشاب نحو المدن الآشورية. وتشهد نقوش قصر الملك سَرَغون الثاني (721 - 705 ق. م) في خورس أباد (دور شاروكين) على أنه تم فعلاً نقل خشب مخصص للبناء بهذه الطريقة (شكل 7).

بالمقارنة مع هذا، كانت ظروف نقل الخشب إلى بابل أكثر سهولة، خاصة أنّ سادتها كانوا يفضلون غابات أرْز شمال غرب لبنان، التي كان خشبها يصل على الطريق البرية إلى الفرات مباشرة، عبر البقاع في الجانب الشرقي من جبل لبنان. في النصب التذكاري المقام في وادي الشربين (كان معروفاً في الماضي تحت اسم وادي بريصا أيضاً) ترك نبوخذنصر لنا وصفاً للأعمال التي كانت ضرورية لنقل الأرْز في هذه المنطقة: «إن ما عجز عنه أي ملك سابق، نفذته أنا. فقد فلقت جبالاً سامقة، وشققت الصخور، وفتحت الطرق، وبنيت طريقاً أملس منبسطاً للأرْز....».

يضخم نبوخذنصر، دون شك، حجم بناء الطرق في منطقة أرْز شمال غرب لبنان، التي لم تكن مستغلة من قبل. بالنظر إلى أن نقل الخشب إلى بلاد ما بين النهرين كان مهمة جد صعبة في جميع الظروف والأحوال، فقد تعامل الآشوريون والبابليون بحرص شديد مع استيراده من لبنان، ولم يوفروه بكميات كبيرة إلا لبناء المعابد والقصور. وإذا كان يقال لدى النبي صفنيا في الحكم على نينوى: «وتقيل في نوافذها البومة وعلى عتباتها الحرباء، لأن خشب الأرز عُرِّي عنها» - (سفر صفنيا 2:14). فإنه يصبح جلياً أنهم لم يستخدموا خشب الأرْز كعناصر حمل وحسب في المباني الرسمية، بل استخدموه في البناء الداخلي أيضاً، مثلما فعل سليمان. وقد احتاجوا في العصر الآشوري الجديد بصورة خاصة إلى أفضل أنواع خشب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل (7): قطع أشجار الصنوبر في لبنان ونقلها إلى الشاطئ. مجسّم من قصر سرغون الثاني في خورس آباد (حوالي عام 700 ق. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرز والسرو لصنع أبواب القصور والتحصينات القوية، التي بلغ ارتفاعها سبعة أمتار ونصف وعرضها أربعة أمتار ونصف. بالمقابل، لم تستعمل بلاد ما بين النهرين إلا نادراً خشب الأرز في بناء السفن. وإذا كان سنحريب الآشوري (704 - 681 ق. م) يحدثنا عن حرفيين سوريين بنوا سفناً حربية في نينوى، فإنه لا يقدم لنا أية معطيات حول مصدر الخشب المستخدم. غير أن الأسطورة الإغريقية حول الملكة سميراميس تقول صراحة إنها زودت بناة السفن بخشب أشجار إبرية الأوراق مستوردة من فينيقيا وسورية وقبرص، لتمكنهم من بناء سفن نهرية يستطيعون الانتقال بواسطتها إلى نهر الهند (الهندوس).

بسبب مصاعب النقل، كان الخشب يقص عادة في أماكن قطعه بلبنان، ويرتب وفق الوجهة التي سيرسل إليها. يظهر (مجسّم البحرية الكبير) من قصر سَرَغون الثاني نقل مادة خام معالجة سواء على ظهر السفن أم بالجر (شكل 8). أما نقل عناصر البناء الأصغر فكان أسهل، لأنه كانت تستخدم فيه قوافل الجمال، حيث كان الواحد يستطيع مثلاً أن ينقل إلى مسافات بعيدة عمودين من الأرز طول كل منهما ثلاثة أمتار وقطره خمسة عشر سنتيمتراً. ومازال المرء يرى من حين لآخر في لبنان الحالي جملاً بسنام

الشكل (8): جنود آشوريون ينقلون أخشاب البناء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعمل (كناقل للخشب). أما أطول طريق نقل برية فهي تلك التي حملت أرْز لبنان إلى إيران، كي يستخدم في بناء قصور ملوك الأخمينيين، الذين أذاع كتاب العصر القديم صيت بيوتهم الفخمة المبنية من خشب الأرْز. يخبرنا داريوس الأول (521 ـ 485 ق. م) عن طريق النقل هذا في نقشه المعلق على حصن سوسة، فيقول: «أما الأرْز، الذي تم إحضاره من جبل اسمه لبنان، فقد أدخله الآشوريون إلى بابل، ومنها أحضره كارِيُّون وأيونيير (أسيرا حرب؟) إلى سوسة».

يتطلب الجانب التجاري من استغلال غابات لبنان بعض الشرح التكميلي. من المسلم به إن كلا الشريكين التجاريين كان يطمع في عقد صفقة جيدة قدر الإمكان. بالنسبة إلى المستورد، كان الوضع يعتبر مثالياً عندما كان يمتلك هو نفسه الغابات. بل إنه كان من الأفضل له أن يسلمه ملاّك الغابات كميات الخشب المرغوبة أتاوة بلا مقابل على ظهر السفينة أو في بيته، لأن ذلك كان يتيح له تخفيض نفقاته الإدارية الكبيرة، التي كانت تحد من قدرته على استزراع واستغلال الغابات بنفسه. مثل هذا الموقع الامتيازي المليء بالمكاسب أتاحته لبلاد النيل خلال فترة طويلة السياسة الآسيوية لفراعنة المملكة الجديدة. من الضروري أن نذكر، في هذا السياق، أن العقل المصري القديم كان يرى في جميع البلدان رعايا خاضعة لسيد المملكة المصرية الإله (أمون ـ رع) وأنه اعتبر العلاقات التجارية العادية، القائمة على قاعدة النفع المتبادل، أتاوات واجبة الأداء. وقد قام تحتمس الثالث بتنظيم استغلال غابات الأرْز لصالح اقتصاد الدولة المصري، بعد وقت قصير من قيامه بحملته الآسيوية الأولى. لذلك يستخدم الموظف (سِن ـ نِفِر) الذي قاد حملة أرْز خلال حكم تحتمس الثالث، في تقريره كلمة محددة في وصف غابة الأرْز الجبيلية تعني (الأرض الملَكِيَّة) في اللغة المصرية المألوفة، ملمحاً إلى أن استزراع هذه (الأملاك) أسند إلى تابع فرعون في جبيل، الذي هو ملكها. ويعبر تحتمس الثالث في نقوشه المتأخرة عن سعادته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسبب كثرة دخله من أتاوات الأرز، فزعماء لبنان يبنون سفنا مَلَكيَّة ويحضرونها مليئة بأتاوات أخرى إلى مصر. والأرز يسلم كل عام في الموعد المحدد إلى البلاط - «فلا أترك أي شيء منه للآسيويين». هذا النظام عمل بفاعلية لفترة طويلة، وإن تخللته بعض الانقطاعات.

ربما تكون مصر قد أقامت في هذه الفترة قاعدة في منطقة أرز جبيل، لضمان تدفق الأتاوات عليها دون مشاكل، والحيلولة دون وقوع أي تهرب غير شرعي من دفعها. هذه القاعدة ربما كانت هي (مدينة وادي الأرز) الغامضة، التي يرد ذكرها في قصيدة مديح رمسيس الثاني (1290 - 1223 ق. م) التي نظمت بمناسبة انتصاره على الحِثِّيين قرب قادش (تل النبي مَنَد). كما يلعب وادي الأرز دوراً مهماً في عمل أدبي مصري صدر في الوقت ذاته تقريباً هو (حكاية الأخوين). هذا الوادي يتماهى في أقل تقدير مع البقاع، الذي كانت جيوش فرعون تخترقه عادة في زحفها شمالاً. وإن كان من غير المفهوم لماذا أسمى المصريون البقاع وادي الأرز. ويمتلك وادي الأرز في (حكاية الأخوين) ممراً إلى البحر، وهو أمر قد لا يكون مختلقاً، ما دام الوصف التضاريسي لحملة رمسيس الثاني يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على أحد وديان المنطقة المجاورة لجبيل. ومن الجدير بالذكر أننا نمتلك،أدلّة كثيرة على أن مصريي ذلك الزمن استخدموا في معظم الأحيان ممرات لبنان الجبلية.

في أزمنة الضعف السياسي الخارجي لمملكة الفراعنة، كانت علاقتها بالأمراء اللبنانيين تتغير بسرعة من النقيض إلى النقيض. يشعر (وِن - أمون) الشقي بذلك إبان عصر الأفول، عقب زوال المملكة الجديدة، ويصف بطريقة عنيفة التجاوزات التي تعرض لها خلال الرحلة التي قام بها من أجل شراء زورق آلهة أمون. ويشكو من أن ملك جبيل سمح لنفسه بانتهاج السلوك الذي كان يروقه حياله، وأنه عرف كيف يعتصر كل ما في خزنته قليلة المال. يقول (وِن - أمون) إن رجل الصفقات من جبيل لم يبد كبير تأثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحجته اللاهوتية، التي لم يكن قد تخلى بعد عنها: «أنت تقف هنا وتساوم على لبنان مع أمون، الذي هو سيده!».

في مقابل هذا، تبدو صفقة الأرْز بين حيرام ملك صور وسليمان ملك أورشليم صفقة راسخة بين جيران متصادقين، كانت قد سبقتها صفقة مماثلة مع داود الملك. طلب حيرام من سليمان قمحاً وزيت زيتون مقابل خشب الأرْز. كانت الكميات التي يجب تقديمها منها كل عام تنفيذاً لنصوص الاتفاق كبيرة جداً: حوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة طن من القمح، أو المحصول الكامل لمساحة من الأرض تعادل أربعين إلى خمسين كيلومتراً مربعاً، وقرابة سبعمئة ألف لترٍ من زيت الزيتون الصافي. هل هذه المعطيات الرقمية موثوقة حقاً؟ هذا ما لا نعرفه، وإن كنا نعلم من تقرير العهد القديم حول الصفقة - (سفر الملوك الأول 5) أن إعادة نظر لاحقة أضافت إليه بعض الأشياء وبالغت فيه. هكذا يحكى مثلاً عن قيام سليمان بإرسال ثلاثين ألفاً من عمال السخرة لتعضيد قوى حيرام العاملة - سفر الملوك الأول (5:27 - 28) وهذا محض خيال، لا يرد له أي ذكر في نص الاتفاق مع حيرام - سفر الملوك الأول (5:25). لا شك، على كل حال، في أن كميات خشب الأرْز والسرو لم تكن رخيصة الثمن. وهو ما يجعلنا نعتبر رواية قاص العهد القديم صحيحة فيما يتعلق برد فعل حيرام على طلب الشراء الذي قدمه إليه سليمان: «فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح فرحاً عظيماً...» - (سفر الملوك الأول 5:21).

ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن تجارة الأرْز مع بلاد ما بين النهرين كانت تتم بطريقة مشابهة في أزمنة السلم. وإن كانت النقوش الملكية الآشورية لا تخبرنا إلا عن الاستيلاء على غابات الأرْز بحد السيف، أو عن أتاوات الأرْز التي كان على الملوك المهزومين تأديتها. أما بعثة الأرْز التي أرسلها الملك الآشوري سنحريب فهي توصف، وفقا للقول الذي أطلقه ضدها النبي إشعيا، بالأسلوب الذي كانت تكتب به النقوش الملكية الآشورية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«... بِكل مراكبي صَعِدت رؤوس جبال لبنان، وَقَطَعتُ أطولَ أرزِهِ، وأفضَلَ سَرْوِهِ، ووصلت إلى أقصى أعاليه وإلى مجاهل غابه» - (سفر إشعيا 37:24). في مرحلة غزوات الأسلاب التي كان يقوم بها سادة المملكة الآشورية الجديدة، كان استخدام الجيش لجمع أكبر غنيمة ممكنة من الخشب أمراً مألوفاً على الأرجح. وتصور أفاريز التزيينات البرونزية، التي أمر سَلَمَنصَّر الثالث (858 - 824 ق. م) بزخرفة باب قصره في بَلَوات بها، جنوداً آشوريين وهم ينقلون أخشاباً دائرية الشكل إلى مكان تجميعها. بعد إقامة سيطرة آشورية دائمة في منطقة ساحل آسيا الغربية، كان الأمراء التابعون يكلفون إنجاز أعمال كتلك التي كانوا يقومون بها لصالح فراعنة مصر. ويتفاخر أسرحدون (680 - 669 ق. م) بعملية كبيرة يزعم إنه دعا خلالها اثني عشر أميراً تابعاً من مناطق الساحل، بينهم ملك جبيل وملك صور، واثني عشر من ملوك المدن في قبرص: «أرسلتهم جميعهم إلى نينوى، مدينة سلطتي، وتركتهم ينقلون في ظروف مخيفة مواد بناء لقصري هي أعمدة جبارة وألواح طويلة بينها قطع من الأرْز والسرو جاءت من السرارة (حرمون؟) وجبال لبنان...». بعد عقود قليلة، قام خلفه أشوربَنيبال (668 - 633 ق. م) بعملية مماثلة، حين جدد بناء معبد إله القمر سين في حَرّان. هنا أيضاً، كان بتصرف الملك أرْز نبيل من لبنان، وسرو طيب الشذى من السرارة «كنت قد أمرت ملوك السواحل، وهم جميعهم عبيد من رعاياي، بقطعها في الجبال وجرها إلى حَرّان». مثل هذه الأتاوات كانت ترتبط بأعمال سخرة قاسية بالنسبة لسكان مناطق الغابات، يشير نبوخذنصّر إلى نتائجها في نقش وادي الشربين، حيث يدين هيمنة أشور باعتبارها «سيطرة عدو خارجي» على لبنان. ذلك أن السكان تبعثروا وفروا إلى مناطق نائية، لكنه قام بطرد العدو وأعاد الناس من جديد إلى أماكن سكنهم: «جعلت سكان لبنان يعيشون في أمان بعضهم مع بعض، ولم أسمح لأحد بإخافتهم». ربما كان صحيحاً أن البابليين الجدد لم يكونوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قساة كالآشوريين عند فرض أعمال السخرة على الشعب، وإن كان من المؤكد أن نبوخذنصّر وسواه من ملوك بابل الجدد لم يكتفوا باستخدام وحدات جيشهم الهندسية لجلب خشب الأرْز والسرو من لبنان. لذلك، يرجح إنه لم يتغير أي شيء بالنسبة لسكان المناطق المحيطة بمواقع الأرْز، ولاستغلال غاباته في القرون التالية.

لم تتسع تدخلات العصر الهلنستي وتتزايد في مواقع الأرْز بسبب بناء السفن فقط، وإنما ازدادت الحاجة زيادة متسارعة إلى خشب بناء طويل الجذوع من أجل إقامة أبنية عامة وخاصة كانت أحجامها ومساحاتها لا تني تتعاظم. من جانبها، التهمت التقنية العسكرية المطورة غابات لبنان، فقد أخذ الإسكندر الأكبر الخشب منه كي يفرض الحصار على مدينة صور. وبنى يوحنا الغيشلي، أحد قادة حرب إقليم يهوذا ضد روما، آلات دفاعية من خشب أرْز كان مخزناً من أجل توسيع هيكل القدس، المدينة المطوقة من الوحدات العسكرية الرومانية.

بالنظر إلى الاستغلال المفرط، بذلت محاولات لحماية الغابات من الإنهاك والإفناء. ربما كان تحتمس الثالث هو الذي بدأ هذه المحاولات، عندما أعلن غابة أرْز جبيل أراضي مَلَكِيّة. أما السيطرة الآشورية فلم تتخذ أي تدبير للحفاظ على الغابة. ويبدو أن السلطات الآشورية لم تكتف بفرض الأتاوات وبإطلاق يد وحداتها العسكرية في الاستيلاء على الخشب مجاناً، وإنما شجعت كذلك تجارة الأخشاب في المرافئ المالكة للغابات. بعد الآشوريين، لم تبلغنا أية أخبار حول حماية الغابات إلا في العصر الفارسي. حين توجه نحميا عام (445 ق. م) إلى مدينة أورشليم (القدس) التي عينه بلاط أرتَكْسِيرِكْسِيس قيماً عليها، ورجا الملك الكبير أن يعطيه قبل مغادرته رسالة إلى «آساف حارس غابة الملك أن يُزوّدني بخشب لأبواب قصر بيت الرب وأسوار المدينة والبيت الذي أقيم» - (سفر نحميا 2:8). يثير لقب آساف الاهتمام، لأن ترجمته الحرفية تعني (حارس فردوس الملك).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفردوس، الكلمة الدخيلة على الفارسية، تعطي معنى (التسوير والتسييج) ولا تصف أي بستان أو حديقة، بل محميات الغابات الملكية. مثل هذه الفراديس كانت قائمة في أماكن مختلفة من لبنان، أحدها في محيط جبل الهرمل. وربما كان اسم قرية الفرديس، غير البعيدة عن أرز جبل الباروك، يحفظ في أيامنا أيضاً ذكرى واحدة من فراديس العصر الفارسي. ثمة معلومات دقيقة عن التدابير التي اتخذها قيصر روما هَدريان حوالي عام (134 م) وجعلت منطقة جبال لبنان العليا ملكاً لخزينة الدولة ورسمت حدودها من خلال نصب وشواهد صخرية، مع إشارات إلى ملكيتها والمحظورات المرتبطة بها. هذه النصب التي بقي منها أكثر من مئة، تقدم لنا صورة عن حجم المنطقة التي كانت مزروعة آنذاك بالأرز وسواه من أخشاب الاستعمال، و تطابق حدود المحمية تقريباً حدود المنطقة الصالحة لنمو الأرز. هكذا يكون الاستغلال المكثف لغابات الأرز قد قلّص كثيراً موجوداتها القابلة للقطع، إلا إنه لم يحد، رغم ذلك، من انتشار مناطق استنباتها. مع توافر الظروف الملائمة، والتكاثر الشديد للأرز، الذي نبتت من حوله شجيرات جديدة كثيرة العدد حتى في الأرض الصخرية، كان وقوع مثل هذا التقليص أمراً بعيد الاحتمال. لذلك يعتقد أن إبادة غابات الأرز كان نتيجة لتربية الماعز بالدرجة الأولى، التي انتشرت انتشاراً متعاظماً مع سكن مصاطب الجبل الوسطى منذ العصر البيزنطي، وقضت تماماً على نمو أجياله الجديدة (شكل 9). ربما كان للفحامين أيضاً نصيب من إبادة الغابة، فقد عرف هؤلاء كيف يصنعون فحم الخشب حتى من أدق الجذوع. أخيراً، لعبت القطارات دوراً تدميرياً رهيباً بالنسبة إلى ما كان قد بقي من الغابات، فقد أوصلت حاجتها إلى المواد قابلة الحرق خلال الحرب العالمية الأولى بلطات قطاع الخشب إلى مناطق لم تكن الأيدي قد امتدت إليها إلا قليلاً من قبل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

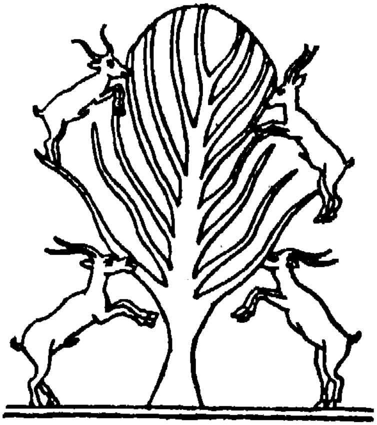

الشكل (9)،
رسم اثري
يصور الماعز
يقضي على
الغابات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرْز في الشعر والأسطورة

«أرسل العوسج الذي بلبنان إلى الأرْز يقول: زوّج ابنتك لابني. فمر وحش البريّة هناك وداس العوسج.»[1]

لا تبرز أهمية أرْز لبنان في العصر القديم على حقيقتها، إذا ما قصرنا نظرتنا إليه على الجوانب الاقتصادية وحدها. فالنصوص تشير مرات كثيرة إلى الحدث الجمالي الطبيعي الذي هو غابة الأرْز. إن المنظر البهي للأشجار المفعمة بالفخامة، وظلها الوارف المنعش، وشذاها الخاص اللطيف، هي مدار ذكر دائم. لم يكن المصري شديد الانفتاح على هذا الحدث الطبيعي، فقد كانت تقلقه حتى الفكرة الصرف عن غابات الشرق الأدنى الكثيفة وأمطارها وضبابها وثلوجها، المليئة بالحيوانات المتوحشة (شكل 10) والبشر النهابين. وإنه لأمر بعيد الدلالة أن تجعل (حكاية الأخوين) المصرية وادي الأرْز في أبعد قسم من الشرق الخاضع لمصر. ومع ذلك، تحتل شجرة الأرْز أهمية خاصة في هذه الحكاية، لأن الأصغر من الأخوين (يعلّق قلبه في أعلاها) ليصونه من الأعداء، فإن قطعت مات معها. بيد أن ثمة إمكانية لإنقاذه طوال سبعة أعوام، إن وجد أخوه الأكبر القلب بين الأشجار المقطوعة ووضعه في الماء. يحدث هذا، عندما يرسل الفرعون بعثة لقتل الأخ الأصغر بقطع الأرْزة (شجرة حياته). لكن الأخ الأكبر يجد القلب في النهاية بعد بحث دام أربعة أعوام، فإذا به يشبه ثمرة شجرة الأرْز.... ليست

1. سفر الملوك الثاني (14:9).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكاية خلواً من ملاحظات صائبة حول الطبيعة، فثمرة الأرْز التي لم تنضج وتتفتح بعد يمكن بقليل من الخيال أن تبدو كقلب. وهي تتوضع على غصنها وكأنها بالفعل (زهرة) على شجرة الأرْز، التي تتجه أكوازها نحو الأعلى، من أفرعها المتشعبة عرضانياً، كأنما هي تستلقي على مرج أخضر.

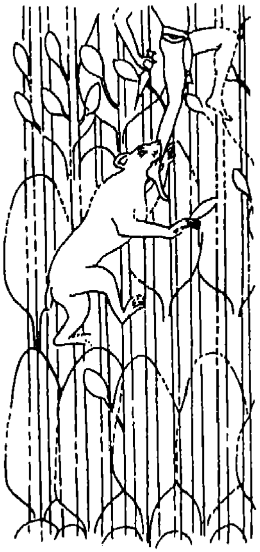

الشكل (10): اخطار صيد الدببة في غابات آسيا. مجسّم مصري من الحجر الرملي عُثر عليه في معبد الأقصر يعود الى عصر رمسيس الثاني (1290 ـ 1223 ق. م).

يعد العهد القديم غنياً جداً بشعر الأرْز. وهذا أمر طبيعي، ما دام الملك الحكيم سليمان نفسه يشدو في أغانيه «للأشجار، من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا الذي ينبت في الحائط» ـ (سفر الملوك الأول 33:4). ولأن الأرز أعلى وأكثر أشجار لبنان جلالاً، فإنه ملك الأشجار، الذي دخلت خصائصه في لغة الصور والتشبيهات، فصار الصديق يزهو كأرْزة ـ المزامير (92:13). والفرعون المتجبر يقارن من جانبه بأرْزة فخمة على جبل لبنان، تتهاوى في عاصفة إلهية ـ حزقيال (31). شاعري هو أيضاً ذلك التشبيه الذي موضوعه كبير الكهنة سمعان: «... كان كأرْزة صغيرة في لبنان وسط دائرة من النخيل» ـ (سفر يشوع بن سيراخ 50:12). بالمقابلة مع هذا،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبدو مقارنة الأرْزة بذيل فرس النيل[2] نتاج مخيلة شاذة بعض الشيء لشاعر متكلف ـ سفر أيوب (40:17).

تداخل الاستعمال الشعري في العصر القديم والمجال الديني. ثمة دليل على ذلك في العهد القديم، الذي نشر في مجال واسع تصوره عن فردوس إلهي موجود في جبال لبنان، يهيمن فيه بطبيعة الحال، الأرْز باعتباره شجر الرب بالمعنى الضيق للكلمة. ويلفت النظر في هذا السياق إلى أن فردوس الأرْز في لبنان يربط بيهوه، إله بني إسرءيل: «أشجار يهوه[3] تشبع مطراً، أرْز لبنان الذي غرسه»؛ هذا ما يقال في سفر المزامير (104:16). أما عند النبي حزقيال، فإن شجرة العوالم الأسطورية تنقل كأرْزة لبنانية إلى فردوس الرب (حزقيال 31:1 ـ 3). دخل فردوس الرب إلى تصورات نهاية الزمان أيضاً.؛ (مجد لبنان) بأرزه وسنديانه سيأتي إلى أورشليم الجديدة ـ (إشعيا 60:13). تعدّ علاقة يهوه المتناقضة مع فردوس الرب علاقة غريبة، فهو خالقها، وفي الوقت نفسه، مدمرها أيضاً: «لكن السيد الرب القدير يكسرهم كالأغصان بعُنف. يجدع رؤوسهم المتعالية ويحُط كل شامخ فيهم. يقطع غاب الوعر بالفأس ولبنان بكل مجده يسقط» ـ (إشعيا 10:33 ـ 34). كما في أقوال أخرى مشابهة، هنا أيضاً استخدام مجازي موضوعه التهديدات التي كانت تتعرض لها أورشليم عام (733/734 ق. م) على يد شريكين متحالفين هما ريزين الدمشقي وفقح من مملكة بني إسرءيل الشمالية. لكن هذه الصورة لم تنشأ عرضاً. فكيف توصل المرء إلى تصور أن يهوه هو مالك وفي الوقت نفسه مدمر جنة الرب التي على جبل لبنان؟ يقدم المزمور (80:11) إشارة توضيحية، حيث يدور الحديث، هنا أيضاً، حول الأرْز في جنة الرب، لكن مالكها هو الإله إيل، كأن النص يشير إلى تولي يهوه وظيفة إله كنعاني هو إيل الذي كان سيد لبنان. وهذا حدث

2. في النص العربي الموظف «وحيد القرن» (ز. م).

3. في النص العربي المعتمد، دوماً «الرب» (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكرر كثيراً، حيث تولى يهوه وظائف سلسلة كاملة من الآلهة القديمة لهذا البلد المتحضر. ثمة أدلة خارج العهد القديم على وجود رابطة بين الإله إيل وبين جنة الرب التي هي على جبل لبنان. يتحدث نص أوغاريتي قديم عن العنب «أعلى مفاخر لبنان، الذي يبلله الندى والذي غرسه إيل». يبدو أن الأرز وضع في التصور الأوغاريتي تحت سلطان الإله بعل دون غيره، وربما كان إيل قد تخلى له عن هذه الوظيفة في سياق تحولات تاريخ الآلهة الأوغاريتي. والحق، أنه يمكننا ملاحظة ما يماثل ذلك في ميادين أخرى. على كل حال، يختبئ وراء إله الأرز الذي يماهيه العهد القديم مع يهوه إله من نمط بعل بالأحرى. يظهر هذا خاصة في وصف نشاطه كإله عواصف، وفي كون إطلاق العواصف مهمة لم يتم إيكالها عادة إلى إيل. ويدل المزمور (29) الذي يُظن أنه وثيق الصلة بنموذج كنعاني أقدم منه، علي وجود رابطة بين إله العواصف وغابة الأرز: «صوت الرب يكسر الأرز، يُكسِّر الرب أرز لبنان» - (المزمور 29:5). إن تطابق هوية إلهي الأرز والعاصفة جلي لا لبس فيه، نجم عن تجربة طبيعية بسيطة منطلقها موقع غابات الأرز. ويبرز ملمح إله العواصف حتى في وصف علاقات الإله بعل الأوغاريتي بالأرز، فهو الإله الذي: «تخر أشجار الأرز مغشيا عليها» أمام يده، كما يعبر شعراً أحد نصوص بعل. نُذَكِّر هنا مرة أخرى بالتشابهات بين بناء معبد بعل في أوغاريت وبناء معبد يهوه في القدس، ونذكّر إن كلا الإلهين يسكن بيتاً بني من أرز لبنان، وأنهما من طراز متماثل. هذه التطابقات في علاقة إلهين على درجة كبيرة من التباعد الزماني والمكاني مع جنة الأرز في لبنان تغدو مفهومة، إذا ما اعترفنا أنه تمت مماهاتهما كليهما: أعني إله مدينة أوغاريت وإله مدينة أورشليم، مع إله غابات الأرز بعل. تؤيد هذا الفهم، الذي يماهي إله الأرز اللبناني مع يهوه، ظروف بناء هيكل أورشليم الخاصة، فقد كان خبراء صور هم الذين عمروا بيت الأرز ليهوه، على نمط معبد أسبق كان معروفاً لهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نعرف معرفة دقيقة إلى حد بعيد واحداً من أكثر مقدسات بعل اللبناني أهمية، هو معبد الجبل التابع لبيروت، الموجود فوق بيت مِرِّي، على ارتفاع 732 متراً عن سطح البحر. يقوم اليوم على أنقاض هذا المعبد دير ماروني يحمل اسم دير القلعة، أظهرت حفريات السنوات الأخيرة وجود منشأة واسعة فيه، تضم معابد صغيرة مختلفة إلى جانب هيكل، تشير إلى أهمية مكان العبادة هذا، بين أشياء أخرى، سلسلة نقوش تقول إن سيده هو بعل مرقود، الذي حمل في العصر الروماني لقباً مهماً هو (جُوبِتَر أبتِمُس مَكسِيمُس بعل مرقُدوس) واعتبر منذ العصر القديم (إله الرقص). فماذا كان يقصد بالرقص؟ هذا ما يوضحه كتاب العهد القديم، الذي ربط لقب مرقود ربطاً مباشراً بتحطيم يهوه جنة الأرز: «يجعل لبنان يقفز كالعجل، وسريون كولد الثور الوحشي» - (المزامير 29:6) وهناك تشابه في المزمور (114:4 - 6) أيضاً. يتعلق الأمر هنا، دون أي شك، بظاهرة الهزات الأرضية التي لم تكن نادرة الوقوع في لبنان. إن بعل مرقود هو إذن (إله الهزات الأرضية) الذي يرقّص الجبال. تؤكد صحة هذه القراءة مماهاته في كتاب أضاحي دير القلعة مع بُزايدون إنِزشتون، أي (مزلزل الأرض).

حظي بعل لبنان بالاحترام في دائرة واسعة، بوصفه إله أعلى جبل في سورية وفلسطين وإله غاباته. فالحكيم فِيلو الجبيلي يعتبره أحد أكثر آلهة الجبال أهمية في كنعان. أما الحثيون، الذين كانوا راغبين في ضم أكبر عدد ممكن من الآلهة البعيدة إلى مجمع آلهتهم، فيجعلونه إلهاً للقَسَم ويربطون به عقد الاتفاقيات. كما وجدت عبادته انتشاراً واسعاً في مصر، خاصة أثناء حقبة تقاربها الوثيق مع لبنان في عصر المملكة الجديدة. يقول نص سحري مصري إن الكلمات التالية تطرد الأرواح الشريرة: «ليهشمك بعل بشجرة الأرز التي في يده!». هذه العبارة تذكرنا كثيراً بإفريز مصور لبعل أوغاريت، حيث يحمل الإله في يسراه سلاحاً يشبه إلى أبعد حد شجرة مدببة كالرمح في أسفل هذا المصور (شكل 11).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل (11)، بعل أوغاريت إلهاً للطقس، واقف على الجبل، يحمل بلطة ويمسك بشجرة (تعني البرق أيضاً). يمثل المخلوق الصغير على هيئة المتعبد ملك أوغاريت. مجسّم من أوغاريت (القرن 13 ق. م).

تلقي الأهمية الدينية للأرز باعتباره شجر جنة الإله الضوء على القيمة الدينية لخشبه، الصالح أكثر من أي خشب آخر لبناء بيوت الإله، وهذا يفضل استخدامه لصنع حاجيات وأشياء دينية صغيرة. «إنه الخشب الذي يحبه [الإله أمون]»، هذا ما يقوله تحتمس الثالث ببساطة وإعجاز. فلا عجب أن كان قطع الأرز لبناء المعابد عملاً من أعمال العبادة. وقد مَجّد نبوخذنصّر نفسه، بالفعل، لأنه قطع خشب أبواب معبد بابل بيده. بالمقابل، يعد الاستخدام الدنيوي للخشب «المقدس» مستقبحاً ومرفوضاً. وقد قوبل باستهجان واسع قيام يوحنا الغيشلي بصنع آلات دفاعية من جذوع أشجار أرز كانت مخزنة في القدس ومخصصة لتوسيع هيكلها. وفق رواية المدراس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبير على سفر التكوين 2:8، قال الحاخام يوحنان: «ليس العالم جديراً بالتمتع بمنافع الأرْز. فلماذا إذن خُلِقَ الأرْز؟ أمن أجل الهيكل!».

سكن غلغامش، أشهر الآثمين بحق أرْز الفردوس الإلهي المقدس، بلاد ما بين النهرين. فقد كان ملك أورُك (الوَرْكة) - حوالي عام (2700 ق. م) وأول شخص من هذه المدينة حمل بصمات تاريخية، وإن كان مازال يجد نفسه على الحد الفاصل بين الحكاية والأسطورة. ذلك أن بعض الحكايات الأسطورية تركزت حول شخصه، وانعكست بصورة خاصة في ملحمته العظيمة. يطلب إله الشمس شمش من غلغامش القيام بحملة تأديبية ضد خُمبابا، الحامي المخيف لغابة الأرْز المقدسة على جبل الآلهة. بعد رحلة طويلة، يصل غلغامش مع صديقه إنكيدو إلى غابة الأرْز: «وقفا صامتين يحدقان في الغابة. لقد نظرا إلى أشجار الأرْز ودهشا لارتفاع جذوعها. تطلعا إلى الغابة والى الدرب العريض الذي يقود إلى داخلها، والذي يمشي عليه خُمبابا......». يحرر مبعوثا إله الشمس نفسيهما بسرعة من وحشة الغابة ويبدأان بقطع بعض أشجار الأرْز كي يستدرجا خُمبابا إليهما. ينجح مسعاهما، ويقتل حامي جنة الإله العبوس على يد غلغامش. لكن المغامرة لا تنتهي نهاية طِيبّة بالنسبة إلى البطلين، لأن الآلهة تقرر موت أحد القاتلين على الأقل، رغم أنهما كانا ينفذان مهمة كلفهما إيّاها إله الشمس. هذا المصير يكون من نصيب إنكيدو، وإن كان يبدو من مجريات الملحمة التي ضاع قسمها الختامي أنه أصاب غلغامش أيضاً.

ثمة احتمال كبير يرجح أن لا تكون ملحمة غلغامش قد جعلت بالأصل من لبنان مكاناً لجنة الأرْز، بل وطنته في الأمانوس. لكن ثمة صياغة للنص من بداية الألف الثاني قبل الميلاد تسمي لبنان مكاناً لجبل أرْز الآلهة، يثير العجب فيها سبب قطع أرْزة مقدسة من لبنان كانت قد جلبت على نهر الفرات إلى بابل. لا نعرف إن كانت الحكاية تعبر عن ذكريات تاريخية، وما إذا كان غلغامش قد تمكن من الوصول فعلاً إلى لبنان. لكن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصياغة تقول بجلاء إن بلوغ جنة أرْز الآلهة لا يبقى دون عقاب. في مرحلة متأخرة جداً وفي سياق آخر، اعتبر النبي إشعيا توغل سنحريب إلى أعلى مواقع أرْز لبنان، وقطع الأرْز هناك، إثماً - (سفر إشعيا 37:24).

خلال سيرهما عبر غابة أرْز الآلهة، يرى غلغامش وإنكيدو المعبد القائم على الجبل وسط الغابة. وتظهر التمثيلات المصورة في معابد بلاد ما بين النهرين كيف كانوا يتصورون هذا الجبل بغابته ومعبده المقدسين (شكل 12). وقد أطنب الملوك الآشوريون خاصة في تمجيد أنفسهم، لأنهم استزرعوا غابات مقدسة بالأرْز وبغيره من الأشجار الغريبة «كما في الأمانوس». بسبب هذه الجنان المشجرة، التي كانت تخدم جزئياً أغراضهم الدنيوية، ربما كان حكم إشعيا موجهاً نحو ملك أشور: «وما يبقى من شجر غابهم يكون قليلاً، حتى إنّ صبياً يقدر أن يحصيه» (سفر إشعيا 10:19).

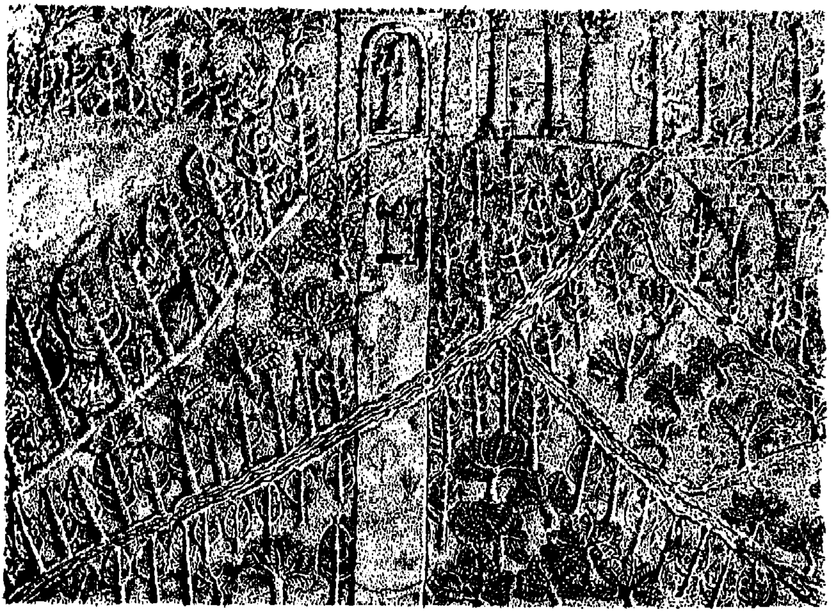

الشكل (12)، معبد مع غابة مقدسة، امام المعبد مذبح وتمثال للإله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في وصف مَلحَمة غلغامش للمعبد على جبل الأرْز، تفاجئنا الآلهة القاطنة هناك. فقد كنا نتوقع أن يكون المعبد لبعل، فإذا به يخبرنا أنه للإلهة عشتار. حسب مَلحَمة غلغامش، يبدو وكأن بعل تعرض إلى تخفيض بسيط في مكانته حوّله من مالك لغابة الأرْز إلى حارس لها، كخُمبابا الرهيب الذي يحمل صفات تشبه صفات إله العواصف بعل لا مجال لأن تخطئها العين. إلى هذا، فان غابات أرْز لبنان المجاورة لمدينة جبيل لم تعد الآن خاضعة لبعل بل لبعلات، إلهة المدينة. عندما صعد الموظف (سِن - نِفِر) بتكليف من تحتمس الثالث إلى الجبل لقطع الأرْز، لم ينس أن يحضر قرابين وأضاحي تقدمة منه إلى بعلات جبيل، التي يبدو أيضاً أنها كانت تمتلك معبداً في منطقة الأرْز ذاتها. تؤكد ذلك ملاحظة لتحتمس الثالث يقول فيها إنه أمر بصنع سفن حملته الفراتية «على مقربة من سيدة جبيل»، أي بعلات جبيل التي رأى المصريون فيها حاتور التي كانت بدورها إحدى إلهات بلادهم. يخبرنا (مِن - مْسُو) القيوم على بلاط أمِينوفِيس الثاني (1436 - 1412 ق. م) أنه كان مكلفاً، بين أشياء أخرى، بقيادة أعمال بناء معبد (حاتور، سيدة جبيل). لا شك أن الطابع الأصلي لحاتور كإلهة للشجر لعب دوراً في هذه المماثلة، حيث كانت تخضع لها المقابر، التي كانت حاجتها كبيرة إلى خشب الأرْز ومنتجاته. كما كان يقع تحت سلطتها خاصة عرض مجاديف سفينة الموتى، التي كان المتوفى يعبر بها نهر الأموات.

لم يعد أحد في لبنان اليوم يتذكر بعل لبنان وبعلات جبيل. لكن بعض تقاليد لبنان المسيحية تبدو وكأنها تستعيد ذكر هذين الإلهين. ففي الطقس الديني للموارنة، أكبر الطوائف المسيحية في لبنان، نقابل مريم التي تلقب بـ (أرْزة لبنان). كما أن أقدم غابات الأرْز مازالت ملكاً للكنيسة المارونية التي تحميها بحرص حتى يومنا هذا، وتمتلك كنيستين صغيرتين في بشري والحدث. ثم إن موارنة لبنان كانوا يحتفلون إلى ما قبل عقود قليلة بعيد (أرْز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرب) في غابات بشري، فيستولي الخشوع حتى على أخلاف الحجاج القدماء، والسياح الذين غالباً ما يكونون في عجلة من أمرهم، عندما يؤخذون إلى الغابة المهيبة كي يفتتنوا (بأرْز سليمان). أمام هذا التاريخ الموغل في قدمه، هل نهتم كثيراً لواقعة أن أقدم أفنان أرْز بشري كانت قد شهدت في شبابها عصر الفرسان الصليبيين؟! وهل نرى في الأرْز محض تمثال طبيعي، بينما هو رمز لبنان: رمز تاريخه العاصف، وفي الوقت نفسه، رمز قوته الحياتية التي تواصلت رغم الأهوال التي مر بها؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدخول إلى تاريخ العالم

«أقمت نصباً باسمي العظيم في بلاد لابان
على شاطئ البحر الكبير».[1]

لا يشعر من يسافر اليوم بمحاذاة الشاطئ من بيروت إلى الشمال بالصعوبات التي كانت تقترن بهذا الطريق في غابر الزمن. يتماوج طريق السيارات السريعة الخالي من التقاطعات، في السهل الساحلي الضيق بمحاذاة حافة المصطبة الدنيا من الجبل. لكن رأس الجبل، المنحدر عمودياً نحو البحر عند نهر الكلب، يجبره على نقل مساره لبضعة مئات من الأمتار إلى داخل نفق يميز بناؤه الطور الأحدث من تاريخ الطريق الساحلي الطويل، الذي كان يمر حتى عام (1960 م) على مرتبة ضيقة تم انتزاعها من رأس الجبل، تلتف من حول كتلة رأس الكلب، على أمتار قليلة فوق سطح البحر. أما الطريق الذي قبله، الذي تم شقه في الصخر عامي 179 / 180 للميلاد في أثناء حكم القيصر ماركوس أورليوس، ووسعه الحاكم تتيانوس عام (382 م) فكان يعبر المنحدر العمودي على ارتفاع حوالي ثلاثين متراً. بينما تقودنا رواسم أقدم طريق بني في العصر الشرقي القديم إلى ارتفاع أعلى، وتبين أن الممر كان في تلك الآونة سالكاً بصعوبة وبطء بالنسبة إلى القوافل الأكبر والجيوش المحاربة، وغير سالك إطلاقاً بالنسبة إلى الحمولات ثقيلة الوزن.

1. شمسي هدد الأول ملك أشور (1815 - 1783 ق. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما كان معبر منطقة نهر الكلب بدروبها المتحدرة من عصور مختلفة يستحق أن نخصه بذكر خاص، بسبب كثرة رؤوس الجبال صعبة الاجتياز، بدورها، على الطريق الساحلي من فلسطين إلى شمال سورية. لكن المعبر الضيق على رأس الكلب يستحق أن يذكر دون جميع المعابر الشبيهة به، لتميزه بعدد وافر من نصب ونقوش تعكس أكثر من ثلاثة آلاف عام من التاريخ اللبناني. إذ تتجمع هنا بالذات نقوش صخرية لحكام ممالك وأزمنة مختلفة، هي برهان قطعي على أهمية هذا المعبر، التي تفتقر إليها المعابر الساحلية الأخرى. يبين الوضع التضاريسي اليوم أيضاً أن خط الحدود الطبيعية الفاصلة بين القسمين الشمالي والجنوبي من منطقة ساحل لبنان يمر في هذا الموقع. ويظهر أن هذه الحدود لا تتشكل بفعل رأس الكلب، بل بالأحرى بسبب وادي نهر الكلب الواقع شماله مباشرة، الذي يصب هنا في البحر، مع أن النهر الصغير ذاته لا يمثل عائقاً يستحق الذكر. هذا لا يعني صحة الادعاء المنسوب إلى سترابو، الذي يجد من يقول به من آن لآخر حتى اليوم، وهو أن نهر الكلب كان صالحاً للملاحة في العصر القديم، وأنه حمل سفن التجارة البحرية إلى داخل البلاد. لم يكن نهر الكلب صالحاً للملاحة في أي وقت، ولم يكن له أي مرسى على مصبه، بل كان منطقة فصل بسبب واديه عميق الغور، الصالح للعبور عند مصبه فقط وليس في أي موقع داخل البلاد. ولأنه لم يسبق أن تم شق أي طريق في مجراه الأعلى إلا قبل سنوات قليلة، فقد عبر هذا واديه وهو يتعرج ويتلوى على بعد خمسة عشر كيلومتراً من الشاطئ. إلى هذا، لم يعرف العصر القديم أية إمكانية لتفادي معبر رأس النهر، لذلك كانوا يتحاشونه بالمرور في رأس شكّا الواقع شمال البترون، بينما كان اجتيازه على أحد جسور العصر الشرقي القديم يقود عبر درب صخري ضيق إلى رأس الجبل المنتصب بصورة عمودية فوقه، ذلك يجعل الممر أشبه بثقب إبرة يحشر من يريد عبور السهل الساحلي نفسه من خلاله (شكل 13).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسبب الأهمية العسكرية لمعبر ضيق كهذا، كان من يسيطر عليه يجد نفسه مدفوعاً لنصب أو لكتابة نقش على صخره، تعبيراً عن ملكيته إياه. وإنه لما يشهد بأهمية الممر على نهر الكلب، وكذلك بسطوة التقاليد، أن تتكون سلسلة نقوشه من شهادات ملوك شرقيين قدماء، مردوفة بشهادات معاصرة من زمننا الحالي. كما وجدت أهمية الممر العسكرية تعبيراً عنها في الحكايات المحلية كذلك، التي تزعم أن النهر أخذ اسمه من تمثال كلب نصب ذات يوم على طريق روما القديم، فكان يطلق نباحاً صاخباً يمكن سماعه في دائرة قطرها ميلان لدى اقتراب أي عدو من المدينة. أما في الحقيقة، فإن الاسم العربي للنهر هو ترجمة لكلمة ليكوس الإغريقية وتعني ذئب بالعربية، التي تستخدم غالباً كاسم للمياه سريعة الجريان. وقد وجد مهندسو القوات الحليفة عام (1942 م) منحوتة تمثل كلباً أو ذئباً، بينما كانوا يشقون نفقاً للسكك الحديدية.

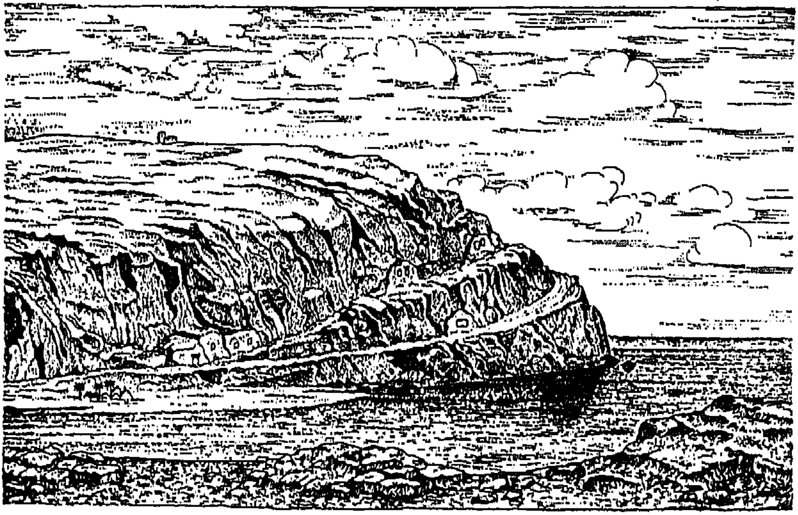

الشكل (13): الطريق الساحلي عند راس الكلب (حوالي عام 1800 م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان رمسيس الثاني (1290 - 1223 ق. م) أول من أمر بكتابة نقش قرب نهر الكلب، لأنه كان أيضاً أول ملك خاطر وتقدم عسكرياً في اتجاه الدرب الساحلي. في العادة، كان الغزاة والفاتحون يستخدمون طريق البقاع المريحة، ويرسلون في الوقت نفسه أسطولاً يبحر بمحاذاة الشاطئ لحماية مجنبة القوات، وللمناورة انطلاقاً من البحر وإنزال القطعات المحاربة. ربما كان تفوق القوى البحرية المعادية هو الذي أجبر رمسيس الثاني على التخلي عن هذه الاستراتيجية الناجعة؛ فالأخيون كانوا قد غدوا القوة البحرية الأولى في شرق البحر الأبيض المتوسط، وانحازوا إلى الحثيين الآتين من الشمال، في صراعهم مع فراعنة مصر حول السيطرة على سورية. استخدم رمسيس الثاني مرات متعددة ممر نهر الكلب الضيق، وترك فيه نقوشاً ثلاثة، أخلى واحد منها مكانه، على كل حال، لنقش يمجد نابليون الثالث، لأن رئيس الحملة العسكرية الفرنسية الجنرال بُفُور أمر عام (1860 م) بإزالته بالإزميل، ليكسب دون كبير عناء إطاراً وقوراً لكلماته المكرسة لذكرى العمليات التي قادها.

لا تعود نقوش نهر الكلب إلى الزمن الذي بدأ لبنان ينجرُّ فيه إلى مسار التاريخ السياسي العظيم. وإن كانت، على كل حال، رمزاً لتاريخ هذا البلد، الموسوم عموماً بحقيقة أن جميع نقوشه ترجع إلى ملوك أو قادة جيوش غرباء، باستثناء الأخير منها، المكرس لانسحاب آخر القطعات الفرنسية والإنجليزية من لبنان يوم 31 كانون الأول من عام (1946 م).

لم تدخل الجماعات الصغيرة، التي تكونت خلال الألف الرابع والثالث قبل الميلاد في منطقة لبنان، كلاعب فعال إلى مسرح التاريخ العالمي، لأن دورها كان محدداً ومحدوداً منذ البداية بفعل موقع لبنان الجغرافي، ولأنه كانت تنقصها الشروط الضرورية لتكوين قوة كبرى، في حين فرضت معطيات البلد الطبيعية عليه، مثلما فرضت على غيره من مناطق الشرق الأدنى الساحلية، أن يكون بلد عبور؛ تميز بحسناته وسيئاته الكثيرة. ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن العبور كان حاجة من حاجات التجارة، ولأن التبادل التجاري بين الشرق الأدنى وبحر إيجة ومصر كان يتم، غالباً وفي جميع العصور، عبر موانئ متوسطية، من أكثرها أهمية تلك التي تتمتع بحماية جبل لبنان. وكان العبور، كذلك، حاجة من حاجات جيوش القوى العظمى، التي كانت تخوض صراعات من أجل السيطرة في العالم القديم، فكان من الأهمية بمكان التحكم ببلد العبور ذاته، لأن من كان يحقق ذلك على المجال الواقع بين فلسطين ومصب العاصي يمتلك مفاتيح السيطرة على العالم. أضف إلى هذا أن منطقة العبور كانت تضم أراضي ذات ثروة اقتصادية كبيرة، يتطلع الطرف السائد سياسياً إلى امتلاكها. في البداية، أي حتى نهاية الألف الثالث، لم تكن الكيانات في المناطق المتحضرة الواسعة من العالم القديم في وضع يمكنها من انتهاج سياسة قوة متشعبة وطويلة الأمد، يمكن أن تشمل لبنان والمناطق المجاورة له في سورية وفلسطين. لكن المصادر العلمية تتيح للمؤرخ البعيد جداً عن تلك الأزمنة رسم صورة تقريبية حول كيفية تقدم القوى الكبرى لبلاد ما بين النهرين وحوض النيل نحو سورية؛ الذي قد كان بدأ في زمن أقدم. إذا رفضنا أن نرى في خروج غلغامش الأسطوري من أورُك حدثاً تاريخياً، فإن ما وصلنا حتى الآن من معارف تاريخية يجبرنا على الاعتراف بأن مِسكيغالا الإدّبي (2350 ق. م) كان أول ملك أرسل حملة من بلاد ما بين النهرين إلى جبال الأمانوس على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. فيما بعد، تواصلت الحملات دون انقطاع، لأن كل ملك يعزو بعض الأهمية لنفسه كان يسير إلى (البحر الأعلى) كما كانت نصوص بلاد ما بين النهرين تسمي البحر الأبيض المتوسط، تمييزاً له عن (البحر الأدنى) الذي هو الخليج الفارسي. بعد حين، سيتوغل الغزاة إلى مسافات أبعد نحو الجنوب الغربي (شكل 14).

تتشابه الأخبار القليلة التي وصلتنا عن الحملات المبكرة نحو البحر الأبيض المتوسط: الملوك يغسلون أسلحتهم في مياه (البحر الأعلى) ويقيمون

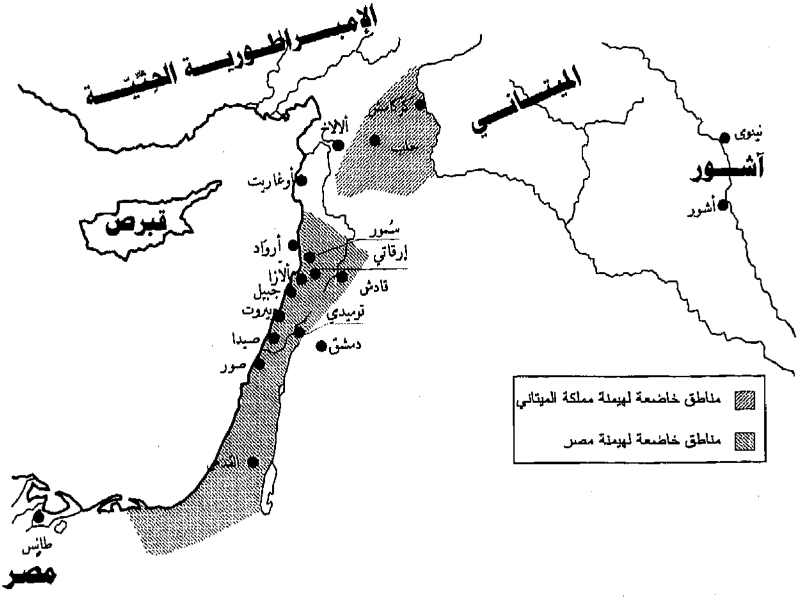

الشكل (14)، المشرق العربي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

نقشاً حجرياً في مكان مناسب يؤكد حضورهم إليه. قد يكون من الخطأ اعتبار هذه المسيرات نحو البحر الأبيض المتوسط حملات استهدفت الاستغلال المسلح لبلدان قصية مجهولة؛ ما دامت منطقة غرب آسيا الساحلية معروفة منذ وقت طويل في مدن ما بين النهرين، بفضل روابط تجارية نشطة معها أتت حفريات كثيرة بشواهد عليها. وقد كانت حملات ملوك بلاد ما بين النهرين المسلحة نحو الغرب على صلة لا شك فيها بهذه الروابط التجارية، إذ كانت توطد مكانة التجار، الذين كانوا يفيدون من الانتماء إلى دولة ذات قوة عظيمة الانتشار تستطيع أن تقوم بنشاط عسكري على بعد كبير من أراضيها. لم يكن تكرّر هذه الحملات الاستعراضية ممكناً كل عام، وخاصة في العصر المبكر من تطور دول بلاد ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين النهرين، لكن هذا لم يكن ضرورياً أيضاً، لأن الملك الذي يقود الجيوش كان يبقى حاضراً في الشواهد التي يقيمها. ولأن العقل القديم كان يماهي بين الصورة والاسم وبين الشخص ذاته، جاعلاً التمثيلات الصورية شيئاً يتخطى العلامات التذكارية لحملات عسكرية ظافرة، فإن هذه التمثيلات كانت تؤدي الغرض منها، ما دامت السلطة التي أقامتها مستمرة. فضلاً عن أن إقامة الشواهد وكتابة النقوش الحجرية كانت تعتبر عملاً من أعمال التملك، فان لم يتحقق الادعاء السياسي العملي المتضمن فيها بالفعل، بقيت فاعليتها الدعاوية في جميع الأحوال.

كانت الرابطة غير الوثيقة بقوة عظمى في بلاد ما بين النهرين مفيدة من بعض النواحي بالنسبة إلى دول غرب آسيا. في عالم الدول الصغيرة التي تمزقها التناقضات والمصالح المتشعبة، كانت الرابطة حتى الواهية بقوة عظمى تعني أماناً أكثر ووزناً سياسياً أكبر. وفي نظام دول كان فيه كل عمدة (مختار / ملك) من نعم آلهة مدينته، اعتبر منصب الموظف الكبير العامل في خدمة قوة أجنبية على جانب عظيم من القيمة. لذا، كان الملوك يرون في الفقدان المحدود، وربما المعنوي فقط، لسيادتهم أمراً مقبولاً. يفسر هذا لماذا حمل إيبداتي، أحد ملوك جبيل في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، لقب (إنزي) أي الملك التابع تبعية مباشرة لملوك السلالة الثالثة في أور، مع إن الاعتراف بسيادة أور العليا لم يترتب في حالتنا على حرب توسع واستيلاء. لو كان ملك جبيل يرى في تبعيته لملك قوة عظمى من جنوب بلاد ما بين النهرين نيراً مفروضاً عليه، لاستطاع خلعه بسرعة وفي أي وقت. لكن مصالح الطرفين المتبادلة هي التي أدت إلى قيام هذه الرابطة بينهما، فمن المعروف أن سياسة سلالة أور الحاكمة الثالثة دعمت توطيد علاقات دول ـ مدن المجال السوري، المهمة تجارياً وسياسياً، بها. أما في حالة جبيل الخاصة، فيبدو وكأن أور حلت محل سيادة مصرية اسمية قديمة فقدت تأثيرها عند زوال المملكة القديمة حوالي عام (2250 ق. م) وجعلت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جبيل توسع علاقاتها التجارية ببلاد ما بين النهرين وتبحث عن سند سياسي سرعان ما وجدته في مملكة أور، بعدما رأت الضعف الاقتصادي والسياسي الذي حل بمصر إبان العصر الوسيط الأول. يؤكد هذا الرأي أن جبيل ذاتها خربت عند منتصف القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، ولم تبدأ بالنهوض من جديد إلا حوالي عام (2100 ق. م) كما تنبئنا الحفريات. في هذا الوضع، كان ارتباطها بمملكة أور السومرية على قدر كبير من الفائدة لها.

مع توطد علاقاتها بأور، خرجت مصر لفترة طويلة من قائمة شركاء جبيل التجاريين. لذلك لم يعثر في حفريات لبنان على أية لقى مصرية المصدر في الحقبة بين بيبي الثاني وسِسُطرِس الأول (حوالي 2270 - 1970 ق. م). ووجد مؤلِّف **تحذيرات حكيم مصري** نفسه مدفوعاً إلى التذمر من الأحوال التي سادت العصر الوسيط الأول، حيث قال: «لم تعد السفن ترسل اليوم إلى جبيل. ماذا سنفعل كي نجد خشباً بديلاً لخشب الأرز من أجل موتانا؟»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفراعنة ولبنان

«أنت تخترق سعيداً جميع البلدان، وهناك، حيث تكون جلالتك، لا يوجد من يمكن أن يقوم بعدوان.»[1]

تماثل علاقة مصر بمنطقة ساحل الشرق الأدنى في سماتها سياسة دول ما بين النهرين المبكرة تجاه سورية. كان الفراعنة يتطلعون إلى توسيع مجال نفوذهم توسيعاً حثيثاً، وقد جعلهم ارتباطهم البحري المريح بمواقع التجارة على شاطئ غرب آسيا في غنى عن إقامة جسر بري آمن، كانت إقامته تستدعي إخضاع مناطق أكبر لسيطرتهم. وقد تم فرض رقابة المملكة المصرية القديمة على جبيل وجوارها الغني بالغابات، وجرت عمليات تصدير الخشب إلى مصر دون مصاعب تذكر، رغم أنه لم تكن أبداً في جبيل جالية مصرية بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ ولم تقم مصر في أي وقت بإرسال مستوطنين من بلاد النيل لتوطيد مواقعها فيها أو في غيرها من مناطق الشرق الأدنى، في فترات لاحقة.

إذا ما نظرنا إلى الأمور بمنظار جبيل، وجدنا أن العلاقة الحميمة بمصر كانت مفيدة لها لأن الفراعنة كانوا يعملون لتوسيع قاعدتهم التجارية من خلال ضم المناطق المجاورة إليها. صحيح إن الأمر تعلق أولاً بنواحي جبلية غنية بالأخشاب، لكن مصر كانت تحصل أيضاً على واردات سلعية أخرى

1. ترنيمة لتحتمس الثالث.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مهمة من الشرق الأدنى، بينها قبل كل شيء زيت الزيتون، الشجرة التي لا تنبت في وادي النيل، لكن زيتها كان مطلوباً فيه على الدوام كمادة غذائية ومادة خام تستعمل في صناعة منتجات تجميلية. أما أوعية الفخار العديدة التي كان مصدرها فلسطين وجنوب سورية، والتي تم العثور عليها في مواضع اللقى الأثرية الخاصة بتاريخ مصر القديم، فربما كانت مخصصة لنقل زيت الزيتون المستورد (شكل 15). كانت المنطقة الواقعة شمال جبيل مكاناً مهماً لزراعة الزيتون في العصر القديم، فمن الجائز إذن أن تكون مصر قد وضعتها تحت رقابتها وألحقت إقليمها بجبيل. فهل كان هذا (بلاد جبيل) التي ذكرت لأول مرة إلى جانب مدينة جبيل في نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد؟

ولأن الاعتراف بسيادة مصر العليا كان يخدم مصالح أمراء جبيل، فقد انفتحت المدينة مجدداً على النفوذ المصري في أثناء حقبة المملكة الوسطى، بعد فاصل خضوعها للسيادة السومرية الاسمية. بيد أن ثمة فترة تاريخية مظلمة بين هاتين الحقبتين، يبدو أنها شهدت تبدلاً في فئات السكان السائدة، جعلت ملوك المدينة يحملون أسماء سامية غربية وينتسبون إلى الأموريين، العنصر السكاني الجديد الذي تمكن ملاحظته بصورة متزايدة في أرض الشرق الأدنى منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. أما النفوذ المصري الذي تشهد النقوش عليه، فهو لا يبدأ من جديد إلا في عهد السلالة الثانية عشرة تحت حكم أمينُوحتف الثالث (1842 - 1797 ق. م) مع أن صادرات الخشب إلى مصر كانت قد استؤنفت بعد عام (1991 ق. م) بقليل، زمن أمينُوحتف الأول، أول ملوك هذه السلالة.

تطلع فراعنة المملكة الوسطى إلى احتلال موقع في منطقة شرق المتوسط بعد انقطاع دام مئتين وخمسين عاماً. أما الطريقة التي استخدموها، فقد سبق لِيتي الثالث، أحد ملوك الأسرة العاشرة (حوالي 2100 ق. م) أن علمها لابنه مِريكاري: «ابعث بتماثيلك إلى بلاد أجنبية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعيدة!» وهي نصيحة تبعها فراعنة المملكة المتوسطة. وقد أظهرت الشرائح الأرضية العائدة إلى تلك الفترة، وحفريات المدن التجارية الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، تماثيل وأشياء أخرى تحمل أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة. كما إن غلبة تماثيل (أبو الهول) بين التماثيل

الشكل (15)، دببة واوعية سورية مستوردة. مجسم من معبد الموتى الملكي الخاص بالملك ساحور في ابوصير (حوالي عام 2500 ق. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي تم العثور عليها هي أمر عظيم الدلالة، يجسد تجسيداً مميزاً سلطة الملك المصري. لم تأت مثل هذه الأعمال الفنية المصرية إلى لبنان كأثمان لسلعة لأن التجار ما كانوا ليقبلوا تمثالاً غرانيتياً لأبي الهول يستحيل بيعه كثمن لأخشابهم وزيت زيتونهم ومواشيهم، ولأن المصريين كانوا يعقدون صفقات تجارية عادية ويدفعون ثمن مشترياتهم ذهباً، ونثار فضة، وأردية من الكتان، وورق بردي، وبقولاً وسلعاً فاخرة متنوعة؛ ويرفدون مدفوعاتهم النقدية والعينية بتقدمات ملكية تمنح إلى ملك المدينة وآلهتها. بل إن ملوك المملكة الوسطى أبدوا اهتماماً خاصاً أول الأمر بإرسال هذه التقدمات الملكية، وجعلوا (سياسة الهدايا) ناجعة جداً، مكنتهم من إحياء الثقة باقتصاد مملكتهم المتعافي وبقوتها السياسية، وإظهار منافع الارتباط الأوثق ببلدهم (شكل 16).

في الوقت نفسه، كانت (تقدمات الملك) تروج للحضارة المصرية

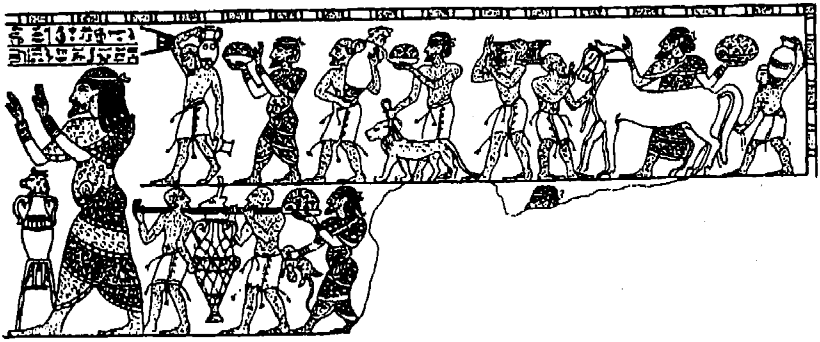

الشكل (16)، أتاوة يقدمها أمراء من مقاطعات آسيا الدنيا. تم إبراز الأمراء الآسيويين الذي يمجدون الفرعون (ممثل خارج مقطع الصورة) من خلال تكبير رسومهم. الأشخاص العراة تقريباً هم العبيد. يحمل جالبو الأتاوة آنية معدنية ثمينة. (فضة مع تنزيلات ذهبية).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديمة، وكان نجاحها كبيراً في هذا الجانب أيضاً. تقدم أضرحة ملوك جبيل الجديدة من زمن الأسرة الثانية عشرة الدليل على صحة ما نقول. إنها أضرحة تم العثور على أولها عام (1922 م) وقاد التأكد من وجودها إلى حفريات جبيل القديمة التي مازالت مستمرة إلى اليوم. هذه التقدمات التي كانت غالباً أشياء قيمة مصنوعة من معادن ثمينة وأحجار كريمة وبرونز، كان يمكن أن توجد أيضاً في قبر أي مصري من الحقبة ذاتها. لكن تأكد أن قطعاً قليلة جداً منها كانت تقدمات ملكية حقيقية، أهمها صندوق المجوهرات المصنوع من الأونيكس، الذي يحمل اسم أمينُوحتف الرابع (1698 ـ 1790 ق. م) بينما كان ما عداه مصنوعات مقلدة أنجزها حرفيو الأعمال الفنية في جبيل، بدلالة الكتابة الهيروغليفية غير المتقنة والمليئة بالأخطاء المنقوشة عليها، والعيوب الفنية التي تشوبها.

إذا كانت جبيل العصر البرونزي الوسيط قد عرفت كيف تقلد منتجات مصر الفخمة وغالية الثمن، فإن هذا يلقي ضوءاً على مهارات حرفييها المحليين، ويتيح لنا معرفة بعض الأشياء حول نمط الحياة في بلاطها. بحسب أعراف الدفن، يرجح أن مصنوعات جبيل المقلدة التي تم العثور عليها في مدافنها، كانت جزءاً من التجهيزات التي يرتديها الملك خلال الاستعراضات، غلبت عليها قطع الزينة من خواتم، و«غوايش»، وأقراط، وأشرطة للرأس وحلي للصدر. وقد تم العثور كذلك على كنز لم يتم تحديد مكانه، اكتشف خلال القيام بحفريات بغرض السطو، ضم بين ما ضمه قالباً ذهبياً كان ينتعله حصان الاستعراض الذي يمتطيه الملك. بالمقابل، كانت الأشياء المخصصة للاستعمال نادرة، وإن تم العثور أيضاً على مرايا وخناجر ومصابيح. وتشير أوعية المراهم التي عثر عليها بدورها إلى أن عادة المصريين المحببة بدهن أجسادهم بمراهم طِيبّة الرائحة ربما تكون قد انتشرت في جبيل، رغم أن تصور المصريين الآخروي، الكامن وراء عاداتهم في الدفن، لم يحقق أي نفوذ فيها. فليس هناك ما يشير إلى قيام أهل جبيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتحنيط موتاهم، كما لم يتم تجهيز الميت بالأدوات الضرورية للحياة اليومية، التي وجدت في قبور المصريين.

من جانبها، تشير التوابيت الضخمة، التي عثر عليها في مقابر جبيل الملكية وتعتبر تقليداً لمثيلتها المصرية، إلى أن نحاتي الحجر اللبنانيين كانوا خبراء في حرفتهم، التي ستحقق لهم فيما بعد صيتاً عالمياً واسعاً حيث. تعتبر المقابر بدورها إنجازاً فنياً حقيقياً. فقد كانوا يحفرون أخاديد قائمة الزوايا في الصخر يصل عمقها إلى أحد عشر متراً، تبنى على أرضيتها حجرات القبور التي تصل بينها أحياناً ممرات. بعد الانتهاء من هذه الأعمال، كان يعاد ملء الأخدود بالرمل، كي ينقل تابوت الحجر الكلسي أو البازلتي الثقيل، الذي يزن أطناناً كثيرة، على سطحه. بتجريف المادة الرملية من تحته، كان التابوت الحجري ينزل شيئاً فشيئاً إلى حجرة الدفن. وفي النهاية، كان يدلى غطاء التابوت بوزنه الذي يصل إلى طنين بواسطة حبال ربطت إلى (مقابض) على جانبيه.

تقدم أسوار المدينة، والمعابد، والأبنية التمثيلية أدلة أخرى على ما كان قد تم إحرازه آنذاك من تطور في معالجة وتصنيع الحجر. هذه الأبنية وملحقاتها احتلت مساحة كبيرة نسبياً من جبيل، بالقياس إلى ما كانت عليه في حقب سابقة من تاريخ المدينة. لهذا، بقيت الأحياء السكنية قليلة الاتساع، وبقي البيت ذو الحجرة الواحدة مسكناً رئيساً للمواطنين، وان كان قد غدا أكثر رحابة من ذي قبل، بينما تميزت بيوت المواطنين الأكثر ثراء بأسوارها الحجرية المنحوتة بعناية. وثمة قرائن كثيرة ترجح أن ملك مدينة جبيل لم يكن يحكم آنذاك شعباً كثير العدد وعلى قدر كبير من التمايز الاجتماعي، وأن الأعمال التصديرية المربحة كانت تقتصر أساساً عليه وحده. أما ما ذكرته حكاية (وِن ـ أمون) من زمن متأخر كثيراً حول تجارة الخشب، فينطبق على حقبة المملكة الوسطى كذلك، حيث كان ملك المدينة حاكماً وتاجراً في آنٍ معاً. ما الصلاحيات السياسية التي تمتع بها ملك جبيل في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظل السيادة المصرية العليا للأسرة الثانية عشرة ؟ هذا ما لا يمكن قوله بدقة، وإن كانت النقوش من حقبة المملكة الوسطى اللاحقة تعطيه لقباً مصرياً هو (كَتي ـ أ) الذي يترجم عادة بكلمة [نبيل]، ويأتي في أعلى مراتب قائمة الألقاب الشرفية. إنه لقب يعبرّ عن علاقة تبعية؛ لأنه كان بالأحرى امتيازاً الغرض منه ربط ملك المدينة بالمصالح المصرية ربطاً يفوق في إحكامه الربط الذي يمكن أن ينجم عن وجود بعثة عسكرية مصرية لديه. هكذا كان ملك ذلك الزمن سيداً وحامل ألقاب شرفية مصرية رفيعة في آن معاً. كيف قوّم ملوك جبيل لقبهم المصري والوظيفة المقترنة به؟ هذا ما يظهر، بين أمور أخرى، من سعيهم إلى إكثار أعداد التقدمات الملكية الموجهة إليهم من خلال الاستنساخ، واستخدامهم الخط المصري، وكتابة أسمائهم بالهيروغليفية، وقيامهم بصب أسمائهم في ما كان يسمى (خراطيش) وهي خواتم بيضوية كان ينقش عليها اسم المولد والتي كانت تعتبر تكريماً يقتصر في مصر على الفرعون وحده.

يطبع التأثير المصري بطابعه أيضاً بدايات تطوير كتابة خاصة بجبيل، وصلتنا أدلة أولى عنها بواسطة تنقيبات عام (1929 م) التي عثر خلالها، بين لقى أخرى، على لوحين من البرونز، وأربع مجارف برونزية، ولوح حجري، وثلاثة أجزاء من ألواح حجرية تنحدر من القرن العشرين قبل الميلاد تقريباً، وتحمل علامات كتابة جبيلية أولى تستند بجلاء على خط مصر الهيروغليفي. ويشير عدد إشارات هذه الكتابة، الذي بلغ مئة وأربع عشرة في حده الأقصى، إلى أن أقدم كتابة خاصة بجبيل كانت تقع بين الكتابة المقطعية والكتابة بالأحرف، وإنه كانت لها أهمية محلية وحسب.

رغم غلبة المكونات والعناصر المصرية، ثمة ملامح ذات منشأ آخر تشكل صورة حضارة جبيل في الربع الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. فقد ظهرت في مواقع التنقيب السورية ـ اللبنانية أسلحة برونزية تختلف اختلافاً شديداً في نوعيتها ومنظرها عن مثيلاتها الأقدم منها، حتى قبل عصر الأسرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصرية الثانية عشرة. يدفعنا هذا إلى تفسير القفزة التطورية الحاصلة بالتأثير الذي مارسه عنصر سكاني جديد، نعتقد أنه تكون من مهاجرين قدموا، على سبيل المثال، من آسيا الصغرى: الوطن الأم لتصنيع المعادن. ليس من الممكن، بطبيعة الحال، قطع الشك باليقين في هذه النقطة، خاصة أن التقنيات والأساليب الجديدة كان يمكن أن تنتشر بسرعة من خلال التجارة أيضاً، فيمكن إذن إرجاع إنجازات مدن لبنان الحضارية في ذلك الوقت إلى قدرتها على تلقي وصهر المؤثرات المتنوعة، التي احتك سكانها بها بفضل صلاتهم التجارية الواسعة. من المنطقي أن توجد في أجواء كهذه بين تقدمات مدافن ملوك جبيل، التي أقيمت في عصر المملكة الوسطى، أشياء مصرية الطراز إلى جانب أعمال فنية تحمل سمات يتوطن أصلها أو نموذجها في منطقة بحر إيجة أو بلاد ما بين النهرين، وأن يتشكل كذلك خليط مميز من أساليب مختلفة ظهر جلياً في صناعة الأسلحة الفخمة والنفيسة، التي أمكن إخراجها من معبد رِشِف في جبيل.

بقي ارتباط جبيل بمصر قائماً لفترة طويلة بعد الأسرة الثانية عشرة. وها هو يَقِينِل الجبيلي يصف نفسه على خاتمه (كخادم لِزِيهيتببره) الملك الثاني الذي يحمل هذا الاسم من الأسرة الثالثة عشرة (حوالي 1770 ق. م). وثمة أيضاً إفريز يصور كيف يمجد ملك جبيل يَنتِين الفرعون نِفِرحُتِيف الأول (1740 ق. م) الذي ابنه سِيحاتور هو السيد الإقطاعي الأعلى لِحَسرُورُم ملك جبيل. بل إنه وجدت في أنقاض تل جِزِّين (حازي؟) في البقاع قطعة من نصب خاص بالفرعون سِبِكحُتِيف الرابع، خلف سِيحاتور. مع ذلك، تزايدت أهمية العلاقات بالدول الأخرى بالنسبة لجبيل وبقية مدن لبنان التجارية، كما تخبرنا محفوظات ملوك ماري، حيث يتكرر كثيراً ذكر (جبلا) أي جبيل كما تسمى في النصوص الأكادية، ويقال إن المراسلين كانوا يذهبون ويؤوبون بين ملوك المدن التجارية. يرد ذكر جبيل لأول مرة في نصوص ماري بوصفها مصدرة أردية وأقمشة، وتذكر في أحد محاضر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجرد ثمرة ذهبية أهداها ملك جبيل يَنتِنَحمُّو لزميله زِمرلِيم ملك ماري (1782 - 1759 ق. م). فهل يَنتِنَحمُّو هو يَنتين الذي اعترف بسيادة نِفِرحُتف الأول على مدينته؟

مايزال الغموض يحيط بنهاية عصر البرونز الوسيط في سورية ولبنان، وإن كان من الثابت أن عنصراً بشرياً جديداً هو الحثي غير السامي شرع يتدفق منذ قرابة عام (1750 ق. م) من الشمال ويتغلغل تدريجياً إلى بلاد ما بين النهرين وسورية، تصحبه مجموعات أوروبية. حدث هذا، بينما كانت مصر منخرطة في حقبة من التفكك الداخلي، قبل أن تسقط في النهاية، منذ حوالي عام (1675 ق. م) تحت سيطرة مهاجرين ساميين غربيين بالأساس هم الهكسوس، الذين أتوا من فلسطين وسورية. ولا تنبئنا اللقى الأثرية إلا بمعطيات تقريبية حول التغيرات التي أصابت دول المدن اللبنانية في الحقبة المظلمة التالية لعام (1700 ق. م). بخلاف الأوضاع في أماكن أخرى كثيرة، وخاصة في فلسطين، ليس ثمة كذلك أية إشارة أكيدة تدل على أن الدمار حاق بجبيل، وإن كانت تلاحظ تغيرات مقلقة في الأوضاع السياسية تدل عليها أعمال موسعة استهدفت تعزيز تحصينات المدينة؛ تشير إليها كذلك الحاويات العديدة المليئة بأشياء ثمينة، التي يرجح أنها وضعت في معابد جبيل قبيل نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد. فقد عثرت التنقيبات على حوالي أربعين كنزاً مخبأ في جرار تضم أكثر من ألف مجسّم معدني، فضلاً عن جواهر وأسلحة نفيسة وأشياء صغيرة للعبادة وما شابه. ومع أن بعضهم يرى في هذه الأشياء الثمينة مخازن تحت التأسيس أو تقدمات للأضاحي، فان هناك قرائن كثيرة تشير إلى أن هذه الكنوز أخفيت بسبب غزو وشيك، مع أنها ربما كانت بالأصل هدايا للأضاحي. بما أن هذه الحاويات لم تستخرج أبداً من الأرض، فلا بد أن تكون مخاوف من أخفوها قد تحققت. ثمة، على كل حال، إشارات مكتوبة إلى أن جبيل سقطت بعيد عام (1700 ق. م) في يد ملك جديد هو أَبِيشِمُو الثاني، التابع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لشخص اسمه كُكُّون، من الجلي أن أصله من لِيكْيا. بعد قليل من ذلك، حكم في جبيل ملك يحمل اسم ليكي الأرجح هو كْوِيزْيّان.

ينجلي غموض تاريخ لبنان أول ما ينجلي في النصف الثاني من القرن السادس عشر قبل الميلاد، عندما خضع من جديد لنفوذ مصر السياسي. لم تتكرر (سياسة الهدايا) المريحة هذه المرة، بل حل محلها الإخضاع بالسيف وعربة القتال. ذلك أن فراعنة الأسرة السابعة عشرة الغاربة والأسرة الثامنة عشرة الفتية لم يكتفوا بطرد الهكسوس من وادي النيل، وإنما سعوا لاحتلال سورية وفلسطين، ليجعلوا أي اغتصاب جديد يقوم به الساميون الغربيون لمصر مستحيلاً، فضلاً عن بواعث أخرى حددت سياسة المملكة الفرعونية الجديدة، منها السيطرة على العالم واستغلال المناطق المحتلة. قادت حملة تحتمس الأول العسكرية الأولى، التي قام بها عام (1520 ق. م) جيش مصر إلى عمق شمال سورية، وأوصلته إلى شاطئ الفرات الشرقي عند كركامش (جرابلس). ووُضعت كذلك خطط لإخضاع بلاد ما بين النهرين. إلا أن تحتمس الثالث، أكثر ملوك المملكة الجديدة نشاطاً في الشرق الأدنى، لم يتجاوز جوهرياً الأهداف التي كانت قد حققتها قوات تحتمس الأول. صحيح أن قوة مصر العسكرية كانت كافية لقمع مقاومة الدول المدن السورية / الفلسطينية بسرعة، لكنه صحيح أيضاً أن جيوش الفراعنة واجهت منافساً قوياً في شمال سورية هو دولة الحوريين التابعة للميتاني، التي حلت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد محل إمبراطورية الحثيين، وفكرت من جانبها بضم سورية إليها. لم تنجح مصر في إقامة سيطرة مستقرة في شمالي سورية، رغم المحاولات المتكررة والنجاحات الوقتية. وقد مرت حدود المجال الشمالي لنفوذها الدائم، الذي بقي راسخاً لم يؤثر فيه الأعداء الخارجيون إلا في حالات نادرة، بمنخفض حمص ثم اتجهت نحو الشرق، حيث ظلت قادش خارج سيادتها العليا، وغدت موضوع نزاع متكرر ومتأجج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بذلك، بقيت دول مدن لبنان خلف الجبهة، بمنأى عن الأعمال الحربية المباشرة للقوى العظمى المتنافسة.

ثمة قدر معقول من المعطيات حول تاريخ المدن الدول في تلك الفترة، تقدمه لنا نقوش الفراعنة وموظفيهم، وأجزاء من مراسلات أجراها أمراء سوريون وفلسطينيون مع السلطات المصرية خلال سنوات حكم أمِينوفِيس الثالث الأخيرة ثم حكم أمِينوفِيس الرابع (1375 - 1347 ق. م) تم العثور عليها في تل العمارنة الواقعة بمصر العليا. تعرفنا النصوص المصرية بأكثر من أربعين مدينة على الشاطئ اللبناني وفي البقاع، حافظ عدد كبير منها على استقلاليته. لكن تحديد هذه المدن لم يكن ممكناً بصورة مرضية في جميع الحالات، لأن هاتين المنطقتين كانتا مأهولتين بكثافة كبيرة، وضمتا عدداً كبيراً من عناصر غير مستقرة كبدو الشاسو والخابيرو.

ليس لدينا غير معلومات قليلة حول البنية الاجتماعية للمدن المذكورة، وإن كنا نعرف أن أمراءها لم يكونوا طغاة معزولين، بل مثلوا أرستقراطية مدنهم. ويرجح أن يكون مقاتلو العربات الحربية، الذين يسميهم مصطلح ميتاني (مَرْيانو) ويعتبرون أكثر العسكريين عراقة، قد تحدروا من شريحة الأمراء هذه. إلى جانب هؤلاء، كان مواطنو الأماكن التجارية الموسرون، وخاصة منهم التجار والحرفيون، يمتلكون نفوذاً معيناً على مصير جماعتهم. بل إن بين رسائل تل العمارنة رسالة بعث بها أكبر سكان إركاتي (تل عركا) إلى الفرعون. وهناك أيضاً رسالتان شارك في كتابتهما ممثلو مواطني جبيل، كما يرد فيهما حرفياً، في حين كان الوضع الاقتصادي للشرائح الدنيا جد متواضع، بسبب الأتاوات والضرائب المرتفعة التي كان عليها تقديمها. وتعرّج الوثائق كذلك على أوضاع عمال السخرة. ويقال إنه كان هناك عملية رجوع إلى البداوة بين الشرائح الشعبية التي لا تمتلك غير قوة عملها، والتي كانت تسمى (هُفشو) وهو ما يفسر هذا سبب وجود نسبة عالية من البدو في قوائم أسرى هذه المدن لدى مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الإدارة المصرية مزيجاً من استغلال ذكي للبنى القائمة ومن بيروقراطية بطيئة الحركة. فكان تشغيل أمراء المدن كأتباع بعد إخضاعهم، والإبقاء بوجه عام على نظام الدول الصغيرة، تدبيرين ينمان عن براعة فائقة، أبقيا على البنى الاقتصادية المتنامية تاريخياً، وصانا القدرات الاقتصادية للمناطق المستولى عليها. أبقى المصريون أيضاً على تنافس دول المدن، ووجهوا الطموح السياسي للملوك في اتجاهات تخلو من أي تهديد لسيطرتهم، وتكفلوا بمنع أي منهم من أن يصير قوياً بما فيه الكفاية. أما الوسيلة الأكثر فاعلية لضمان ولاء الحكام، فكانت أخذ أطفالهم رهائن إلى بلاط مصر؛ وهي ممارسة بدأها تحتمس الثالث إبّان حملته الآسيوية الأولى. ويذكر ابنه وخلفه أمينوفيس الثاني (1432 - 1412 ق. م) في واحدة من قوائم الغنائم أسماء 232 ولداً و323 بنتاً للسوريين (الكبار). من جانبها، تبالغ (بردية هاريس) الكبيرة، المكتوبة في زمن رمسيس الثالث (1182 - 1151 ق. م) حين تخبرنا عن عشرة آلاف فتى أمضوا شبابهم في بلاد فرعون، كانوا قد استجلبوا من البلدان الأجنبية الخاضعة للسيطرة المصرية. إن قلة من هؤلاء استخدمت فيما بعد كحكام لبلدانها، بينما رجا مواطنو طونيب في إحدى رسائل تل العمارنة السماح لابن أحد حكامهم السابقين بالعودة إلى مدينتهم كي يتولى الحكم فيها.

في ظروف كهذه، لا عجب أن يكفي عدد جد قليل من الحاميات لضمان السيطرة المصرية. في الأحوال العادية، كانت مجموعة الحراسة تتكون من خمسة عشر إلى خمسين رجلاً؛ لكن هذه لم تكن توضع في كل المدن، بل تكون فقط حيث خضوع الحاكم غير مؤكد أو مضمون. من جهة أخرى، كانت الحاميات تستخدم أحياناً لحماية أمير موال من رعاياه، لأن ثورات السكان المنهكين كانت تفضي غالباً إلى طرد الحاكم أو قتله. كان مفوضو المناطق، الذين حافظوا على لقب (رَبيصو) الأكادي، أكثر الموظفين المصريين والرؤساء المباشرين لسادة المدن المحليين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهمية. أما مقراتهم الرئيسة فكانت غزة في الجنوب وقوميدي (كامد اللوز) وشُمُور في الشمال، وهي أماكن مهمة استراتيجياً، إذ كان يمكن إخضاع منطقة البقاع الجنوبية لرقابة فعالة انطلاقاً من كامد اللوز، الواقعة على مصب طريق التجارة القديم الممتد من دمشق إلى البقاع. بينما كان مفوض منطقة شُمُور مسؤولاً عن سهل إلويثِرُس ومدن لبنان الساحلية الواقعة شمال مصب نهر الكبير، حيث كانت في ضواحيه مرافئ لإنزال القوات والإمداد.

كان على المفوضين إدارة المناطق التي ليس لها حاكم، كالأراضي غير المأهولة أو التي كانت مأهولة وهجرها سكانها، ومناطق الغابات المهمة جداً كمصادر للمواد الخام، وممتلكات المعابد المصرية التي كان في عدادها تسع مدن سورية وفلسطينية حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. إلى هذا، خضعت للإدارة العسكرية المصرية قواعد وتحصينات مختلفة، وجدت بصورة خاصة على الشاطئ، بينها أُولاّزا على بعد بضعة كيلومترات إلى الشمال من طرابلس، المرفأ الذي يرجح أنه كان يستخدم لشحن السفن بالأتاوات من خشب الأرز. وقد اكتسبت هذه القواعد العسكرية أهمية متعاظمة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، عندما تم توسيع الدرب الساحلي وتحول إلى طريق لتقدم جيوش الفراعنة. ورابطت وحدات عسكرية مصرية قوية في جميع القواعد والتحصينات، وكان يمكن في حالات خاصة استقدام قوات ميدانية من مقاطعة الدلتا. فيما عدا ذلك، كان الفرعون ينجز كل العمليات التأديبية المطلوبة خلال تقدمه في فلسطين ولبنان كأعمال جانبية تتفرع عن حملاته السورية الرئيسة.

ارتبطت وظيفة مفوض المنطقة بواجبات كثيرة. فكان على الرّبيصو القيام بمهام عسكرية واقتصادية متنوعة، وضمان طاعة سادة المدن العديدين التابعين له؛ ومواجهة التعقيدات الإدارية الإضافية التي نجمت عن ازدواجية الإدارة، حيث كان بوسع الحاكم استخدام الطريق الرسمية التي تمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالمفوض، وكان يستطيع أيضاً مخاطبة البلاط المصري مباشرة، كما تؤكد رسائل تل العمارنة. بالمقابل، كانت سلطات البلاط على صلة مباشرة بحكام المدن، الذين كانوا يزودون حملة رسائلهم، من حين لآخر، بإماء و(بهدايا أخرى إلى الملك) دعما لمطالبهم لديه. هذه المراسلات المباشرة مع التاج كانت خطرة، لأن موضوعها كان غالباً اتهامات موجهة إلى أمراء مدن أخرى أو إلى موظفين مصريين، ولأن المشكو منهم كانوا يسعون بدورهم إلى منع وصول الشكوى إلى البلاط أو إلى «إغراقها» هناك بطريقة من الطرق. من الأمثلة على ذلك شكوى قدمها ذات مرة رِيبادّي الجبيلي يقول فيها: «أرسلت رجلي إلى سيدي، لكن حصانيه كليهما انتزعا منه، وأخذ من رجل آخر مرافقه (الكاتب المرافق؟) ولم تسلم رسالة الملك إليه». لم يكن منصب ناقل الرسائل بين أمراء المدن أقل خطورة بدوره، لأن الإدارة المصرية كانت الجهة المهتمة بمعرفة مضمون الرسائل المتبادلة. وإنه لأمر لافت أن جزءاً من نصوص تل العمارنة تكون من مراسلات بين أمراء المدن، يستحيل أن تكون قد وصلت إلى الديوان الملكي في مصر عن غير طريق المصادرة.

وجدت مدن الساحل اللبناني نفسها في وضع أفضل بكثير من دول المدن الداخلية إبان عصر المملكة القديمة. إن الرابطة القديمة التي كانت تشد حكام المدن الساحلية إلى السلطات المصرية جعلتهم أكثر أهلاً لثقتها من زملائهم داخل البلاد. ولعبت وظيفة هذه المدن ضمن ممتلكات مصر الآسيوية دوراً في جعل وضعها أفضل لأنها لم تكن فقط أماكن لإمداد القوات المصرية بالمؤن ولتحميل السفن بالأثاوات، بل كانت أيضاً مراكز تجارية لمصر مصلحة حقيقية في ازدهارها. تمتعت جبيل، مركز التجارة المصرية القديم، بموقع مميز مقارنة بمدن الساحل الأخرى، جعل منطقة حاكمها الإدارية تشمل أقاليم الساحل الشمالية إلى مقربة من مدينة طرابلس الحالية، التي ضمت، فضلاً عن جبيل والبترون، مرفأي شيغاتا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأمبي، وشيغاتا هي اليوم قرية شَكّا التي لم يعثر فيها على أنقاض مدينة قديمة، بينما أمبي هي أنْفَا الحديثة، التي كانت قلعة مهمة إبان الحملات الصليبية بفضل موقعها داخل شبه جزيرة ضيقة، يستبعد أن يكون انفصال رأسها الأرضي عن البر راجعاً إلى حفر خندق هائل في الصخر، أو أن يتحدر مكان النوم الصغير فيها، الذي يستخدمه الصيادون حتى اليوم، من العصر الشرقي القديم. إن أمْبي الصغيرة ما كان يمكن أن تكون يوماً غير محض مرفأ صغير.

بخلاف المدن الساحلية، عرضت عمليات جيوش الفراعنة مدن البقاع لمعاناة قاسية، زاد منها أنها كانت تقع في مناطق تقدمها المباشرة. ينطبق هذا بشكل خاص على منطقة شمال البقاع: بوابة الخروج إلى سهل حمص، التي تسمي النصوص المصرية القسم الكائن منها بين بعلبك وقادش (أرض تَخسِي) حيث نشبت أعمال تمرد يائسة ومتكررة ضد السيطرة المصرية، وحدثت حركات فرار واسعة للسكان نحو أخاديد وأدغال جبال لبنان الغربية والشرقية القريبة، هرباً من وطأة الأعباء التي كانوا يرزحون تحتها نتيجة لوجود الجيوش المصرية، العابر، ولكن المتكرر فيها. يقدم لنا نقش عن الحملات السورية في العام السابع من حكم أمينوفِيس الثاني، وصل إلينا بصياغتين مختلفتين وجدتا في الكرنك وممفِيس، صورة عن عمليات الفراعنة في هذا الحيز الجبلي المهم. يبدأ التقرير بوصف التحركات في شمال سورية، التي قادت الجيش حتى أوغاريت، ويذكر أنه تم في طريق العودة تلقي مبايعات بعض أمراء المدن، كان آخرهم أمير قادش. مع الدخول إلى البقاع تم من جديد الرجوع إلى قاعدة الانطلاق وانتهت الحملة العسكرية، فاستراح الجيش بضعة أيام انصرف فيها أمينوفِيس إلى الرماية والصيد في غابة [ربو]، التي تماثل بالتأكيد غابة صيد تقع على مقربة من الهرمل الحالية، حيث قنص غزلاناً وحيوانات برية حمراء اللون (وعولاً؟) وأرانب وحمر وحشية. في النهاية تتم عملية تهدئة ضد حاكم هاشابو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاصي، التي يجب البحث عنها بالتأكيد جنوب حرجة الهرمل. في نص نقش الكرنك، يتم أسر الأمير وابنه وتؤخذ غنائم كثيرة من المدينة، التي تسارع إلى إعلان خضوعها، بينما تصف صيغة ممفيس، الميالة إلى مبالغات تبجحية، الحادث كعمل قام به فرعون بمفرده «... دون أن يكون هناك أحد غيره. لقد رجع من هناك ذات لحظة وقد غنم ستة عشر من مقاتلي العربات الأحياء (مَريانُّو) جرهم وراء عربته، وعشرين يداً (لأعداء قتلهم) علقت على جبهات أحصنته، وستين عجلاً كانت تتدافع أمامه». وكان قد سبق لأمينوفيس الثاني أن تدخل بقوة في هذه المنطقة خلال حملته الآسيوية الأولى، «وقتل بهراوته الخاصة سبعة من زعماء القبائل، ممن كانوا في منطقة تَخسِي»، علقت رؤوسهم المتدلية إلى الأسفل على مقدمة سفينة جلالته، التي نقلتهم إلى مصر كي يعرضوا على الناس. وثمة إفريز مصور، ربما تحدر من ذلك الوقت، يصور نقل ثائر سوري أُسر حيّاً وحبس في قفص علق على مؤخرة سفينة.

مثل هذه التدابير الشديدة أثرت لفترة طويلة دون شك، وأدت إلى بقاء منطقة تخسي والبقاع عموماً في أيدي المصريين إبان عهد المملكة الجديدة. يقول ملك الحثيين مُورشيلّي الثاني (1331 - 1306 ق. م) في واحدة من صلواته حول الطاعون: «أرسل أبي [شُوبّيلوليوما الأول] قوات راجلة ومحمولة على عربات قتال، فانقضت على منطقة حدود مصر، منطقة عمقا (البقاع). ثم أرسل مرة أخرى قوات انقضت مجدداً على هذه المنطقة». هذه الأعمال، التي وقعت في عامي (1337) و(1335 ق. م) اعتبرها الحثيون أنفسهم انتهاكاً لمعاهدات تعيين الحدود مع مصر، وسبباً للطاعون الذي حل بالأناضول. وإذا كانت لم تؤد على كل حال إلى تغيير وضع ملكية المناطق المغزوة، فإنها دمرت بلاد تَخسِي، التي كان سادة مدنها قد انخرطوا قبل ذلك وطوال عقد في نزاعات أجج الحثيون نيرانها، جعلت بيري، من هاشابو، يشكو أيتكمَا القادشي لأنه انحاز إلى الحثيين وأشعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النار في مدن فرعون، بينما يتهم أيتكمَا الحاكم بِيرياوازا من أوبِه ويقول إنه استولى على أرضه وجعل المدن مقفرة.

بسبب خسارة القسم الشمالي من سهل إلويثِرُس، واستكمال بناء الدرب الساحلي وتحويله إلى طريق آمنة في ظل فرعون الأسرة التاسعة عشرة الأول، تحولت المدن الساحلية إلى وضع شبيه بوضع البقاع. وإذا كان رمسيس الثاني قد أمر بتمثيله على نهر الكلب وبصحبته أسرى محليون مكبلون بالأصفاد، فان هذا يشير إلى نزاعاته مع السكان، وخاصة منهم أبناء المنطقة المحيطة بالممر الضيق المتزايد الأهمية، الذين كان تماسهم محدوداً في السابق مع الوجود المصري. وإذا كانت تقارير الحملات لا تسمح بمعرفة أي شيء تقريباً عن هذه النزاعات، فإن (بردية أنِستازي) الأول، وهي مخطوطة سجالية أدبية، تقدم انطباعاً تقريبياً حولها، حين تصف بين أشياء أخرى، مع بعض المبالغات، رحلة ماهِير (مراسل سريع) من شمال سورية إلى مصر. فحسب جميع القرائن، تعبر الطريق، التي يحددها المؤلف، لبنان على عرض مدينة جبيل تقريباً، حيث تغطي الجبال أشجار سرو وسنديان وأرْز «تصل إلى السماء» فتجعلها تبدو «مظلمة في وضح النهار». وبالإضافة إلى هذا، هناك أعداد كبيرة من الأسود والحيوانات الكاسرة الأخرى، ويحيط البدو بالمسافر من جميع الجهات، في حين يجب على الماهير جر عربته عبر دروب عمودية، وحملها عبر أنهار جبلية جارفة، لذلك كنت تراه يمضي الليل في نوم عميق و«قد طحن جسده طحناً»، بينما اللصوص يسرقونه. حين كان سائق عربة المراسل يلاحظ ما يجري، كان يسارع بدوره إلى أخذ ما عسى أن يكون اللصوص قد تركوه، قبل أن ينضم إلى البدو. عندئذ كان الماهِير يجد نفسه مجبراً على جر عربته بمفرده. تعتبر الوثيقة عبور ما تسميه (سُلَّم صور) عند رأس الناقورة خطيراً بصورة خاصة. ويقال شيء مشابه عن معابر الكرمل الضيقة، حيث «البدو يختبئون وراء الدغيلات... قلوبهم لا تعرف المودة، وآذانهم لا تسمع كلمات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضراعة». هذا الوصف يتفق مع تحذيرات تعاليم الحكمة المصرية من وظيفة الضابط، الذي عليه حمل «خبزه ومائه على كتفه وكأنه حمار»، منذ أن تطأ قدماه الجبال السورية «لأن العدو يختبئ في الدغل، والخصم مستعد للقتال. بينما يترنح الضابط منادياً ربه: "أدركني وانقذني!"».

لم تهيمن فقط الحروب والأوضاع الشبيهة بها طوال سنوات السيطرة المصرية الثلاثمئة وخمسين، بل كان هناك أيضاً فترات طويلة من التطور الهادئ. صحيح أن الأعباء الاقتصادية لكل حملة سورية من حملات الفراعنة العسكرية كانت كبيرة جداً، إلا أن عددها لم يتجاوز الستين حملة. وكان تنفيذها رهناً بجودة وسلامة زراعة المقاطعات الآسيوية التي تتكفل بإمداد القوات بالغذاء. من جانبها، كان على الأتاوات والضرائب أن تبقى في أطر يمكن احتمالها، وإلا عجز ملتزموها عن تأديتها. وللعلم، فإن الالزامات الضريبية لم تكن كل شيء، بل قام إلى جانبها تبادل تجاري عادي، وخدمات مدفوعة الأجر، وتجارة مفرق سلعية طرفاها المصريون المقيمون في المقاطعات الآسيوية والسكان المحليون.

تسمح الرسوم الجدارية لقبر كين أمون الطيبي من عصر الأسرة الثامنة عشرة بإلقاء نظرة على صلات مصر التجارية بمدن الساحل السوري. تبدو في الرسوم سفن سورية وهي تفرغ حمولتها في المرفأ، وعلى الرصيف مباشرة حوانيت صغيرة وواجهات عرض سلع وعربات تستخدم كدكاكين ضمن (منطقة المرفأ الحرة). يتسلّم موظفو كين أمون الحمولة الرئيسة للسفينة على مسافة قليلة من مكان الرسو، بينما تتفق وقفة التجار المفعمة بالخشوع مع المفهوم المصري القديم للتجارة الخارجية كعمل من أعمال تأدية الضريبة. ثمة تفسير آخر لخشوع التجار، هو أن قسماً من حمولة السفينة ربما كان أتاوات، وقسماً آخر سلعاً تجارية (شكل 17).

تقدم مشاهد الموانئ لمحات مهمة عن تشكيلة السلع المشحونة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

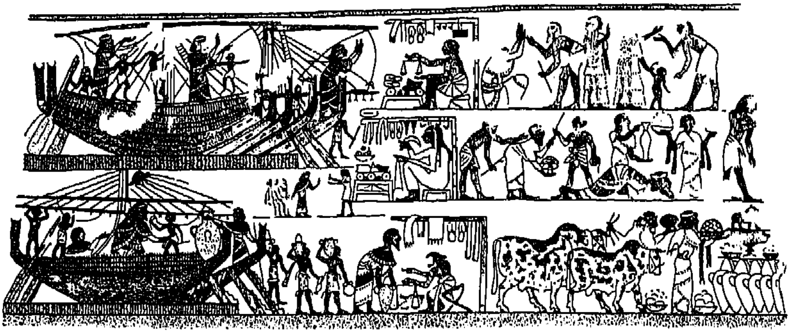

الشكل (17): منظر مرفأ مصري ـ رسم على حائط قبر كينامون في طيبة.

السفن من مرافئ لبنان والساحل السوري عموماً إلى مصر. يثير الانتباه في المصور وجود الثيران ذوات الحدبة التي لا شك في أن مصر كانت تستوردها من أجل التكاثر. وقد سبق لرمسيس الثالث أن دوّن واقعة قيامه بإرسال تسعة عشر عجلاً من سلالات سورية مختلفة إلى معبد أمون في طيبة. أما الأواني الفخارية العملاقة على سطح السفينة، فربما كانت أوعية نبيذ، ومثلها الأوعية الموضوعة على الأرض، الشبيهة بها. في حين يرجح أن تكون الجرار ذوات الآذان، التي يسحبها عبيد بمعية أحد التجار عن سطح السفينة، مليئة بزيت الزيتون. أما الآنية الأصغر فيمكن أن تحتوي عسلاً أو دهوناً مستخرجة من الأرز أو موادّ تجميلية (شكل 18).

تغلب التحف النفيسة في تمثيلات الأتاوات وغنائم الحرب المصورة، وتبرز فيها خاصة الأوعية المصنوعة من معادن ثمينة، وتجهيزات الموائد ذات السوية الفنية الرفيعة، والعربات الفخمة المغشّاة بصفائح الذهب أو الفضة، والخيول الأصيلة المستجلبة من شمال سورية. عندما كانت تظهر في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التمثيلات المذكورة سبائك نحاسية، فإن الأمر كان يتعلق غالباً بمستوردات من قبرص مخزونة في مستودعات المرافئ. وكان في معظم الأحيان بين الأتاوات حيوانات متوحشة حية، وضوارٍ، وظباء. أخيراً، كان هناك أيضاً عبيد من الجنسين.

الشكل (18)، اتاوة قادمة من ولايات آسيا الدنيا تضم ادوات مائدة وتجميل في أوانٍ فخارية كانت معروفة حاويات تصدير صغيرة في الألف الثاني قبل الميلاد. فضلاً عن ذلك، يقدم حَمَلة الأتاوة في الصف لأعلى أمة صبية وقرناً مطلياً بطريقة فنية كإناء للمرهم. على اليمين في الصف الأسفل، توجد آنية ذهبية للشرب لها شكل راس عِقاب. رسوم جدارية على قبر سوفكتحب (حوالي 1410 ق. م) في طيبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوجه الإجمال، توفر آنذاك عرض واسع من سلع التصدير احتلت فيه سلع التجارة البينية موقعاً مهماً. يشي تصنيع المعادن الثمينة بمستوى تطور ثقافي رفيع عكس نفسه أيضاً في تمثيلات سكان الأقاليم الآسيوية، التي أعطيت هيئة تكوينات ألبست ثياباً تنم على ذوق رفيع إلى أبعد حد. لا عجب إذن إن كانت أقمشة جبيل وصيدا وصور مرغوبة حتى في دوائر البلاط المصري.

فقدت المملكة المصرية الجديدة ممتلكاتها الآسيوية بالتدريج، وجاء التراجع الأول بسبب توغل ما سمي (شعوب البحر) من الشمال، التي خربت مساحات واسعة من آسيا الصغرى وسورية. صحيح أن رمسيس الثالث نجح في عام (1175 ق. م) في دحر الغزاة، لكن مجموعات من (شعوب البحر) أفلحت في التوضع ضمن منطقة لبنان أيضاً، مع أن ذلك حدث، في السهل الساحلي على الأقل، تحت رقابة مصرية ودون إخلال عميق الأثر بالحضارة المدينية القديمة. ويرجح أن الفلسطيين، الذين حلوا بالقسم الفلسطيني من الساحل، قد جلبوا إليه من قبل المصريين أنفسهم ليؤسسوا مستوطنات عسكرية. أما الخبر الذي أورده المؤرخ الروماني يونيانوس يوستينوس، وفيه أن (ملك العسقلانيين) احتل صيدا، فلا يعدو أن يكون ذكرى مشوشة عن حادث جرى في زمن لاحق. وقد بدأ التراجع الملموس في نفوذ مصر تحت حكم خلفاء رمسيس الثالث، وإن كانت فاعلية الرقابة المصرية لم تتوقف تماماً إلا مع بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

لم يطابق تأثير بلاد النيل الثقافي في دول مدن لبنان من جميع الوجوه ارتباطها السياسي الوثيق بمصر إبان عصر المملكة الجديدة. ولم تتمكن اللغة والكتابة المصريتان من التوطن في الأقاليم الآسيوية، لذلك استخدمت الكتابة المسمارية الأكادية حتى في مراسلات البلاط المصري الرسمية مع الحكام الكنعانيين، وتم التخاطب خلال المداولات الرسمية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأكادية ذات صبغة كنعانية. من غير الجائز كذلك المبالغة في تأثير العبادات المصرية إبان عهد المملكة الجديدة، رغم ما وصلنا من معلومات حول إقامة معابد فرعونية لآلهة مصر في الأقاليم الآسيوية، فربما يكون الأمر قد انصب هنا في معظم الأحيان على أديان محلية تمت مماهاة آلهتها مع آلهة مصر، تلبية لحاجات الحاميات المصرية الدينية، في حين ترجع المؤثرات المعمارية والتشكيلية، الملحوظة في أماكن العبادة، إلى زمن أقدم، ولم يصبح التأثير المصري على الحرف ملموساً أكثر مما كان عليه زمن المملكة الوسطى. بالمقابل تعاظم تأثير الحيز الإيجي، الذي يمكن التعرف عليه بصورة خاصة من تزايد استخدام الفخار القبرصي والميكيني المستورد والمقلد؛ ومن تلك الخلطة الأسلوبية التي لا تني تتقدم، وتظهر في منتجات الحرف الفنية المحلية، ومنها تنزيلات العاج الجميلة على الأثاث المنزلي التي وجدت في مجدّو (تل المتسلم) الفلسطينية (شكل 19) وتتحدر بالتأكيد من دول مدن الساحل اللبناني/ السوري. في هذه الأعمال الفنية الصغيرة، تتحد عناصر مصرية وإيجية وشمال سورية. ويظهر أسلوب مختلط يشابه التنزيلات التي عرفتها أوغاريت القديمة في الزمن نفسه، وإن كان التقليد المصري قد ترك بصماته على التمثال العاجي الصغير الذي وجد عام (1964 م) في كامد اللوز (شكل 20) إلى جانب بعض العناصر المحلية التي تظهر بدورها في تشكيل وجهه وردائه. تتوحد، كذلك، عناصر الفن المصري والسوري الشمالي في صنع تابوت أحيرام، ملك جبيل، الذي يرتكز على تماثيل أربعة أسود من الطراز الحثي. هذا العمل الفني، الذي ربما يكون صنع بعد عام (1100 ق. م) بفترة قصيرة، يعود إلى (العصر الذهبي) لمدن لبنان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل (19): عمل فني فينيقي من العاج عثر عليه في تل المتسلم (حوالي القرن الثالث عشر ق. م). تلبيس على قطعة اثاث يمثل ابا الهول.

الشكل (20): مجسّم عاجي من كامد اللوز.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفينيقيون ومدنهم

«تفاخرت أنني ابن صيدا، شديد التألق...»[1]

يسمى العصر الممتد بين سقوط السيادة المصرية ونجاحات أشور الأولى في فرض رقابتها على سورية ولبنان (عصر فينيقيا الذهبي). في حقبة التحرر هذه من السيادة الأجنبية، التي استمرت لأكثر من مائتي عام، تشكلت ظروف ملائمة لتطور خاص شمل سائر مجالات الحضارة، فنشأت لأول مرة جماعات مستقلة، جديدة وكبيرة، ضمن المجال السوري / الفلسطيني، امتلكت إمكانات تطور اقتصادي واجتماعي أكثر تقدماً من تلك التي كانت لجماعات المدن القديمة. أما أكثر تشكلات دول المنطقة أهمية، فكانت مملكة داود / سليمان، التي وصلت حدودها من حين لآخر إلى المخرج الشمالي للبقاع، وكانت دولة فلسطينية كبيرة لم تعمر إلا فترة قصيرة وحسب. بالمقابل، بقي نظام دول المدن قائماً في منطقة الشاطئ اللبناني. ذلك لم يكن محض نتيجة وحسب لخصائص القطاع الساحلي الجغرافية، بل رجع أيضاً إلى علاقات هذا القطاع الاقتصادية الخاصة، التي جعلت المرافئ تميل، بوجه عام، إلى توسيع تجارتها المربحة أكثر مما تميل إلى ضم مناطق برية واسعة إلى أراضيها، يشجعها على ذلك أن حاجاتها كانت تلبى من خلال صادراتها إلى مناطق ما وراء البحر ووارداتها منها، أكثر مما تلبى بواسطة الاستيلاء التعسفي على المناطق الداخلية المجاورة لها. يفسر هذا

1. الترجمات كافة عن النص الألماني: Homer, *Odyssee* XV 424.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لماذا كان الاستعمار الفينيقي توسعاً اقتصادياً ـ تجارياً بالدرجة الأولى، لا يعطي الأولية للاستيلاء على الأراضي ولزرع أجزاء منها بمعمّريه، وإن كانت هاتان النزعتان قد لعبتا كلتاهما دوراً ما في التوسع الاقتصادي ـ التجاري.

كانت فترة الاستقلال حقبة أثّرت فيها قوى جديدة تأثيراً عميقاً في حضارة دول ـ مدن لبنان. ربما كان عدد من انتموا إلى مجموعات (شعوب البحر) التي استوطنت هنا قليلاً جداً، لكن نفوذهم الحضاري كان مهماً، فقد جلبوا معهم الحديد وفن تصنيعه من آسيا الصغرى. وأسهم القادمون من منطقة إيجة، الذين غزوا سواحل فلسطين وسورية من البحر وسكن قسمهم الأكبر مرافئها، في تطوير الملاحة، وشاركوا في تأسيس شهرة الفينيقيين اللاحقة كأمة بحارة ومكتشفين جسورين. في حين تعود إلى قادمين من كريت الكتابة الفينيقية بالأحرف، التي تستند إشاراتها كثيراً إلى الخط الكريتي ـ المينوي، وإن وجدت قرائن تشير إلى وجودها في حقب أقدم، أهمها تلك الأسماء المكتوبة على رؤوس أسهم تنحدر من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، عثر عليها قرب النبطية الفوقا (شمال نهر الليطاني الأدنى) في البقاع، وقرب بيت لحم الفلسطينية. تكيّفت عناصر السكان الجديدة بسرعة مع الحضارة الكنعانية المحلية، التي تركت من جانبها آثاراً متعددة على فنها ودينها. وإنه لأمر ذو دلالة أن أخبار العهد القديم لا تحتسب كنعان، الذي صيدون (صيدا) ابنه البكر، بين أخلاف سام (سفر التكوين 10:15) مع أن العنصر السامي بقي مهيمناً من الناحيتين الإثنية واللغوية.

تعني بداية الاستقلال حقبة جوهرية جداً في تاريخ وحضارة منطقة الشاطئ السورية ـ الفلسطينية. فما نسميه عادة الحضارة الفينيقية ولد في هذا الزمن، وكان مركزه دول مدن الساحل اللبناني. لذلك نعتقد بضرورة استخدام مصطلح (الفينيقيين) لوصف سكان الشريط الساحلي الذين عاشوا في ذلك الوقت بين النهر الكبير ورأس الناقورة، ولتمييز حضارتهم عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة الكنعانية الأقدم، التي شملت مجالاً أكبر بكثير. لكن هذا الاستعمال اللغوي هو استعمال إشكالي بالطبع، لأن (الفينيقيين) لم يطلقوا هذه التسمية على أنفسهم في أي وقت، وإنما كانوا يسمون أنفسهم بأسماء مدنهم، تبعاً للمعطيات التاريخية - السياسية، فكانوا صيداويين أو صوريين... الخ، وتمسكوا باعتبار أنفسهم كنعانين إلى زمن متأخر، معبرين بذلك عن انتمائهم الإثني. في مطلع القرن الخامس الميلادي، أخبرنا أغُسطين، الراهب المتحدر من مستعمرات الفينيقيين شمال الأفريقية قائلا: «يجيب أبناء بلدنا حين يسألون عن أصلهم بلهجة قرطاجية[2]: نحن كنعانيون». لم يكن اسم (فينيقي) غير تسمية أجنبية مألوفة في الميكينية وقريبة من كلمة [فنش - و] في المصرية الوسطى، توطنت، على كل حال، بقوة في العالم الإغريقي منذ هومير. بحسب معناه، ارتبط اسم الفينيقيين مع كلمة الفيوينكس (الأحمر القاني) الإغريقية، التي تذكر عادة بالأرجوان الفينيقي، المرغوب كثيراً في العصر القديم. مثل هذا الاحتمال يشير إليه أيضاً الاشتقاق من اللون الأحمر القاني (للأرض الحمراء).

لم يكن استقلال المدن الفينيقية نتيجة للكفاح من أجل الحرية، بل كان نتاج تطور تدريجي. حيث كانت سيادة الفراعنة على فينيقيا تتبدد شيئاً فشيئاً، بسبب عجزهم المتعاظم عن جعلها مؤثرة وفاعلة. من هنا، لم يخرب الاستقلال علاقات الفينيقيين الوثيقة بمصر أو يفضي إلى قطعها. لقد بدلت هذه العلاقات طبيعتها وحسب، فانقضى زمن تقديم الأتاوات والضرائب، واقتصر النشاط الاقتصادي الخارجي على مؤسسات تجارية وملاحية فينيقية كان لأصحابها وكالات ومكاتب في مصر الدنيا. جسّد تقرير الرحلة الذي

2. النص الألماني يوظف المصطلح (Punic) المشتق، على ما يبدو، من كلمة (Phoenik) أي فينيقي، وقد ارتأينا تعريبه إلى «قرطاجي» حيث أن المقصود بذلك لهجة كنعانيي شمال إفريقية الذين أسسوا مدينة قرطاجنة الواقعة حالياً ضمن أراضي الجمهورية التونسية (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتبه (وِن ـ أمون) خلال العقود الأولى من فترة الاستقلال العلاقات الجديدة، وفيه أن سلوك زكربعل، ملك جبيل، لا يدع مجالاً للشك في أن العلاقات التجارية مع معبد أمون ليست سوى صفقة تقوم على النفع المتبادل. في هذه الفترة، كان التبادل التجاري قد بلغ حجماً هائلاً، بدلالة ما ذكره زكربعل حول وجود عشرين سفينة تجارية في مرفأ مدينته تعمل في خدمة المصريين، وخمسين سفينة أخرى ألقت مراسيها في مرفأ صيدا كانت استأجرتها شركة تجارية فينيقية مقرها طانِس. يلفت النظر أيضاً وجود مصريين بين مستخدمي حاكم جبيل في هذه الحقبة، فقد كان مصرياً الموظف السامي في بلاط المدينة الذي التقاه (وِن ـ أمون) وكذلك المغنية التي أرسلها زكربعل إلى مقره كي تدخل السرور إلى فؤاده.

يمدنا تقرير المصري بصورة غنية عن (شعوب البحر) ويزيد من قيمته أنه كتب بعد عقود قليلة من استقرارها. يعقد (وِن ـ أمون) أواصر التعارف مع المنتمين إلى قبيلة تْجِكَر، التي كانت قد استقرت كفئة مسيطرة في مرفأ دور (خربة البرج) على الساحل الفلسطيني. يستقبل زعيمها، الذي هو أمير المدينة، المصري بمودة، ويرسل إليه على سفينته خبزاً ونبيذاً وفخذ عجل، رداً على هداياه. لئن كانت علاقتهما ساءت فيما بعد، فان الذنب في ذلك يقع بوضوح على (وِن ـ أمون) الذي تأكد أن تْجِكَر[3] مدينة دور قادرين تماماً على صيانة حقوقهم حتى خارج دولة مدينتهم، فقد أتوا على ظهر إحدى عشرة سفينة إلى جبيل وطلبوا تسليمهم (وِن ـ أمون)؛ عندئذ اضطر ملكها إلى تدبر أمره بالقول: «ليس بوسعي أسر رسول أمون في أرضي. دعوني أخرجه منها، ثم لاحقوه وخذوه أسيراً». هذه النصيحة الحكيمة أرضت الطرفين، فتفادى الملك وقوع تعقيدات مع مصر والتْجِكَر كان يمكن أن تضر بعلاقاته التجارية معهما. تعطي رواية (وِن ـ أمون) الانطباع بوجود

3. أحد أقوام «شعوب البحر» الوارد ذكرهم في النصوص المصرية القديمة (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تواصل تجاري نشط في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط خلال مطلع الألف الحادي عشر، لكنها تظهر أيضاً كم كانت التعقيدات بين الدول الصغيرة سهلة الحدوث. إن نبأ احتلال صيدا على يد ملك عسقلان، الذي سبق ذكره، يقع في هذا الإطار.

تقود بعض أخبار العهد القديم إلى هذا الوقت عينه تقريباً. حيث تصف (أغنية دبورة) حال سبطَي دان وأشير، اللذين استقرا في منطقة الحدود الفينيقية، وتخبرنا عن قبيلة دان أنها استوطنت السفن، وعن أشير أنها أقامت «على ساحل البحر» - (سفر القضاة 5:17). ثم يتحدد وضع أشير تحديداً أدق من خلال خبر إضافي في سفر القضاة (1:31 - 32) يقول إن هذه القبيلة لم تنجح في إزاحة سكان عكّا وصيدا عن مدينتيهم، وإنها سكنت وسط الكنعانيين. يثير ذكر صيدا في سياق هذه القصة الاهتمام، فمن غير الممكن أن تكون هي ومحيطها المقصودين فعلاً بهذا الخبر، لوقوع دول مدن فينيقية أخرى بينها وبين منطقة سكن أشير، أهمها دولة صور. ربما كان يشار هنا إلى وضع تاريخي فرضت صيدا فيه سيطرتها على المدن الفينيقية الجنوبية، عكس وجوده قيام العهد القديم وهومير بإطلاق اسم (صيداوي) على جميع الفينيقيين. يتضح من أخبار العهد القديم حول سبطَي أشير ودان أن دول المدن الفينيقية لم تعرف فقط كيف تحافظ على استقلالها الإقليمي، بل امتلكت كذلك نفوذاً اقتصادياً مهماً في المناطق الداخلية المجاورة لها. فقد قدم الدانيّون عمال المرافئ الفينيقية، بينما وفر الأشيريون، الذين كانوا قد بلغوا وضعاً أحسن في الأراضي الزراعية، «طعاماً دسماً يثير شهية الملوك» - (سفر التكوين 49:20). وكانت أهمية الداخل قد تزايدت، بوجه عام، مع تزايد عدد سكان المدن الفينيقية، وتعاظم حاجتهم إلى استيراد المواد الغذائية.

ثمة خبر ثالث يرجع إلى ما بعد بداية القرن الحادي عشر بقليل هو تقرير ملك الآشوريين تغلاتبلصّر الأول حول حملته إلى سورية وفينيقيا، الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعلن استحقاقات هذه القوة الكبرى التي ستنهي استقلال فينيقيا بالقوة بعد مئتي عام. خلال حملته على لبنان، لم يقطع تغلاتبلصَّر الأول الأرْز ويرحله فقط، بل فرض كذلك أتاوات على مرافئ يذكر منها أسماء صيدا وجبيل، فضلاً عن أرواد النائية، الواقعة إلى شمال منطقة فينيقيا المركزية.

أحرزت صور مكانة مهمة بين المدن الفينيقية قرب نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ويرجح أن تكون قد اتبعت صيدا لها. فالعهد القديم يصف صور زمن داود وسليمان، التي تمتلك غابات الأرْز الغنية في منطقة ما وراء صيدا، ويرى فيها شريكاً ونداً لمملكة بني إسرعيل الكبيرة؛ والوحيدة بين جاراتها التي لم تدخل معها في تعقيدات حربية. ويرجح أن صور كانت هي الجانب المتفوق في العلاقة التحالفية مع المملكة الشمالية[4]؛ يظهر هذا في نصوص الاتفاقية التجارية التي عقدها سليمان مع الملك حيرام، فأتت مجحفة بالنسبة له، كما يظهر في تنازل سليمان عن الجليل، أرض الداخل الهضبية المهمة، والواقعة خلف السهل الساحلي اللبناني، لصور. ينقل إلينا هذا الخبر ملاحظة وردت في سفر الملوك الأول، لحقت بها إضافات مختلفة فيما بعد. في الأصل، يرجح أن نص هذه الملاحظة كان يقول: «... أعطاه سُليمان عشرين مدينة في أرض الجليل.... وكان الذهب الذي أرسَلَه حيرام إلى الملك سُليمان عشرين قنطاراً» ـ (الملوك الأول 9:11 ـ 14). فيما بعد، حدث استياء من بيع سليمان للأرض التي بيع شعب المنطقة معها، فعكس كتاب التاريخ الحدث ببساطة، وجعلوا حيرام يتخلى لسليمان عن عدد من المدن (سفر أخبار الأيام الثاني 8:2).

يرجع فقدان قوة مملكة داود وتراكم مصاعبها الاقتصادية خلال حكم سليمان إلى أسباب سياسية ملموسة، منها النزاعات مع دول إقليمية مجاورة

4. أي مملكة «إسرعيل» وفق الرواية الكتابية (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سبق لها أن اعترفت بسيادة داود العليا عليها، وكذلك الصراعات الداخلية مع أسباط بني إسرءيل الشمالية الطامحة إلى الاستقلال. وأخيراً استعادة مصر قوتها في ظل الأسرة الحادية والعشرين، واهتمامها المتجدد بممتلكاتها الآسيوية السابقة. يخبرنا العهد القديم عن حملة قام بها ملك مصري لا تسميه، قاد جيشه إلى مقربة من أورشليم واستولى على مدينة جازر (تل جازر) التي يقطنها الكنعانيون (سفر الملوك الأول 9:16). لكن سليمان توصل، في النهاية، إلى امتلاك المدينة المهمة بفضل زواجه من أميرة مصرية، حصلت عليها كهدية عرس. ثمة شكوك حقيقية فيما إذا كانت هذه الرابطة العائلية قد حسنت علاقات مملكة داود بمصر، فقد بلغتنا أخبار كثيرة تفيد أن البلاط المصري كان يدعم خصوم سلالة داود بالذات، (انظر سفر الملوك الأول 11:14 - 15، 12:2) وأن هدف سياسته الخارجية كان القضاء على هذه المملكة، لذلك شارك في جميع الأعمال التي أدت إلى ذلك، ومنها الحملة الثانية التي قادها عامي (922 و921 ق. م) الفرعون شِشنق الأول، بعد خمسة أعوام من موت سليمان، وفرضت على خليفته رحبعام أتاوات ضخمة عجز عن جمعها وتأديتها فيما بعد (سفر الملوك الأول 14:25 - 27).

يفسر هذا الوضع السياسي الخارجي لماذا سعى سليمان إلى صداقة حاكم صور، وعقد معه اتفاقيات تجارية مجحفة بحقه، وتخلى له أخيراً عن أراض من مملكته مقابل دفعات نقدية. بما أن هذه الأوضاع كانت، بالمقابل، ملائمة تماماً لصور، فقد بقيت علاقاتها بجيرانها الجنوبيين مستقرة حتى نهاية عصر الاستقلال. غير أن تفكك مملكة داود أحل مملكة بني إسرءيل الشمالية محلها بالنسبة لصور، التي ربط ملكها إيتوبعل ملك المملكة الجديدة عمري إليه بوثاق رابطة أسرية، بأن زوج ابنته إيزابيل من آحاب بن عمري. في هذه العلاقة أيضاً، هيمنت صور بكل وضوح. ويعزو عرض العهد القديم لقصة آحاب تأثيراً خارقاً لابنة ملك صور على شؤون الحكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمناسبات الدينية، يؤكده بصورة خاصة بناء معبد لبعل صور، أي لإلهها مِلقارت، في سمر عاصمة مملكة بني إسرعيل الشمالية.

هناك أسباب سياسية خارجية وازنة دفعت مملكة إسرعيل إلى عقد أواصر هذا التحالف الوطيد مع صور، الذي استمر حتى القرن التاسع قبل الميلاد. فقد أدى تفكك سيطرة أتباع داود إلى منازعات عسكرية دائمة مع مملكة يهوذا استمرت أيام آحاب. وانهمك ملوك مملكة إسرعيل في نزاعات حدودية مع مؤاب وآرام في الشرق والشمال الشرقي، بينما تكرر في الغرب نشوب نزاعات حول الأرض مع المدن الفلسطينية.

لئن كان ملوك صور يؤدون دور الشريك المتفوق في التحالف مع مملكة إسرعيل، فان ذلك كان بالقطع واحدة من نتائج التفوق التقني والثقافي الذي امتلكته صور حيال دول فلسطين الإقليمية، الفتية بالمقارنة معها، الذي يظهر في أشكال متنوعة من مساعدات التطور ذات العائد المادي الوفير. فقد أقام خبراءِ من صور على البحر الأحمر كل ما هو ضروري للأسفار التجارية نحو أُوفِير البعيدة. وكانت أبنية داود وسليمان الدينية والتمثيلية مع تجهيزاتها الداخلية من صنعهم. أخيراً، تظهر طبيعة علاقة مملكة بني إسرعيل بحضارة صور المتفوقة من خلال انتقال إله السهب يهوه إلى بناء ديني شيد على الطراز الفينيقي.(5)

تبدو الأهمية التي أحرزتها صور في عصر الاستقلال بأجلى أشكالها من خلال ما سمي (نصب مِلقارت) الذي تم اكتشافه عام (1938 م) شمال

5. إن الشروح حول مملكة داوود / سليمان الكبرى كانت تتفق ووضع البحث عام (1974 م). هذا الفهم التقليدي لم يعد ممكناً الاحتفاظ به اليوم، بعد أن تحقق تاريخياً وآثارياً أن بناء الهيكل الثاني في القدس (سفري عزرا (3:7) وحجي (1:8)) وسفر الملوك الأول (5 ـ 7)، لم يكن على الأرجح غير خرافة ذات صياغة أدبية أسقطت على ما قبل التاريخ المفعم بالأسطورية. أما الأقوال حول طريقة تجارة خشب الأرز الفينيقية فهي تعتبر، بالمقابل، موثوقة: كَارلْهَاينْز بِرنهَردْت في رسالة إلى الناشر بتاريخ 13 أيار (1999 م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حلب (شكل 21) ويحمل نص قصير لِبَرحدد، (ملك آرام) الذي يرجح أنه كان أول ملك بهذا الاسم وأنه حكم دمشق في بداية القرن التاسع قبل الميلاد أنه تمثال مقدم لِملقارت، إله صور، الذي يسميه بَرحدد (سيده) في إشارة إلى العلاقات الحميمة بين المملكتين التي قامت على تجاورهما الأرضي، لأن البقاع كان جزءاً من مملكة الآراميين في هذه الفترة، وإلى نفوذ صور القوي في الداخل السوري. وبما أن مخارج البقاع الجنوبية كانت

الشكل (21)، مجسّم نصب ملقارت. مايزال الإله يحمل سلاح العصر الوسيط البرونزي، بينما تقتصر ثيابه على إزار قطني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تابعة لملوك دمشق، فقد حدث تماس مباشر بينه وبين ممتلكات صور الداخلية، التي كانت تجتازها طريق التجارة القديمة، صلة الوصل بينها وبين الداخل. وربما كانت جهود ملوك الآراميين المتكررة والناجحة لنقل حدود سيطرتهم في الجليل الشمالي نحو الجنوب بعض الشيء، قد أدّت إلى حماية طريق المواصلات هذا.

في حين نعرف تفاصيل متنوعة حول علاقة صور بالدول المجاورة لها، تبقى روابطها بالمدن الفينيقية الأخرى مجهولة. مهما يكن من أمر، كانت صور القوة القائدة بين مدن لبنان في عصر الاستقلال، بحكم موقعها الملائم وثروتها التي جنتها من روابطها فيما وراء البحار، مثلما كانت جبيل قبلها قوة قائدة، وصيدا لوقت قصير كذلك. غير أن صور الغنية كانت قليلة الحصانة داخلياً، شأنها في ذلك شأن جارتيها آرام ومملكة بني إسرعيل. يبدو هذا واضحاً من حقيقة أن ثلاثة من الملوك الخمسة الذين حكموها خلال الأعوام السبعة والأربعين الواقعة بين موت حيرام وصعود إيتوبعل إلى سدة الملك، قتلوا على يد من خلفوهم. وأن استقرار المدينة لم يتحقق إلا في عهد الأخير، الذي أتاح لها فترة طويلة من الازدهار، بالرغم من هجمات الآشوريين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرجوان، زجاج وفن البرونز

«تحدث زبولون إلى الكلي القدرة (ليتمجد هو) لإخوتي أعطيت أرضاً زراعية؛ أما لي فأعطيت بحاراً وأنهاراً فقط! لكن هو تحدث إليه: «لكنهم سيكونون جميعهم تابعين لك بسبب القوقعة الأرجوانية».[1]

لم تكن صناعة الأرجوان الحرفة الأقدم بين حرف المدن الفينيقية الشهيرة. لكنها كانت بالتأكيد الحرفة الأكثر إثارة للاهتمام وربما الأكثر ريعية في الوقت نفسه. ولم تمتلك مدن لبنان لحكر استخراج الأرجوان في أي وقت، بل كانت قواقعه المختلفة واسعة الانتشار في البحر الأبيض المتوسط (شكل 22) حيث شاع استخدامها في تلوين الأقمشة منذ الأزمنة ما قبل الفينيقية. ثم تكفل الفينيقيون، في طور لاحق، بنشر حرفة الصباغة باللون الأرجواني في مستعمراتهم على الجانب الآخر من سواحل هذا البحر. وإذا كان أرجوان المدن الفينيقية الواقعة على الساحل اللبناني قد اكتسب شهرة خاصة، فذلك يرجع إلى نوعيته ومهارة صناعه الذين برعوا في إنتاج أطياف خاصة من ألوانه، وإلى ارتباطه بصناعة نسيج قديمة بلغت من التطور حداً جعل منتجاتها مرغوبة في كل مكان، وخاصة أقمشتها الصوفية الناعمة.

1. التلمود البابلي، مجلّوت، الجزء 6 أ، والترجمة عن النص الألماني (م. ك).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

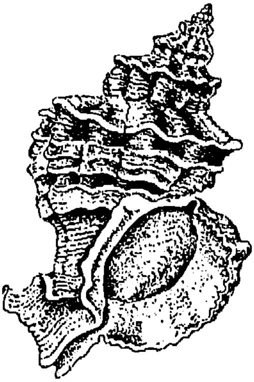

الشكل (22):
قوقعة ارجوان.

اتسمت عملية استخراج مادة الأرجوان اللونية النفيسة بالتعقيد، وهي عملية يصفها لنا الكاتب الروماني بلينيوس الأكبر (23 - 70 م) في كتاب **تاريخ الطبيعة**. بادئ ذي بدء، كان لا بد من اصطياد قواقع بحرية حية بواسطة قفص شبيه بقفص صيد الأسماك يزود بطعوم من اللحم والمحار. بعد اصطيادها، كانت محارات القواقع تفتح لانتزاع الكتل الغددية الصغيرة المتوضعة في اللحم الخارجي لتجويفها التنفسي، حيث يوجد إفراز مائل إلى البياض هو مادة الصباغة الأولية. لاستخراج هذا السائل، كانت الكتل الغددية، ولدى القواقع الأصغر كانت الأجسام كلها، تسحق في معاصر حجرية تترك بداخلها طوال أيام ثلاثة، مع إضافة الملح إليها من حين لآخر لحفظها. بعد هذا، كانت تتم عملية تصفية وتركيز السائل بغليه طوال عشرة أيام في قدور معدنية توضع على نار هادئة. ثم كانت المادة المطلوب صبغها تنقع في المادة الملونة المائلة إلى البياض، قبل أن تجفف في الشمس إلى أن يتشكل اللون الأرجواني تدريجياً تحت تأثير ضوئها. وكان الصناع يبلغون تدرجات لونية تقع بين الأحمر العاتم والبنفسجي الغامق المائل إلى السواد من خلال المعالجة والتركيب المتنوعين للمادة الأولية، وكذلك النقع المتكرر وغيره من المعالجات الحرفية الفنية. كان صوف الغنم يصبغ قبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغزل والنسج، في حين كان الأمر يتعلق بأنسجة مستوردة جاهزة عند صباغة الكتان المصري الناعم (المسمى بِسوس) وكذلك الحرير القادم من الصين في مرحلة تالية.

كمنت القيمة العملية للأنسجة الأرجوانية اللون في مقاومتها للضوء، وتحملها الغسل قبل كل شيء:، فالأقمشة الأرجوانية اللون ذات المنشأ البيلوبونيزي[2]، التي غنمها الإسكندر الأكبر في سوسة، ويزعم أن قيمتها بلغت 130 طالِنت (حوالي 27 مليون فرنك ذهبي) كانت ماتزال طازجة ومتألقة الألوان، رغم أنها كانت منذ مئة وتسعين عاماً في مخازن ملوك الفرس. والحال، أن الأقمشة الأرجوانية اكتسبت قيمتها من وقت العمل الطويل الذي وظف في إنتاجها، وفرضتها قلة ومحدودية المواد الخام الضرورية لصبغها. ذلك أنه كان يبقى حوالي ستين غراماً فقط من المادة الملونة عند تبخير كيلوغرام واحد من السائل الخام، مع أنه كان يلزم لصبغ كيلوغرام واحد من الصوف مئتا غرام من المادة الملونة، أو ثلاثة كيلوغرامات من إفرازات الغدد، علما بأن كتلة غدد القوقعة كانت تزن غرامات قليلة فقط، وأن مادتها الملونة كانت تشكل جزءاً صغيراً وحسب من وزنها. بسبب هذه الندرة، كانت أسعار السلع الأرجوانية مرتفعة جداً على الدوام، فكان الكيلوغرام الواحد من الصوف المصبوغ باللون الأرجواني يكلف ألفي دينار (حوالي 1600 فرنك ذهبي) إبان حكم القيصر أغسطُس، بينما بلغ سعر أرخص سلعه مئتي دينار. وفي مرسوم أصدره القيصر ديوقليطين عام (301 م) يحدد السعر الأعلى لنصف كيلو غرام من الحرير الأرجواني بمئة وخمسين ألف دينار، وهذا مبلغ هائل حتى إذا ما أخذنا بالحسبان انخفاض قيمة العملة المتواصل. في الواقع، كان سعر صوف صور الأرجواني من النوع الأفضل يصل إلى خمسين ألف دينار،

2. اسم أحد أقاليم اليونان (ز.م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينما كان يدفع في نصف كيلو من أحسن أنواع الصوف القرمزي ألف وخمسمئة دينار فقط، وهو مبلغ يكفي لشراء قميص عسكري من أفضل نوعية ويمثل المتوسط الشهري لدخل عامل موصوف. هل من الضروري التذكير بأن سعر نصف كيلو غرام من القضبان الذهبية كان بحدود خمسين ألف دينار فقط، وأن النوعيات الأفضل من أرجوان صور كانت أغلى من وزنها ذهبا؟

بسبب أسعاره، كان الأرجوان ثياب الملوك، وأصحاب المناصب العليا والأغنياء. يقول العهد القديم إن أردية الأرجوان كانت تستخدم لباساً للملوك (سفر القضاة 8:26) وإنها كانت ثياب الآلهة في صور (سفر إرميا 10:9) وأردية صلوات يرتديها الكهنة (سفر الخروج 28:29). كما كانت علامة تفويض ملكي للموظفين (سفري حزقيال 23:6 وأستير 8:15) واستخدمت في صنع أغطية للأدوات المستخدمة في طقوس العبادة، وستائر للمعابد (سفرا العدد 4:6 - 8 وأخبار الأيام الثاني 3:14) مثلما كانت محفة سليمان الفخمة، المصنوعة من أرز لبنان، مزودة بوسائد من الأرجوان (نشيد الإنشاد 3:10). ويحدثنا هومير وأوفيد بدورهما عن أسِرّة ومقاعد مكسوة بالأرجوان. كما تزايد بذخ الأرجوان في العصر الروماني - الإغريقي، فسخر هوراكِه في إحدى قصائده من حديث نعمة يأمر لشدة بطره بمسح موائد الطعام بمناشف من الأرجوان. مع ذلك، يخاطب أوفيد المجرب النسوة المترفات المغرمات بالبدع، قائلا: «لا أريد ثياباً غالية الثمن / لا أريد أصوافاً مصبوغة بأحمر قواقع صور / لأنه يمكن الحصول على ألوان أخرى بأسعار أرخص / لا تكوني مجنونة تحمل ثروتها كلها على جسدها».[3] من المشكوك فيه أن تكون هذه النصيحة قد لاقت القبول، لأنه (حتى المرأة القديرة) التي نعرف صورتها

3. Ovid, *Ars amandi III*, 169 ff.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المثلى في كتاب حكم سليمان، لا تزهد في رداء من البِسوس (الكتان المصري الناعم) والأرجوان (سفر أمثال 31:10).

بقي استخراج الأرجوان على سواحل الفينيقيين حرفة مربحة حتى مطلع العصر الوسيط، رغم تعاظم منافسة الألوان الأخرى الأرخص في زمن روما. وربما كانت بعض القوانين الأشدّ صرامة التي أصدرت لحماية (الأرجوان القيصري) قد أضرّت بالحرفة، لما حملته من مخاطر بالنسبة لممارسيها ـ فثمة إخبارية وجهت عام (353 ق. م) إلى القيصر قسطنطين تنبئه أنه «نسج سراً رداء قيصرياً في صور».[4] مثل هذه الوشايات عادت على نساج الأرجوان بالسجن والتعذيب، كما يخبرنا التاريخ في وقائع لاحقة، وإن كان الأسقف الغالي أبْلّينارُوس مُودِستُس الصيداوي (حوالي 428 - 488 م) يذكر في نشيد تعليمي أن أرجوان صور يحتل رأس قائمة السلع التي تصدر إلى روما.

لم تخلف صناعة الأرجوان الفينيقية غير آثار قليلة، ويبدو أن البحر استعاد القسم الأكبر من مخلفات الصباغين في صور. وإن كان مايزال بوسعنا إظهار الإعجاب حيال تل هائل من قواقع الأرجوان في صيدا، طمرته الأيام أول الأمر تحت إحدى الشرائح الأرضية، وتحول اليوم إلى مقبرة تحتها مئتا ألف متر مكعب من مخلفات القواقع الأرجوانية. إن وقوعه الذي يثير الاستغراب إلى الجنوب مباشرة من أكروبوليس صيدا، يجعلنا نتفهم تظلمات أبناء العصر القديم من الإزعاج الذي تسببه روائح صناعة الأرجوان الكريهة.

قدم البحر أرضية ملائمة لنشوء حرف أخرى عرفتها مدن لبنان الفينيقية، كحرفة صيد الأسماك، التي كانت أكثر أهمية في العصر القديم منها في أيامنا. يخبرنا نحميا في الإصحاح (13:15) من السفر الذي يحمل اسمه عن

4. Ammianus Marcellinus XIV, 7, 20.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجود قوم من صور في أورشليم العصر الفارسي يبيعون الأسماك وسلعاً أخرى. فضلاً عن أن تصدير السمك تطلب استخدام مواد تحفظه، كان أهمها في العصر القديم الملح، الذي يعتبر واحدة من أعطيات البحر، تستخرج حتى في أيامنا بطريق التبخر، من مَمالح موجودة بكثرة بين البترون وطرابلس، حيث تتناثر في أماكن أخرى من الشاطئ بقايا مواقع استخراجه القديمة.

«ها أنا أُرسِلُ إليك رَجلاً ماهراً فهيماً اسمه حُرام... وهو خبير بصناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب والأرجوان والسمنجوني والكتان والقرمز، وماهر في النَّقش وكُلِّ ما يُطلب مِنهُ...» ـ إن المهارة الاستثنائية لهذا الرجل، الذي يرسله حيرام ملك صور إلى سليمان بناء على رجائه، كما يقول الإصحاح (2:12 ـ 13) من سفر أخبار الأيام الثاني، هي مبالغة كلامية نشأت من قصة أقدم وأبسط وردت في (سفر الملوك الأول 7:13) تقول إن الخبير الآتي من صور يتقن حرفة صنع البرونز دون غيره. أما ما يعزوه الكاتب له من مؤهلات، فهو بالأحرى محض جدول بمهن صور وفينيقيا عموماً؛ لذلك لا تذكر فيه صناعة الزجاج، الوليد المتأخر بين الحرف الفينيقية، الذي لم تعرفه صيدا قبل القرن السابع قبل الميلاد، وإن صارت في فترة تالية ذات شهرة مدوية فيه، بعد أن سيطر منتجو الزجاج المصريون قرابة ألف عام على سوقه. ينسب العالم بْلينيوس اكتشاف تصنيع الزجاج إلى طاقم سفينة فينيقي كان قادماً من مصر بشحنة من قطع الصودا، نزل إلى البر في منطقة عكّا ليعد طعام الغداء. ولأنه لم يكن على الشاطئ أي شيء غير الرمل، فقد أخذ بعض رجاله قطع صودا عن ظهر سفينتهم ليضعوا عليها قدر الطهي. «عندما سخنت القطع وتفاعلت مع رمل الشاطئ، نشأ سائل شفاف من نوع جديد. هكذا، كما يقول العالِم، نشأ الزجاج».[5] تلمح هذه الأقصوصة

5. Plinius, *Naturalis historia* 3665.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجميلة بصورة غير مباشرة إلى ارتباط صنع الزجاج بمصر. أما سترابو، فيقول إن الرمل شديد القساوة، المستخدم في مصاهر زجاج صيدا، كان يجلب من الشاطئ بين عكّا وصور. هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن بقية مناطق الشاطئ الفينيقي كانت تخلو من الرمل المناسب. فضلاً عن صيدا، وجد إنتاج الزجاج مواقع له في صور وبيروت والصرفند، الحالية. وإن كان لم يصبح كبير الأهمية إلا في العصر الروماني، بعد أن اكتشف في صيدا، كما يعتقد، فن نفخ الزجاج. وبلغت صناعته درجة من الإتقان دفعت مؤلف سفر أيوب (أيوب 28:17) إلى مساواته بالذهب، رغم أن انخفاض أسعاره نتيجة لتوسع صناعته في فينيقيا أدى إلى استعماله في إنتاج أوعية متنوعة تستخدم في تلبية متطلبات الحياة اليومية. دخلت صناعة الزجاج في وقت مبكر إلى روما وإقليم الغال، حيث توطن خبراء صيداويون أساساً فيهما. لذلك يصعب الجزم بأن الأقداح الزجاجية التي تحمل تواقيع معلمي حرف صيدا، والتي نجدها في كل مكان من حوض البحر الأبيض المتوسط وفيما وراءه أيضاً، هي من صنع حرفيين مقيمين فيها. ليست صناعة الزجاج الشهيرة في مدينة البندقية سوى ابنة لفن صناعة الزجاج في صيدا. وإذا كان صعودها قد أدى إلى انحدار ورش مدن فينيقيا الساحلية، فان هذا لا يعني أن زجاج صيدا وصور لم يتمتع بأعلى قدر من التقدير حتى في أثناء الحروب الصليبية، بدلالة بقايا أفران صهر الزجاج من العصر الروماني والبيزنطي، التي نعثر عليها في مواقع مختلفة من الساحل بين صيدا وصور، وتلك التي كشف البحر عنها قرب مدينة الصرفند، وأظهرت مجاريف المنقبين بعضها الآخر في خرائب صور القديمة. أما بقايا الزجاج في هذه الأفران (المصاهر) فقد كان لها لون محكم، نقي جداً، يسمح بمرور الضوء من خلاله دون أن يعكسه.

تقدم المصادر الأدبية واللقى الأثرية معلومات شحيحة حول التطور اللاحق لفن البرونز، ولتصنيع المعادن عموماً، في الحقبة الواقعة بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاستقلال والعصر الروماني. ويمدنا العهد القديم بأوفى عرض حول مهارات صناع المعادن من صور في سياق التقرير الذي كثيراً ما استشهدنا به حول التجهيز الداخلي لهيكل أورشليم (سفر الملوك الأول 6) والذي يتفق مع ملاحظات هومير حول المعالجة الفنية الراقية للمعادن الثمينة والبرونز على يد أبناء صيدا والفينيقيين عموماً. يلح هومير[6] إلحاحاً خاصاً على الجرار الفضية «المصنوعة بطريقة لا تجارى»، على يد هِفايستُس، ويتحدث عن جرة فضية مطلية بالذهب «تبز في روعتها جميع جرار الأرض، صناعها من فناني صيدا المهرة».[7] تقدم فكرة عن روعة الحفر على هذه الأعمال الفنية، الآنية الفضية والبرونزية التي تم العثور عليها في قبرص بالدرجة الأولى (شكل 23) وكذلك في بلاد ما بين النهرين (نِمرود) ومواقع حفريات أخرى. هذه الأعمال ذات أصل فينيقي مؤكد، يحمل بعضها علامات ملكيتها بخط ولغة فينيقيين. وربما كانت آنية الشراب التي تم إخراجها من نِمرود قد جاءت من مدن فينيقيا البرية، في حين ترجع لقى قبرص إلى فناني الجزر الفينيقية، الذين خضع إبداعهم لمؤثرات إيجية واضحة (شكل 24). تظهر الأعمال الفنية الفضية والبرونزية، المنحدرة من فترة ما بين عامي (800 و 600 ق. م) وتم التعرف عليها حتى الآن، الأسلوب المختلط نفسه الذي يمكننا ملاحظته في لقى جبيل، المصنوعة خلال الألف الثاني قبل الميلاد، مع تنوع أكبر في المؤثرات التي تعرضت لها، وخاصة الآشورية منها. بيد أن الفنانين الفينيقيين نجحوا نجاحاً يثير الإعجاب في دمج نماذجهم ذات الأصول المختلفة في تأليف منسجم بذاته. وتشهد على مقدرة صناع المعادن منهم، وعلى انتشار أعمالهم في لبنان، تماثيل الآلهة المصنوعة من البرونز، وتقدمات القبور الغنية التي تم اكتشافها من العصرين الفارسي والبيزنطي

6. Homer, *Odyysee* IV, 615 ff; XV 115ff..

7. Homer, *Ilias* XXIII 743f.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بخاصة، إلى جانب لقى صغيرة متناثرة هنا وهناك. من المحال الحديث عن المنتجات المميزة لفن البرونز في مرافئ لبنان دون التعريج على صناعة نماذج السفن التي كانت، في الوقت نفسه، مصدراً مهماً لمعارفنا حول تطور بناء السفن الفينيقية.

الشكل (23)، رسم صحن قبرصي ـ فينيقي. يظهر في وسطه الفرعون المصري وهو يضرب أعداءه. في الدائرة الوسطى رسم الحيوان الخرافي يدوس على الأعداء. في الدائرة الخارجية رسم المحاربون وهم يقاتلون الأسود والتنينات (تأثير بلاد ما بين النهرين). تذكر هذه الرسومات برديف لها في مصر وبلاد الرافدين (بس / غلغامش)، وكذلك بأيقونات خرافة هرقل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بخلاف صناعتي الأرجوان والزجاج، لم يكن فن البرونز في لبنان القديم يستطيع الاعتماد على مواد خام محلية. ثمة إشارة غير أكيدة إلى صهر خام النحاس يشير إليها، كما يبدو، اسم مدينة خَالقِس (مدينة النحاس / «مجدل عَنْجَر») في لبنان الأدنى، أو مدينة (صوبة) المذكورة في العهد القديم، التي ربما كان من الضروري البحث عنها في نواحي عَنْجَر الحالية. يخبرنا العهد القديم في الإصحاح (8:3 ـ 5) من سفر صموئيل الثاني عن نصر أحرزه داود على هدد عزر ملك صوبة، الذي قدم أتاوة لملك القدس

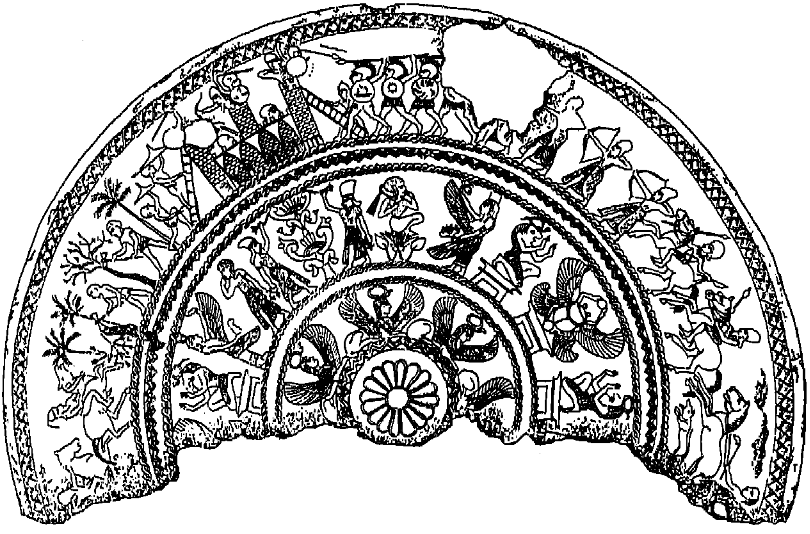

الشكل (24): صحن قبرصي ـ فينيقي منقوش عليه رسوم موضوعات مصرية وآشورية وإغريقية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينها «الكثير من البرونز[8]» (سفر صموئيل الثاني 8:8) فهل كانت كميات البرونز المذكورة مستوردة؟ مهما كانت الإجابة، فان هناك ما يؤكد، بهذا القدر أو ذاك من اليقين، وجود آثار لمناجم نحاس في لبنان، وكذلك وجود القصدير الضروري لإنتاج البرونز والنحاس في نهر إبراهيم ووادي فِدار، وإن كنا لا نعرف إن كان استخراج خامه ريعياً، أو إن كان قد استغل بالفعل في أي وقت. ثمة، بالمقابل، قرائن على أنه تم استخراج وصهر خام الحديد، أقله منذ القرن السابع قبل الميلاد. وقد وجدت بصورة خاصة مخزونات سطحية من كتله الخام (الليمونيت)[9] في إقليم المتن، عند المجرى الأعلى لنهر الكلب، حيث تبرز إلى السطح الشريحة الدنيا من الحجر الكلسي، وتم العثور على آثار قديمة لنشاطات منجمية، وإن كنا لم نتمكن من تحديد زمنها. تتجلى أكثر الشهادات التي يمدنا العصر القديم بها حول تعدين الحديد في لبنان في قسيمتين مكتوبتين بالخط المسماري، تشيران إلى إرسال مواد خام، استقدمها عامي (550 / 549 ق. م) من ساحل البحر الأبيض المتوسط شخص اسمه إدينا ـ أخو، سكن مدينة أورُك في بلاد ما بين النهرين. هاتان القسيمتان تذكران صوف الأرجوان وحديد لبنان، بوزن مئة وتسعة وعشرين كيلوغراماً لكل منهما. ويبدو أن هذا الحديد لم يكن من نوعية جيدة، لأن حديداً آخر استورده إدينا ـ أخو نفسه من قبرص بسعر يعادل ضعف ثمنه تقريباً.

يشبه تطور نحت العاج، الذي كان قديماً واعتمد بدوره على مادة مستوردة، تطور فن البرونز الفينيقي. فقد بلغ من جانبه أعلى انتشار له في عصر فينيقيا الذهبي، وآلف بين مؤثرات مختلفة الأصول أوصلها إلى حال من التناغم الكامل. لم يظهر إلى اليوم غير نماذج صغيرة محطمة من فن نحت العاج الفينيقي، الذي كان شائعاً في مدن لبنان بين القرنين التاسع

8. في النص العربي المعتمد «النحاس» (ز.م).
9. أي أكسيد الحديد المائي (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسابع قبل الميلاد. بما أن أعمال العاج حملت في الغالب علامات ونقوشاً بخط ولغة فينيقيين، فإنه لا يساورنا أي شك في الأصل الفينيقي لذلك العدد الكبير منها، الذي عثر عليه في فلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين. ويبدو أن فناني فينيقيا جنحوا إلى التخصص في المجالات المختلفة لتزيينات الأثاث المنزلي، التي بقيت أجمل نماذجها سليمة في نِمرود قبل كل شيء، حيث جاءتها مع الغنائم السورية التي استولى عليها سَرَغون الثاني. وتظهر ألواح العاج التي وجدت في أرسلان طاش في شمال سورية وإقليم سمر الأسلوب الفني نفسه. وقد اكتسب «مخدع[10] العاج» (سفر الملوك الأول 22:39) في قصر الملك أحاب اسمه من أثاثه الداخلي. هناك، على كل حال، أدلة تؤكد أن قسماً من نماذج هذه الأعمال الفنية الفينيقية الصغيرة صنع في الداخل السوري، وبالذات في حَمَت (حماة) حيث كان المصدر الأكثر أهمية للعاج الخام، أعني منطقة تجمع الفيلة السورية في وادي العاصي والفرات الأعلى، التي توطن فنانو العاج الفينيقيون فيها، وإن وجدت آنذاك في حماة ورش أخرى تصنع أعمالها بأسلوب مغاير لذاك الذي صاغته التقاليد الفينيقية.

10. في النص العربي المعتمد «بيت» (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجارة، بناء سفن ومستعمرات

«... قرطاجنة، مسكن زراع من صور، غنية بممتلكاتها وبارعة في حرفة الحرب القاسية.»[1]

ارتبط صعود موانئ لبنان إلى مواقع تجارية قائدة في العالم القديم خلال الألف الأولى قبل الميلاد بعوامل مختلفة للتطور السياسي والاقتصادي العام، كان استغلالها الماهر مأثرة من مآثر التاجر الفينيقي. وتؤكد كلمات العهد القديم ضد صور (حكمة) أمرائها، في سياق حديثها عن ثرائها (حزقيال 28:3 - 4). وقد بز الفينيقيون معاصريهم في الاستغلال العملي للظروف الاقتصادية، إلى أن صار التبادل التجاري العادي، والحصول على سلع المناطق الأخرى بواسطة فائض منتجاتهم الأصلية، قاعدة راسخة لاقتصاد المدن الفينيقية الخارجي أيضاً. بدوره، ساعد الموقع الجغرافي الملائم للمواصلات في زيادة أهمية تجارة الفينيقيين البينية، التي ارتبطت، مع ذلك، بمخاطر أكبر وغدت مصدراً لدخل مربح، ما إن كانت تحتكر مناطق معينة، كما حدث إبان عصر فينيقيا الذهبي. عرف الفينيقيون كيف يطورون قبل كل شيء حرفاً كثيفة الصادرات كصناعة الزجاج والنسيج، أو كفروع تصنيع المعادن المختلفة العاملة من مواد خام مستوردة رخيصة الثمن. وفهموا كذلك كيف يكيّفون أنفسهم ببراعة مع متطلبات السوق، على غرار ما يفعله عادة منتج، هو، في الوقت نفسه، تاجر. فلم يتخصصوا في إنتاج سلع نوعية مرتفعة الأثمان وحسب، بل قدموا كذلك عرضاً سلعياً متنوعاً يغطي

1. Vergil, *Aeneis* I, 13f.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حاجات عموم الناس. وأنتجوا سلعاً رخيصة جداً يرجح أنها قامت على المحاكاة والتقليد، بيعت إلى جانب أقمشة الأرجوان النفيسة. كما عرفوا كيف يزيدون تصريف منتجاتهم بالبحث عن أسواق جديدة وفتحها. واستخدموا، أخيراً، خبراء يعملون في الخارج لإدارة شكل من أشكال الاقتصاد الخارجي.

إن نشاطاً اقتصادياً على هذه الدرجة من التنوع والشمول كان يزدهر ما إن تتوافر له أعداد كافية من وسائط نقل خاصة به. لكن مدن الفينيقيين اضطرت للاعتماد على وسائط نقل أجنبية بالدرجة الأولى في تجارتها مع الأجزاء الداخلية من الشرق الأدنى، فكانت تشتري، في أحسن الأحوال، خدمات قوافل مستأجرة. لذلك، لم تحصل هنا على أرباح إضافية تستحق الذكر من النقل البري لسلعها. يضاف إلى هذا أن الفينيقيين لم يكونوا يسيطرون بأنفسهم على طرق المواصلات، التي كانت خاضعة لشركائهم التجاريين، فكانوا يتركون أعمال ومخاطر النقل لزبائنهم، ولمن يوردون لهم ويشترون منهم. أما النقل البحري فكان مختلفاً كل الاختلاف، إذ كانت شواطئ البحر الأبيض المتوسط القريبة والبعيدة مفتوحة أمام الفينيقيين. صحيح أنه كانت للمواصلات البحرية أخطارها، لكن الموانئ الفينيقية استطاعت المحافظة على حد معين من نشاطها، بقصر الملاحة على فصول ملائمة ومخر البحر على مقربة من الساحل. وعلى كل حال، فإن المخاطر كانت قليلة هنا بالقياس إلى مكاسب التجارة الكبرى، التي كانت تمكن المصدرين والمستوردين من زيارة زبائنهم دون إجبارهم على دفع جزء من عائداتهم إلى وسائط نقل أجنبية. وكان هؤلاء قادرين على التحرك بسرعة، يستطيعون في أثناء أسفارهم التجارية التكيّف في وقت قصير مع حالة السوق، أو البحث عن أسواق جديدة، وذلك جعل من التجارة عبر البحار مصدر ثراء دول المدن الفينيقية. فقد «ملأ سكان المدن البحرية» و«البحارة» صور بالسلع، وجعلوا منها «متجر الأمم»، كما يؤكد حزقيال تأكيداً خاصاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطابع البحري لصور كقوة تجارية: فالمدينة تقع عند «مداخل البحر»، بل إن تخومها «في قلب البحار» (سفر حزقيال 27:3 - 4). و«بخروج بضائعك من البحار أشبعتِ شعوباً كثيرين، وبكثرة ثروتكِ وتجارتكِ أغنيتِ ملوك الأرض» - (سفر حزقيال 27:33).

بفعل التوجه البحري للتجارة الفينيقية، واكبت الملاحة الصعود الاقتصادي، فامتلكت مدن لبنان أسطولاً تجارياً خاصاً زمن المملكة المصرية الجديدة. ثم استأنفت بناء سفن الشحن بسبب غياب (سفن جبيل وكريت) المصرية في العصر الوسيط الثاني، التي كانت تتكفل فيما مضى بنقل القسم الأعظم من مبادلات شرق البحر الأبيض المتوسط. وقد تأثرت سفن صور كما تأثر سكان ساحل الشرق الأدنى في عهد السلالة الثامنة عشرة أيما تأثر بنموذج السفن المصرية، الذي كان قدوة تحتذى بالنسبة لها، قبل أن تعرّفها هجرات عناصر سكانية من بحر إيجة على نماذج أخرى من السفن، لها قدرة على الإبحار وثبات في البحر أفضل بكثير من قدرة وثبات مثيلاتها المصرية. لذلك، لم يعد هناك من سبب للاحتفاظ بتصميم السفن المصرية، خاصة أنه لم يكن هناك من ضرورة للاقتصاد في خشب بناء السفن، بعد أن صار بالإمكان بناء سفن لها سطوح مرتفعة وقدرة كبيرة على الشحن والنقل. وقد اختلفت السفن الفينيقية عن مثيلتها المصرية في أشرعتها أيضاً. ففي التقليد الإيجي الأقدم، الذي يظهر في صور مصرية لسفن (شعوب البحر) كان الشراع يرفع إلى أعلى بدل أن ينزل إلى أسفل، عندما كان لا يستخدم.

تقدم لنا المصورات الآشورية بعض المعلومات حول شكل السفن الفينيقية في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، فنشاهد نموذجاً واسع الانتشار من سفن تجارية دون سطح، تحركها صفوف من المجاديف وتنتصب وسطها صارية تزود عند اللزوم بشراع بسيط. أما مقدمة السفينة ومؤخرتها المتجهتان إلى الأعلى في صورة قوس عريض، فتنتهيان إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجسّم خشبي على شكل رأس حصان. ثمة تشابه كبير يثير الانتباه بين هذه السفن وسفن (شعوب البحر) التي يرجح أن الشعوب الإيجية، التي استوطنت الساحل الشرقي للمتوسط في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، هي التي أدخلتها إليه. إنه نموذج السفن الذي استخدمه أبطال هومير والذي يذكّر بصور قديمة لسفن كريت. لا يتحدر رأس الحصان المزخرف بدوره من تقاليد الشرق الأدنى، وإن تحدث هومير عن «سفن سريعة يطوي الرجال عليها البحر الكبير كما لو كانوا يمتطون مهوراً».(2) هذا النموذج من السفن الإيجية كان أول الأمر سفينة حرب عادية لدى الفينيقيين، ضم أكبر أنواعه خمسة وعشرين مجدافاً على كل جانب، فأسماه الإغريق فيما بعد سفن (الخمسين مجدافاً). وكانت السفينة الأقوى في الأسطول الفينيقي مجهزة بمنخس للدك والثقب، يمكن اعتباره اختراعاً فينيقياً بدوره. في حين كان طاقم التجديف يجلس على صفين في القسم السفلي من السطح، بينما يجلس جنود البحر في القسم الأعلى، المفتوح منه، وتروسهم المستديرة معلقة على الجزء الخارجي من سور السفينة، المصنوع من قضبان الحور. إلى جانب هذا النموذج، كان هناك سفينة حربية أخف، لها بدورها صفان من المجاديف، يجلس جنود البحر على سطحها الخارجي أيضاً، لكنها بلا أشرعة ومنخس دك وثقب. كان لنموذج السفينة الفينيقية السائدة في العهد الفارسي ثلاثة صفوف من المجاديف. لزيادة سرعة السفن، وتمكينها من استخدام منخسها بنجاح، بنيت أيضاً سفن ذات أربعة أو خمسة صفوف من المجاديف (شكل 25).

كانت السفينة التجارية الفينيقية شراعية على الدوام، كما تدل الصور من زمن المملكة المصرية الجديدة. ويصور نقش وجد على تابوت حجري في صيدا من القرن الثاني للميلاد تطوير السفينة التجارية إلى سفينة بيع

2. Homer, *Odyssee* IV 708f.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

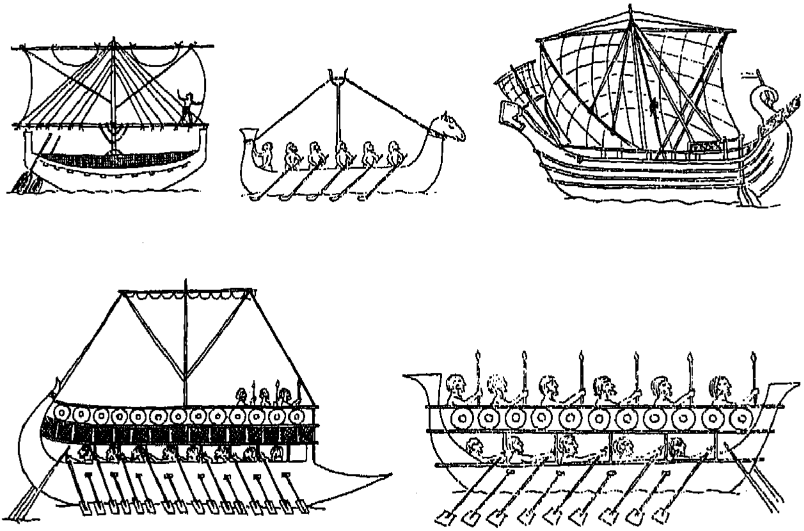

الشكل (25)؛ السفن الفينيقية. الصف الأعلى من اليمين إلى اليسار؛ سفينة تجارية من القرن 2 ق. م؛ سفينة تجارية من القرن 7 ق. م؛ سفينة تجارية من القرن 14 ق. م. في الصف الثاني، سفينتين حربيتين من القرن السابع قبل الميلاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضخمة، كانت، على نقيض وحدات البحرية الحربية المائلة إلى الطول، عريضة ذات بطن مكور وعنبر عميق للشحن، عزز جذعها الأمامي والخلفي المرتفع منظرها الدائري أصلاً. هذا الطراز ربما كان سلف السفينة التي أسماها الإغريق غَاوْلِي (دلو الحليب) وامتازت عن سفن المجاديف بقدرتها الأكبر على الحمل، وعلى مخر البحر، وبصغر عدد طاقهما، وإن كانت تبعيتها لحالة الرياح واحدة من عيوبها، لكن كان على سطحها عدد من البحارة يكفي لتحريكها بالمجاديف، في حالات الضرورة أو داخل المرافئ.

لم تكن السفن الفينيقية كبيرة الأحجام في عصر ما قبل فارس. ولم تكن حمولة أي منها تتخطى المئتين والخمسين طناً، بما في ذلك (سفينة ترشيش) الشهيرة بين منتجات صناعة السفن الفينيقية بحجمها الكبير وقدرتها على مخر البحر. وقد تقيد صناع السفن بتلك الأحجام المتواضعة بسبب صعوبة بناء سفن يزيد طولها على خمسين متراً،، فأوضاع المرافئ، التي كانت الطبيعية منها، الصالحة لأغراض السفن التجارية خلال الشتاء، صغيرة، وإمكانات توسيعها محدودة. لم تتجاوز مساحة مرفأ جبيل الداخلي، المحمي بتحصينات وبمكسر للأمواج، في أي وقت هكتاراً مربعاً ونصف الهكتار. يفسر هذا التواضع في حجم مرافئها إخفاق عاصمة لبنان القديمة في اقتناء أسطول تجاري أكبر، وسبب بقاء أسطولها متخلفاً. لم تكن ظروف الساحل اللبناني أفضل جوهرياً إلا في صيدا وصور. والحقيقة أن توسيع مرفأ صيدا الشمالي، القائم إلى اليوم، وتحويله إلى مكان رسو مغلق ومحمي من العواصف، لم يكن يتطلب غير القليل من أعمال البناء. كما قدمت مساحته التي تبلغ حوالي سبعة هكتارات ملجأ آمناً لأكثر من مئة سفينة متوسطة الحجم. حمى حكم حيرام الأول خليج مرفأ صور الشمالي من العواصف الشتوية ببناء كاسر أمواج هائل بلغ طوله مئتين وخمسة وعشرين متراً. في حين حمى المرفأ الجنوبي، الطولاني التكوين، مكسراً طوله سبعمئة وخمسون متراً، فكانت مساحته، التي زادت على خمسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عشر هكتاراً، أكبر بكثير من مساحة المرفأ الشمالي. كما كان المرسى الواسع إلى جنوب المرفأ الداخلي محمياً بدوره بمكسر أمواج بني من كتل حجرية ضخمة. هذا العمل المعماري، الذي بلغ طوله خمسة كيلومترات، امتد إلى مقابل موقع تل الرشيدية تقريباً، الذي تتم عادة مماهاته مع ما أسمته النقوش المصرية (أوشُو) وأطلق الإغريق عليه اسم (بَلايوتيرُوس) ويمثل أكثر قواعد صور العسكرية أهمية على البر. هذه الأحواض الكبيرة في صور، المزودة بتجهيزات تقنية متنوعة بينها حوض جاف، كانت مجهزة لاستقبال السفن الحربية في مراتب بعضها مسقوف. وعندما كانت تلك لا تتسع للسفن الحربية، فإن (الطويلة) منها كانت تسحب ببساطة إلى مواقع رملية على الشاطئ، لأن غاطسها لم يكن يتجاوز المتر الواحد.

كان الفينيقيون رواداً في فن الملاحة أيضاً، وكان لبحارتهم صيت ذائع بوصفهم أكثر أبناء مهنتهم معرفة وخبرة. وبالفعل، فإنهم كانوا أول شعب من (شعوب البحر) الأبيض المتوسط البحرية مارس الملاحة في أعالي البحار. وبما أن الإبحار ليلاً كان مصحوباً بمخاطر جمة، لاستحالة تحاشي الطرق البحرية الأطول والأبعد عن الشاطئ، تعلم الفينيقيون كيف يحافظون على اتجاههم بالاستعانة بنجم القطب. وكانوا يمخرون البحار قرب الشواطئ، لاعتقادهم أن سلامة طرق النقل أكثر أهمية من السرعة بالنسبة للملاحة التجارية. لم تكن سفن الشحن مستديرة البطن سفناً شراعية سريعة بأية حال. هذه الواقعة تزيد من احترامنا لإنجازات بحارة فينيقيا، الذين توغلوا عميقاً في غربي البحر الأبيض المتوسط وخرجوا في النهاية إلى المحيط الأطلسي. فهيرُدوت يخبرنا عن فريق فينيقي دار حول إفريقية بالسفن، بتكليف من الفرعون نِكُو (609 ـ 594 ق. م) ويقول إن هذه الرحلة استمرت ثلاثة أعوام، فلم يكن البحارة ينزلون إلى البر إلا في مطلع كل عام، كي يزرعوا القمح ويتموّنوا بمحصوله. أما هدف رحلتهم فكان اكتشاف طريق بحري يربط البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، بعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إخفاق بناء قناة بين النيل والبحر الأخير. لكن من الجلي أنه لم تترتب على الإبحار حول إفريقية أية نتائج عملية.

تقدم أوديسة هومير تفاصيل مهمة حول الملاحة الفينيقية. ومع أنها كتبت في مرحلة متأخرة، فان شِعرها عكس بدقة بيئة البحارة في الألف الثاني قبل الميلاد. تقول الأوديسة إن الملاحة خدمت هدفين بالدرجة الأولى هما: «هل لديكم عمل أو أنكم تتجولون دون هدف / هنا وهناك على البحر كقراصنة تجول مجاديفهم بالبر / يخاطرون بحياتهم كي ينهبوا ما لدى الأغراب؟».[3] في هذا النص، ليست القرصنة البحرية حرفة ماسة بالشرف، خاصة إذا مارسها الحاكم نفسه. لذلك يقدم أوديسيُوس المكار، المتنكر في ثياب شحاذ، نفسه كقائد سابق ظافر لأسطول صغير من سفن القراصنة.[4] بيد أنه ينقض إبان عودته إلى بيته من طروادة انقضاضاً فعلياً مع رجاله على إيزمارُوس الثراقي: «عندئذ خربت المدينة وأفنيت الرجال / لكننا تقاسمنا النسوة الزاهيات والكنوز جميعاً...».[5] بالمقارنة مع هذا السلوك، يبدو سادة السفن الذين يمارسون التجارة بسلام حانوتيين أدنياء، يلملمون أرباحهم بجهد جهيد، ولا يحصلونها كـ (ـ الفرسان) بالسيف،[6] بل إنهم لا يرفضون الصفقات الوضيعة في جملة ما قد يعقدونه من صفقات. يسوق هومير مثالاً على ممارسات الفينيقيين، «المشهورين بالملاحة والأفاقين في آن معاً»، يأخذه من قصة حياة ساوهِرتِن أويمّايُوس،[7] الذي كان مايزال طفلاً، عندما اختطفه تجار فينيقيون من قصر والده الملك بمساعدة أَمَة من أصل صيداوي مكلفة برعايته، وباعوه عبداً في إثاكا. مثل

3. Homer, *Odyssee* III, 70 ff; IX 253ff..
4. Homer, *Odyssee* XIV 230ff. XVII 425ff..
5. Homer, *Odyssee* IX 40ff..
6. Homer, *Odyssee* VIII 160ff..
7. Homer, *Odyssee* XV 414, ff..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الاختطاف لم يتكرر كثيراً، وإلا لعانته تجارة الفينيقيين البحرية. لكن هذا لم يمنع هيرُدوت، كثير الترحال، من أن يقدم في بداية تاريخه قصة مشابهة تقول إن الفينيقيين خطفوا إيُو ابنة ملك أرغوس، فانتقم بحارة إغريقيون باختطاف أوروبا ابنة ملك صور. ومع أن الفينيقيين نفوا، كما يذكر هيرُدوت، قيامهم بالاختطاف وزعموا أن إيُو تبعت بمحض اختيارها قبطان إحدى سفنهم، بعد أن أحبته وحملت منه، فإن المؤرخ الشهير يقول إنهم كانوا قادرين على إتيان أفعال تتسم بالمكر كاختطاف سيدتين من دائرة معبد أمون في طيبه، حسب ما رواه له كاهن مصري،[8] ويضيف: إن المسافر الذي كان يضع ثقته في قبطان فينيقي كان يتعرض لمفاجآت سيئة في بعض الظروف، بدليل القصة التي رواها أوديسيُوس، المتنكر في هيئة شحاذ، لابن الملك وراعي الخنازير المختطف على يد الفينيقيين أويمايُوس، وفيها أن مصيراً مشابهاً لمصيره كان يهدده هو شخصياً.[9] أما الأَمَة الصيداوية، التي ساعدت أبناء جلدتها لدى اختطاف ابن الملك، فإنها لم تصدق وعدهم بإعادتها إلى مدينتها وطلبت منهم أن يقسموا علناً على ذلك. حين يخبرنا محب الحكايات أوديسيُوس أشياء إيجابية عن البحارة الفينيقيين، نجده يقول: عندما حرفتهم الريح عن وجهتهم، وعجزوا عن إيصاله إلى هدفه المنشود، تركوه مع حقيبته... في ظروف مواتية... على الشاطئ.[10]

عموماً، لم يتصرف بحارة سفن العصر القديم بتأدب خاص مع الركاب. تذكّرنا بذلك رحلة النبي يونان البحرية وانتقال بولس الرسول إلى روما بحراً (أعمال 27:27). لكن سلوك بحارة فينيقيا لم يختلف عن سلوك غيرهم من الملاحين، الذين كانوا معرضين بدورهم لخطر فقدان ممتلكاتهم

8. Herodot, *Histories apodexis* II 54 - 56..

9. Homer, *Odyssee* XIV 287ff..

10. Homer, *Odyssee* XIII 272ff..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحريتهم، شأنهم في ذلك شأن ركاب السفن، لأن القراصنة كانوا يلطون لهم في مراسي السفن، ليأسروا من يبقى حياً منهم بعد تحطم سفينته ويبيعونهم في معظم الأحيان دون رحمة عبيداً.

من الضروري التمييز هنا بين بيع ظرفي لأشخاص أحرار وبين تجارة الرقيق (النظامية) التي مارسها الفينيقيون أيضاً، وأسهمت بدور كبير في ثراء مدنهم. يذكر حزقيال (سفر حزقيال 27:13) ويوئيل (سفر يوئيل 4:4 ـ 5) اليونانيين كشركاء رئيسيين لتجار العبيد الفينيقيين، ويسمي الإصحاح (1:9) من سفر عاموس أدوم كمشتر للعبيد من بني إسرءيل الذين كان أبناء صور يتاجرون بهم ويضيف أن هذا العمل كان يعدّ آثماً، لأنه ينتهك (حلف الأخوة) بين صور وبني إسرءيل. كانت حاجة المدن الفينيقية إلى العبيد كبيرة، فقد كانوا يشكلون فرق التجديف الكثيرة في سفنهم وأساطيلهم، بينما كان الحصول على الرقيق متاحاً على أفضل وجه في ساحات المعارك، حيث كان محاربو الجيش المنتصر يبيعون بسرعة غنائمهم من البشر والأشياء الثمينة. يصف سفر المكابيين الأول (3:41) وصفاً مشخصاً ظهور تجار العبيد خلال حملة الأنطاكي الرابع إيبيفانس ضد إقليم يهوذا عام (166 / 165 ق. م)؛ عندما علم (تجار المنطقة) بوصول الجيش، سارعوا إلى معسكره الميداني وقد تجهزوا أحسن تجهيز بالمال والغلال من أجل شراء العبيد.

كانت تجارة المفرق سمة ميزت تجارة الفينيقيين البحرية. و تقدم قصة حياة راعي الخنازير أويمّايوس في الأوديسة صورة حية عن هذا الجانب من العمل التجاري. محملة بسلع متنوعة جعلتها تشبه متجرا للبيع، ألقت السفينة التجارية الفينيقية بمرساتها في المرفأ. ولأن رحلة العودة كانت ستنتظر في جميع الأحوال حتى مطلع الصيف القادم، فإنه لم يكن ثمة داع لعقد صفقات متسرعة، فضلاً عن أن طول فترة الرسو كانت تغري حتى زبائن المناطق الداخلية النائية بالقدوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان نجاح هذا الشكل من التجارة البحرية رهناً بمصادفات عديدة. ذلك أن السفينة التي تقل حمولتها كثيراً عن مئتين وخمسين طناً لم تكن مكاناً ملائماً لأغراض تجارية تستمر نصف عام في مرافئ أجنبية. من أجل تخطي هذه الصعوبة، أسس الفينيقيون مراكز تجارية دائمة لها منافع عديدة، بينها استقبال وإيواء الحرفيين الفينيقيين، وتطوير خدمة الزبائن، وتقديم الحماية والتموين للتجار وطواقم السفن. كما أقام تجار فينيقيون في وقت مبكر مؤسسات تجارية على الشواطئ الأجنبية لتحقيق تلك المنافع ذاتها، تباينت في أهميتها وطابعها، كانت مهمتها العامة القيام بوظائف مكاتب تجارية يمكن أن يتشكل حولها بمرور الوقت حي فينيقي خاص في المدن الساحلية والداخلية التجارية الكبيرة. وأقيمت كذلك مؤسسات تجارية فينيقية على الشواطئ غير المستغلة، في أماكن الرسو الدوري للسفن، وفي الأراضي الخاصة التي كانت تشترى من السكان المحليين أو تستملك ببساطة لأنه لا مالك لها. وقد تطورت مؤسسات المناطق الغنية بالمواد الأولية إلى مدن شكل الفينيقيون قسماً من سكانها وشريحتها العليا، في آن معاً.

تعيدنا النقوش المكتوبة واللقى الأثرية، التي تشير إلى وجود المؤسسات الفينيقية في شواطئ أجنبية، إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. إذا ما غضضنا النظر عن التواصل المباشر بين مصر وممتلكاتها الآسيوية، وجدنا أن التجارة البحرية كانت قبل ذلك في يد المدن المكينية، التي انهارت سيطرتها البحرية خلال الأزمة الكبرى التي هزت العالم القديم عند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. لذا نعتقد أن تزاحم وتدافع العناصر الإيجية والأناضولية التي أسماها المصريون (شعوب البحر) في منطقة جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط، كانا نهاية حراك أكبر بكثير سبق لها أن عرفته. وبما أن مدن لبنان نجحت في تفادي ما رافق هذا الحراك من تدمير، فقد ورثت دور المدن المكينية، وزاد من قدرتها على لعب دورها الجديد توطن مجموعات من (شعوب البحر) فيها، أسهمت في تحصينها إلى فترة طويلة ضد أية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منافسة محتملة. هذا التطور تلازم مع انهيار المملكة الجديدة وخروج مصر من صف القوى البحرية لقرابة خمسمئة عام. في حين شاركت مجموعات (شعوب البحر) التي كانت قد استوطنت الساحل السوري / الفلسطيني غير الفينيقي، بفاعلية في الاتصالات البحرية، لكنها لم تكن في وضع يمكن مقارنته بأوضاع مدن لبنان، الأكثر قدرة على الإنجاز الاقتصادي، والأكثر خبرة في الأعمال التجارية.

ساعدت هذه الظروف الملائمة الفينيقيين على إقامة مستقرات بحرية وتأسيس مدن استعمارية في وقت مبكر، فنشأت مستقراتهم القبرصية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وتأسست، في الوقت نفسه، أوتِيكا (عتيقة) في شمال إفريقية، ثم تبعتها قادِس وتَرسِيس في أسبانيا خلال القرن العاشر قبل الميلاد، بينما نشأت قرطاجنة، أكثر المستعمرات الفينيقية أهمية، عام (814 ق. م). وهكذا، ما إن جاء مطلع القرن الثامن، حتى كانت تجارة ما وراء البحار وقسم كبير من ساحل البحر الأبيض المتوسط في أيدي فينيقية، في حين وصل التأثير الحضاري الفينيقي إلى مجالات أبعد، مع قيام مستقرات ومدن الفينيقيين المستنبتة في كل مكان، التي نشرت تقنيات حرفهم في محيطها، وأدخلت زراعة شجر الزيتون والكرمة إلى شمال إفريقية، وجعلت لغتهم لغة التخاطب في منطقة البحر الأبيض المتوسط. حتى إن المدن السورية والكيليكية، التي لم تعرف مستقرات فينيقية كبيرة في أراضيها، كانت تستخدم في كتاباتها الرسمية لغة وخط الفينيقيين، وتتبنى معتقداتهم الدينية وعباداتهم (شكل 26).

حافظت المدن الفينيقية على موقعها الاحتكاري في التجارة البحرية لفترة يثير طولها الذهول، ووسعته دون توقف أيضاً، وإن لم تنجح في ضم البحر الأحمر إلى إمبراطوريتها البحرية. لو كان لفينيقيا طريق بحري خاص إلى جنوب جزيرة العرب، لما اضطرت إلى نقل تجارتها بواسطة قوافل مرتفعة الكلفة تسير بمحاذاة ساحله، بعد أن تمر بمملكة سليمان، صديقة صور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

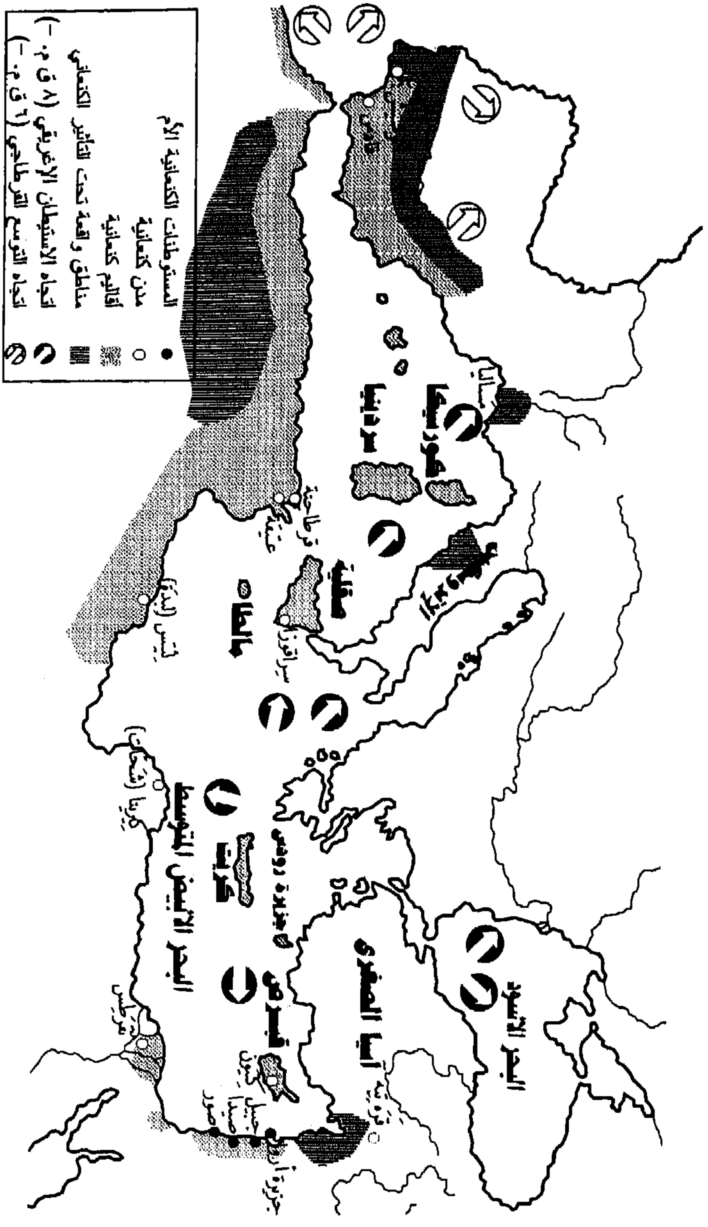

الشكل (26)، الكنعانيون في حوض البحر الأبيض المتوسط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المهتمة إلى أبعد حد بالوجه الاقتصادي من علاقتهما، وشريكتها في مشروع أوفير الذي تبناه الملكان حيرام وسليمان، وأورد سفر الملوك الأول أخباره بإيجاز في ثلاث ملاحظات غير متطابقة تماماً هي: (9:26 - 27، 10:11 و 22) تميل بوضوح إلى عزو أكبر قدر من العمل التنظيمي والأرباح المتحققة إلى سليمان، رغم أن دوره انحصر على الأرجح في تقديم الموانئ ومؤونة السفن وغيرها من التجهيزات، مقابل حق استعمال جزء من عنابر شحن السفن الفينيقية لأغراضه التجارية الخاصة. عندما أدّت انتفاضة حدد الأدومي، التي حدثت في حياة سليمان، إلى انتهاء سيطرته على مرفأ خليج العقبة، تعرض مشروع أوفير لموت مبكر.

لم تخل علاقة المدن الفينيقية الأم بمستعمراتها من تعارضات وتناقضات؛ فالأخيرة كانت تتطلع إلى تطوير نفسها كدول مدن مستقلة على غرار المدن الدول في أوطانها الأصلية. من جانبها، كانت للمدن الأم مصلحة في ربط مستعمراتها بها برباط وثيق قدر الإمكان، أجبرها على اتخاذ تدابير عسكرية ضدها بين حين وآخر. يخبرنا يوسيفوس فلافيوس أن حيرام الأول أرسل حملة تأديبية ضد واحدة من مستعمرات صور، يرجح أنها مستعمرة كِيتيُون القبرصية. ووجدت كتابات على آنية برونزية عثر عليها في ليماسول، يصف سيد قرت حدشت (المدينة الحديثة) القبرصية - الفينيقية فيها نفسه كخادم لملك صور حيرام الثاني، بعد أكثر من قرنين على قيام مدينته. أما قرطاجنة الأفريقية، فإنها لم ترسل فقط كل عام مبعوثين إلى أعياد صور، بل أدت أيضاً ضريبة العشور للمعبد الرئيس في المدينة الأم، وإن خفضتها فيما بعد تخفيضاً كبيراً. يبين مثال قرطاجنة بالذات أهمية الروابط الدينية بالنسبة إلى العلاقة بالمدينة الأم: وطن الآلهة التي كانت تعبد في كل مكان من فينيقيا. بدوره، كان النص المنقوش على آنية ليماسول محض كتابة دينية تمجد بعل لبنان. ومثلما عبدت المستعمرات آلهة فينيقيا، كذلك تمسكت بلغتها. على أن رابطة المصالح الاقتصادية لم تكن أقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ديمومة من رابطة الدين، إذ دمجت المدينة الأم بمستعمراتها، وذلك جعل عزلة المدن المستنبتة قاتلة لها، لأنها كانت ستؤدي إلى انحلالها الحتمي في محيطها. في طور لاحق، حين نشبت نزاعات مع قوى بحرية منافسة، صار بقاء المستعمرات دون علاقة وطيدة ببلدها الأم ضرباً من الاستحالة. هذه العلاقة المميزة بين المدينة الأم ومستعمراتها تحققت عبر تطوير نظام دول مدن مستقلة إلى حد بعيد، تتحلق حول المدينة الأم باعتبارها قوة سياسية وثقافية وعسكرية مسيطرة. وقد أثبت هذا النوع من الاندماج والتماسك، القائم على مصالح الطرفين، جدواه في حالات كثيرة. فعندما احتل قمبيز ملك الفرس مصر عام (525 ق. م) ثم أراد إخضاع قرطاجنة، رفضت دول المدن الفينيقية دعمه بأساطيلها. لكنه حدث أيضاً أن رجحت المصالح الخاصة المباشرة لهذه المستعمرة أو تلك في الأوضاع الحرجة جداً، مثلما حدث خلال النزاع الأخير بين روما وقرطاجنة (149 ـ 146 ق. م) عندما وقفت مجموعة مستعمرات فينيقية في شمال إفريقية إلى جانب الرومان، بينها مستعمرة أُوتيكا المهمة.

إذا ما تأملنا الأمور بمنظار اقتصادي، وجدنا أن أكثر مستعمرات الفينيقيين تأخراً كان أكثرها ريعية بالنسبة إلى المدن الفينيقية، ذلك أن المستقر الذي كان يتألف من مستعمرة واحدة، ويستغل فارق التطور الحضاري كي يمارس تجارة تبادلية مربحة مع السكان المتأخرين المحيطين به، كان يجني ربحاً مرتفعاً نسبياً يذهب إلى المدينة الأم دون غيرها. ومع اطّراد توسعه عبر هجرة مستعمرين وحرفيين وصناع يدويين، كان ميل المستقر إلى تأسيس جماعة خاصة يتعاظم، ويتعاظم كذلك طموحه نحو الاستقلال الاقتصادي واحتفاظه بنسبة متزايدة من أرباحه التجارية. عندئذ، كان تجار المدينة الأم يجدون أنفسهم مجبرين على البحث عن مناطق تصريف جديدة، بينما هم يغرقون أكثر فأكثر في وحول التنافس مع مدنهم المستنبتة، المهتمة بدورها بفتح المناطق التي لم تنضو بعد في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شبكة التجارة الفينيقية. تقول أخبار العصر القديم إن إيبيزا كانت أول مستعمرة أسسها عام (654 / 653 ق. م) القرطاجيون، الذين كانت طريقهم إلى شواطئ الأطلسي قصيرة، فكان من الطبيعي أن يجد تجارهم سوقاً مفضلة لسلعهم في مناطقها البعيدة عن طرق الملاحة. يصف هيرُدوت التجارة العينية البدائية على شاطئ إفريقية الغربي، التي كانت تسبق تأسيس المستقرات، فيقول: «فرد الباعة سلعهم قطعة قطعة على الشاطئ، ثم عادوا إلى سفنهم وأطلقوا دخاناً رآه السكان الذين قدموا ووضعوا ذهباً قرب السلع التي يريدون شراءها، قبل أن يبتعدوا من جديد عنها».[11] عندما كان القرطاجيون يرون في ذهب السكان سعراً مناسباً لسلعهم، كانوا يأخذونه ويتوغلون في البحر تاركين السلع المباعة وراءهم. أما إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق على السعر، فكانت الواقعة تتكرر إلى أن يرضى الطرفان.

اعتمد الاقتصاد التجاري الفينيقي مبدأ التوسع الدائم.الذي يظهر من حقيقة أن فترة أزمته كانت في الوقت نفسه فترة زيادة توسعه، ومن محاولاته الدائبة فتح وضم مناطق مواد خام جديدة تعوضه عن الخسارات التي ترتبت على زوال هيمنته على الملاحة البحرية وفقدانه حكر بعض فروع تجارة المعادن. بدفع من هذا المبدأ، بدأ عصر جديد من الرحلات الاستكشافية الجسور، أوصل القرطاجي هِميلكو عام (450 ق. م) حتى كورنوُول، الذي يظن أن بحارة فينيقيا كانوا قد توجهوا إليه في زمن سابق. بهذه الرحلة، أراد الفينيقيون تأسيس اتصال مباشر مع مناجم القصدير في جنوب غرب إنجلترا، بعد أن احتلت المراكز العسكرية الإغريقية مصب الرون طريق تجارتهم القديم عبر فرنسا. وقد أدير الخط الملاحي الجديد من مدينة قادِس الفينيقية القديمة، التي سقطت تحت سيطرة قرطاجنة في مطلع

11. Herodot, *Histories apodexis* IV 196..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرن الخامس قبل الميلاد، وحَكَرَ فينيقيوها الملاحة نحو مناجم القصدير لبعض الوقت، وحافظوا عليه بعد سقوطها في يد الرومان عام (206 ق. م). يخبرنا سترابو أن سفناً رومانية تعقبت سفينة من كورنوُول كي تتعرف الطريق إلى مناجم القصدير، لكن ربانها الماكر قاد سفن روما «عن عمد إلى أرض مستنقعية فاستدرجها إلى الهلاك، في حين نجا بنفسه من حطام سفينته وتلقى قيمة سلعه الغارقة من مدينته».[12] لقد حافظ الفينيقيون على سرية النتائج الاقتصادية ـ التجارية لرحلاتهم الاستكشافية، لذا، ليس هناك تقريباً أي تقرير أصلي حول بعثاتهم البحرية، باستثناء تقرير وحيد عن رحلة أمير البحر القرطاجي هانو الأسطورية بمحاذاة ساحل غرب إفريقية عام (425 ق. م) تم نقشه بالإزميل على شاهدة داخل معبد الإله بعل هَمُّون في قرطاجنة، ووصلنا بترجمة إغريقية منقحة. يبدو أن هذا المشروع القرطاجي كان هائل الأبعاد، استهدف أول الأمر تأسيس مدن للمستعمرين الفينيقيين، وشاركت فيه ستون سفينة من ذوات المجاديف الخمسين، حملت ثلاثة آلاف رجل وامرأة إلى جانب الآلات والمؤن الضرورية، فضلاً عن سفن النقل التي واكبتها ولم يأت التقرير على ذكرها. تأسس في سياق هذه الحملة ما مجموعه سبعة مستقرات وقعت الجنوبية منها على مصب نهر السنغال، رغم أن الأسطول أوغل في إبحاره جنوباً إلى أن بلغ ساحل الكاميرون، كما يعتقد. لا يحدد تقرير حملة هانو تفاصيل الطريق الذي اجتازته، لكنه يصف، بالمقابل، وصفا تخويفياً مسهباً أحداثاً طبيعية خطرة كروافد النار المتدفقة إلى البحر نتيجة انفجار أحد البراكين. ويقف مطولاً عند الهلع الذي انتاب طواقم السفن معظم الوقت بسبب دوي دقات الطبول الأفريقية، كما يصف الجزيرة التي تعج بكائنات متوحشة أسماها المترجمون الغوريلا، ونجح بحارة الحملة في قتل ثلاثة منها جلبوا جلودها

12. Strabo, *Geographika* III 14,5..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى قرطاجنة. من الطبيعي أن تكون حملة إلى المجهول مليئة بأخطار مجهولة، لكن التقرير يفرط عن عمد في مبالغاته المفزعة، لردع وتخويف التجار الذين قد يفكرون بمنافسة القرطاجيين على طريق غرب إفريقية. يفسر هذا أيضاً واقعة خلو التقرير من أي ذكر لنجاحات الرحلة الاقتصادية، ويكتفي بالحديث عن تأسيس المستقرات السبع، وجلب جلود الغوريلا (شكل 27).

انضوت جزر الآزور والكناري تحت نفوذ قرطاجنة في مرحلة التوسع الاقتصادي النشط هذه. وربما تم هذا في طور أسبق، كما تؤكد أدلة آثارية تشير إلى وجود مستقرات فينيقية على الساحل المراكشي منذ القرن السابع

الشكل (27): صيد الغوريلا في إفريقية. نقش على صحن فينيقي من القرن السابع قبل الميلاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل الميلاد، وتقدمت بعثات القرطاجيين التجارية ومدنهم المستنبتة تدريجياً نحو الجنوب، على امتداد الساحل الأفريقي، متخطية الأماكن التي كانت بعثة هانو قد بلغتها، وإن كنا لا نعرف تفاصيل ما حدث فعلاً. فهل نصدق نبأ الدوران بالسفن حول إفريقية، الذي نقله إلينا العالم بُزَيدُونيُوس (135 ق. م - ؟) من أهالي مدينة أفاميا (قلعة المضيق) السورية، الذي ينقل سترابو تقريره مزوداً بتعليق جد نقدي عن رحلات بحرية يقوم بها شخص يدعى أويدُوكسُس من مرفأ كِيزِكُوس في غرب آسيا الصغرى، جاء خلال حكم بطليموس الثالث (145 - 116 ق. م) إلى مصر، حيث نال مكافآت لأنه قاد حملة تجارية إلى الهند، ثم كادت عاصفة بحرية أن تقضي عليه على ساحل إفريقية الشرقي، في أثناء رحلة ثانية قام بها بعد عام (116 ق. م) خلال حكم كليوباترا أرملة بطليموس الثامن. يقال إن أويدُوكسُس هذا وجد زخرفة مقدمة سفينة جانحة على شكل رأس حصان أخذها معه إلى مصر، حيث سأل قباطنة مجربين عن أصلها، فتعرف هؤلاء فيها على سفينة من قادس استخدمها عادة صيادو أسماك هذه المستعمرة الفينيقية القديمة في المصائد المقابلة للساحل المراكشي. لكن العثور على هذا الجزء من السفينة في شرق إفريقية لا يمكن أن يعد شاهداً على حملة بحرية كبيرة استهدفته. ومع القضاء على قرطاجنة في الحرب القرطاجية الثالثة (146 - 142 ق.م.) انتهى كذلك عصر الاستعمار الفينيقي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلهة وعبادات

«يروى أنه في هذه الأيام جرح أدونيس في لبنان، وأن دمه ساح في هذا النهر، الذي ينسب إليه لونه الأحمر، واسم أدونيس.»[1]

ليست آلهة العالم القديم قوى كونية يستحيل الاقتراب منها، بل هي أشخاص يشبهون الإنسان الذي يستطيع مخاطبتها والتأثير من خلالها على أحداث الطبيعة والمجتمع، المحددة لحياته والمتمثلة فيها. لذلك، يجب أن يكون الإنسان قريباً منها، وأن يقدم لها المؤونة ومكان سكن في مدنه، وأن يسعدها بالأغاني، ويخمّد غضبها بالأعطيات والنذور.

يؤدي ربط الآلهة بأماكن عبادة ثابتة إلى التمييز فيما بينها، فتصبح عندئذ كائنات محلية ذات خصوصية نسبية. صحيح أن آلهة واحدة هي عشتار كانت تعبد في صيدا وصور، لكن من يعبدها كان يهمه كثيراً أن يعلم ما إذا كان يقدم أضحيته لعشتار صيدا أم لعشتار صور. ويمكننا، بوجه عام، ملاحظة الميل إلى تمييز الآلهة بحسب عبادتها في المناطق التي تشظت إلى مدن ودول صغيرة كثيرة، مثل فينيقيا وفلسطين قبل أن يستوطنها بنو إسرءيل بصورة خاصة. كما يمكننا ملاحظة وجود مجمع للآلهة خاص بكل واحدة من مدن لبنان، يختلف بناؤه من مدينة لأخرى، يتألف أساساً من الآلهة نفسها. هذه الخصوصيات العبادية

1. Lukian, *De Dea Syria* 8.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ضرباً من التعبير عن استقلال دول المدن الاقتصادي ـ السياسي.

كان توطين الآلهة لدى الإنسان ممكناً عبر إضفاء سمات محلية عليها، والتقرب منها، خاصة عندما ترتبط بموضوعات طبيعية محددة يمكنه الوصول إليها، هي ممثلتها أو المسيطرة عليها. إن المقر الأرضي لآلهة البحر هو البحر، وتعلن آلهة الأمواج عن نفسها من خلال الأمواج، كما تتجلى آلهة المناخ الجبارة فوق الجبال وهي متجلببة بالغيوم والبروق. بوجه عام، خال الإنسان أنه يكون في الجبال قريباً بصورة خاصة من عالم الآلهة، لذلك كانت المرتفعات على الدوام أماكن مفضلة للعبادة. وقد صعد الناس في لبنان أيضاً إلى أعالي الجبال، كي يعبروا عن تقديسهم لبعل لبنان، إله البلد، قبل أي شيء. هناك أيضاً بقايا أماكن عبادة قديمة فوق مرتفعات بارزة من مصاطب الجبال الدنيا والوسطى، كانت تجهيزاتها على قدر كبير من البساطة قبل العصر الهلنستي، وخاصة منها تلك البعيدة عن المستقرات السكانية، إذ كان يكفي عادة حفر هيكل في الصخر إلى جانب بضعة حفر قليلة لتلقي الأضاحي السائلة، على أن تضاف إليه في معظم الأحيان شجرة أو غابة صغيرة مقدسة تمثل آلهة النباتات. وكان يستعان في الغالب بمغارة يرجح إنها كانت تستخدم لأغراض تنبؤية.

أدت عبادة إله لبنان في أماكن طبيعية كثيرة تقع وسط جباله وغاباته إلى تشكل تكوينات محلية لبعل، مع أن التمييز بينها لم يرق إلى تلك الأهمية، التي كان يجب أن تكون له في عبادات دول المدن. وكان للأماكن الجبلية المقدسة أيضاً تاريخها الخاص، وأسطورتها العبادية الخاصة، حتى عندما كانت أماكن تظاهر محلية للبعل الذي كان يعبد في بيت مِرّي كبعل مرقود، وفي بعلبك كبعل البقاع.

بين النصوص الأصلية غير الكثيرة، التي تتيح لنا إلقاء نظرة إلى داخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين الفينيقي، تمدنا الكتابة المنقوشة على التابوت الحجري لإشمونصر ملك صيدا في القرن الخامس قبل الميلاد بمعلومات تفصيلية وافرة بصورة خاصة، لكونها تتضمن تقريراً صادراً عن حكومة الملك يقول بين أشياء أخرى: «أنا، إشمونصر ملك الصيدونيين... وأمي أم ـ عشتار، كاهنة عشتار سيدتنا... نحن من بنى معابد الآلهة، معبد عشتار في أرض صيدا البحرية، وجعلنا العشتارات تسكن (هناك)... ونحن بنينا لإشمون معبداً، للأمير المقدس، في عين جدلال على الجبل وجعلناه يسكن [هناك]... ونحن بنينا معبداً لآلهة الصيداويين في أرض صيدا البحرية، معبداً لبعل صيدا وآخر لاسم بعل العشتاري.

يظهر هذا النص أن الإلهة عشتار احتلت المركز الأول في مجمع آلهة صيدا، فهو يذكر معبدها في المقام الأول بوصفه أهم المعابد، ويقول إن لها أيضاً مكان عبادة ثانياً يقع بدوره (في أرض صيدا البحرية) التي نعتقد أن النص يعني بها مركز المدينة المطل على المرفأ. هذا المعبد كان مكرساً لقوام خاص بالآلهة ارتبط ارتباطاً وثيقاً ببعل: الإله الذكر الرئيس لصيدا. شأن أخواتها عشتار صور وبعلة جبيل، انتمت عشتار صيدا إلى ربات الخصب. وكانت عبادتها مألوفة في صيدا وصور كآلهة تتخذ شكل حجر يمكن أن يتخذ بدوره أشكالاً مختلفة. أما في العصر الروماني، فتظهر على عملة صيدا عربة احتفالية وعرش عشتار (شكل 28) الذي يحتل كرسيه حجر. عرفت صيدا تلك النماذج الحجرية للعرش.لكن الحفريات الأثرية عثرت عليها في صور (شكل 29) وجبيل أيضاً. وهناك أدلة على حفظ أحجار تمثل عشتار في خزائن مقدسة، أسماها كتاب العصر القديم، بشيء من تحوير المفهوم السامي (بيتي لين) أي (مساكن الإله). هذه الحجارة زعموا أنها نيازك، ويذكر العالم ڤيلو الجبيلي (47 ـ 117 م) في ترجمته الإغريقية للتاريخ الفينيقي لسانخونياثون البيروتي، أن حجراً سقط من السماء، فعثرت عليه عشتار وقدّسته وجعلته محلاً للعبادة في معبد صور. أما مؤرخ الكنيسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سُزُمِنوس الغزي (توفي بعد عام 443 م) فيروي حكاية مشابهة تزعم أن نيزكاً كان يسقط في نهر أدونيس معلناً الظهور السنوي الدوري لعشتار، أو بداية عيد عبادة آلهة خصب جبيل في أفْقَا.

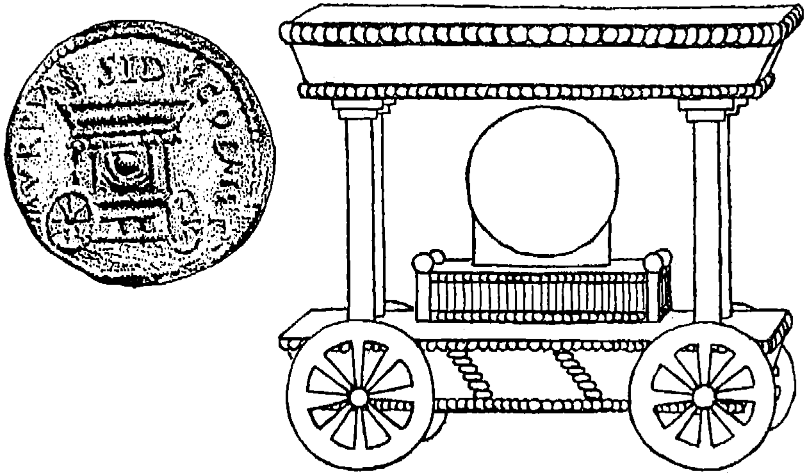

الشكل (28): عربة عشتارت صيدا المقدسة. تمثيل على قطعة معدنية نحاسية ليولا باولا زوجة إلغبال الأولى (219 ـ 220 م).

يبدي إشمونصر في نقشه اهتماماً خاصاً بعبادة الإله إشمون، الذي يقع معبده خارج المدينة على نبع جدلال؛ وتم العثور على أنقاضه عام (1901 م) قرب مكان يسمى اليوم بستان الشيخ، على بعد ستة كيلومترات من مدينة صيدا القديمة وهي محل تنقيب مجدد تحت إشراف م. دونالد. أما نقشا البناء اللذان تم العثور عليهما بصيغتين مختلفتين خلال تنقيبات الأعوام (1901 ـ 1904 م) فهما يشيران إلى بود ـ عشتار، خليفة إشمونصر، كبان للمعبد. وفق هذين النقشين، ربما كان إشمونصر قد أسهم في ترميم منشأة أقدم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل (29): مقدسات من صور. تقول الكتابة ان الشاهدتين (مطليتين بالعنبر) «زيت او عسل». قطعة عملة من القرن الثالث الميلادي.

كان تصميم هذا المكان المقدس فريداً في بابه. فقد انتصب المعبد، الذي لم تبق منه غير أجزاء قليلة، في موقع مشرف على الضفة اليسرى لنهر الأوّلي. أما المنحدر إلى وادي النهر، الواقع مباشرة على الجانب الشمالي من المعبد، فكان مقسماً من خلال مصاطب حفر بعضها في الصخر وأقيم بعضها الآخر بواسطة ردميات احتجزتها جدر ضخمة من كتل حجرية محدبة. بينما تحشدت حول القسم الأدنى من المصاطب معابد صغيرة تشي بأصلها الفارسي وحمل أقدم مكان عبادة، أعني الحوض المحفور بعناية الذي نقشت في منتصفه صورة للإله على قاعدة مكعبة، علامات نبع مقدس تفرع ماؤه بدءاً من منبعه القوي فوق منطقة المعبد، الذي يسميه إشمونصر (عين جدلال على الجبل) وتم جر القسم الأكبر من مائه إلى مدينة صيدا عبر قناة تحت أرضية مازالت تستخدم بصورة جزئية في أيامنا. أما داخل منطقة المعبد، فهناك بقايا متنوعة لأنابيب مياه رصاصية من العصر القديم، تشهد على وجود نظام توزيع مياه معقد، شمل البناء الشبيه بالدارة القائم في السهل المستوي أمام المصطبة. تضفي أرضيات رصفت بفيسفساء العصر الهلنستي / البيزنطي طابعاً أنيقاً ومرحاً على هذه المباني، فيبدو مكان العبادة ومكان الاستجمام مترابطين بتناغم وانسجام، على غرار ما ألفنا رؤيته في أماكن الرعاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحية التي عرفها المجال الحضاري الإغريقي. فلا عجب إذن أن تمت مماهاة إشمون مع إله الطب الإغريقي، وأن يذكّره باسمه هذا نقش وجد في بستان الشيخ يعود إلى النصف الأول للقرن الثاني قبل الميلاد. ولا عجب كذلك أن يخبرنا الجغرافي سترابو عن غابة لأسكليبيوس، إله الطب الإغريقي، تقع بين صيدا وبيروت. ويشير أنطونيوس بلاسنتيوس في دليل الرحلات الذي ألفه في القرن السادس قبل الميلاد إلى نهر باسم أسكليبيوس قرب صيدا. وتفترض مماهاة إشمون مع أسكليبيوس وجود وظيفة متقاربة للإلهين، وتلمح، أخيراً، إلى صفة إشمون كإله للطب الأسماء الخاصة به، التي يظهر بها: إشمونصّر (إشمون سَاعَدَ) إشمونخلص (إشمون خَلَّص) إشمون أمس (إشمون حَمَلَ)... الخ. كان إشمون مهماً أيضاً كإله للنباتات. وقد عبر عن وظيفته هذه بصورة خاصة بناء معبده على نبع يجلب ماؤه الخصب والحياة إلى بساتين صيدا ومدينتها ذاتها. ولعب إشمون دوراً مرموقاً في مجمع آلهة بيروت أيضاً، وإذا كانت أهميته تضاءلت في صور، فانه تمتع بمحبة كبرى في المستعمرات الفينيقية.

بقيت كائنات مجمع آلهة صيدا الأخرى في الظل بالمقارنة مع بعل وعشتار وإشمون، رغم أنها حظيت، بطبيعة الحال، بسائر ضروب التقديس. احتلت قمة آلهة صور بدورها هيئة ثلاثية تكونت من آلهة صيدا، وإن كان إله ذكر اسمه مِلقارت هو الذي هيمن عليها بوصفه بعل صور. هذا الإله يشي اسمه بوظيفته. إنه (ملك المدينة) وهو يحمل في الشاهدة التي قدمها له الملك بَرحدد علامة إله المناخ. إنه، هو أيضاً، شكل محلي لبعل لبنان، استوعب بمرور الوقت عناصر أخرى في ذاته، جعلته يعبد من حين لآخر كإله للبحارة. أما وظيفته الإضافية كإله للشمس، فطبعته بطابع أقوى، لأن علاقته الوثيقة بها أدت إلى مماهاته مع هرقل على الأرجح. ويمدنا هيرُدوت بوصف مختصر لمعبد مِلقارت في صور بالقول: «لقد رأيته... غنياً بالزينة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما كان، مع مصورات كثيرة وعمودين بداخله، الأول من ذهب خالص والثاني من زمرد أضاء الليل وجعله ساطعاً».[2] هذان العمودان كانا عنصراً مهماً في عبادة مِلقارت، لذلك نجدهما منقوشين على عملة العصر الروماني، إلى جانب شجرة زيتون مقدسة وآنية للتبخير.

يخبرنا اتفاق عقد بين أسرحدون ملك أشور (680 - 669 ق. م) والملك بعل صور عن وظيفة آلهة صور الرئيسة الثلاثة. ويورد ذلك الاتفاق أسماء آلهة الطرفين كضامنة له، الذي يعتبر مِلقارت وإشمون مختصين بازدهار المدينة، بينما تبدو عشتار فيه كإلهة للحرب - هي إذن الجانب السلبي من إلهة الخصب. حسب المحتوى القانوني البحري للاتفاق، يتقدم على الآلهة السابق ذكرهم ثلاثة آلهة مختصون بالملاحة تحديداً هم بعل شَمَن، بعل مَلَغ و بعل زفون. إذا ما انتهكت صور الاتفاق، كان على هؤلاء الآلهة «إطلاق ريح شريرة ضد سفنها تجعلها تفقد أشرعتها، وتسحب عمود مرساتها، وتغرق في البحر بفعل موجة مد عاتية». يدل اسم بعل شَمِن، أو شَمِم، على أنه (إله السماوات) الذي تتبع له النجوم والعاصفة والبرق والمطر. من جانبه، يعد بعل زفون ظاهرة معروفة (كإله للشمال) انتشرت عبادته من الساحل السوري / الفلسطيني حتى مصر انطلاقاً من مستقره في جبل الآلهة شمال أوغاريت («جبل الأقرع» في أيامنا) الذي كان ومازال علامة أرضية مهمة للبحارة.

أحرز بعل شَمِم مكانة دينية مرموقة في جبيل؛ فهو يجلس مع بعلات جبيل على قمة مجمع الآلهة. «ليطل بعل شَمِم وبعلات جبيل ومجمع آلهة جبيل المقدسين أيام يَهَملك وأعوامه على جبيل» -.هذا ما يقوله نقش معماري للملك يخيمِلك من منتصف القرن العاشر قبل الميلاد (شكل 30). إذا كان بعل شَمِم يشارك في احتلال مركز حلقة آلهة جبيل، فذلك راجع

2. Herodot, *Historia apodexis* II, 44.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى وظيفته كإله للمناخ وللسماء، نصب عرشه فوق غابات الأرْز، المهمة جداً لجبيل. هذا الإله هو المعادل الجبيلي لبعل لبنان، الذي تشير إلى أهميته أسماء حكام المدينة المركبة غالباً مع اسمه. إلا إن بعلات جبيل، إلهة مدينة جبيل، أعلى منه، لكونها، كما تقول شاهدة الحجر الكلسي للملك يِهَومِلك ابن يهربعل (القرن الرابع قبل الميلاد) «السيدة» التي كانت قد نصبت يَهَمَلك ملكاً.

يبدو أنه كان هناك جماعة من ثلاثة آلهة تقف على رأس مجمع الآلهة في جبيل أيضاً. تتفق مع هذا العدد صور الآلهة الضخمة التي تم انتشالها من ركام معبد بعلات المبني في عصر البرونز المبكر، والتي لا يسمح تكوينها الفج والبدائي بالقول بتماثل الإلهين الذكرين اللذين يظهران فيها. تتحدث النقوش المصورة عن رِشِف كآلهة كبيرة ثالثة إلى جانب بعلات وبعل في جبيل العصر البرونزي. ورِشِف هذه كانت آلهة العالم السفلي والأوبئة والحرب، التي انتشرت عبادتها في المجال السوري، إلا أن كتابات

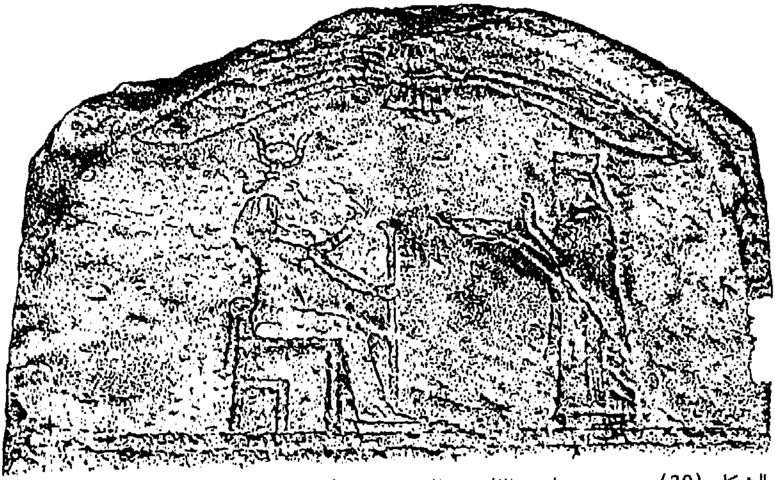

الشكل (30)، مجسّم شاهدة الملك يَهمَلِك الجبيلي (القرن 5/4 ق. م). يمثل الإفريز بعلات جبيل وفق نمط حاتور المصرية (زينة الرأس)، بينما يقدم الملك لها أضحية وهو يرتدي زياً فارسياً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملوك جبيل في الألف الأول قبل الميلاد لا تأتي على ذكرها، الأمر الذي يمكن أن يكون محض مصادفة. يذكر نقش وجد على قبر أحد أبناء الملك شِفِتبعل من حوالي عام خمسمئة قبل الميلاد إلهاً اسمه بعل أدِر كإله ثالث إلى جانب بعل شَمِم وبعلات جبيل. لكننا لا نعلم شيئاً عن هذا البعل عدا عبادته في المستعمرات الفينيقية، وإن كانت لقى أثرية تم اكتشافها في معبد رِشِف في جبيل تؤكد أن عبادته استمرت حتى خلال العصر المسيحي.

انتمى بناء معبد رِشِف الجديد، الذي أقيم في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، إلى معابد البلاط واسعة الانتشار في سواحل الشرق الأدنى. لم يقم بناء للعبادة في مركز المنطقة المقدسة من هذه المعابد، المحاطة بأسوار وحجرات صغيرة، وإنما قام حجر مقدس انتصب على بسطة عريضة تحيط به شواهد كثيرة العدد صنعت من أحجار كلسية ورملية، كانت تقدم عادة كأنصاب للآلهة في مناسبات الشكر والرجاء. وتدل التأثيرات المناخية القوية، الظاهرة في هذه الشواهد، أنها بقيت طوال مئات السنين في العراء، معرضة لأفاعيل الريح والطقس. وتتفق لقى الحفريات مع هذه المعاينات، وتؤكد أن معبد رِشِف، المبني في العصر البرونزي الوسيط، قد استخدم منذئذ وحتى العصر الهلنستي دون إدخال أية تغييرات معمارية كبيرة عليه. ثم غطاه معبد أكبر في الحقبة الرومانية، لم يبق من دليل على وجوده سوى بقايا آثار قليلة جداً، وان وجد ما يدفع إلى الاعتقاد بان المعبد الروماني كان يشبه معبد رِشِف القديم، أي أنه كان معبد بلاط يضم حجراً مقدساً كموضوع للعبادة. و،تقدم مسكوكة من جبيل ضربت في عهد القيصر مَكرينوس (217 - 218 م) صورة معبد يحمل بوضوح سمات التقاليد المعمارية لمعبد رِشِف من العصر البرونزي، على أن يكون معلوماً أنه لم تكن تصور على المسكوكات النقدية غير المعابد الرئيسة. والآن، ولأن معبد بعلات كان معروفاً من مسكوكات أخرى، وبعل شَمِم لم يكن يعبد بالتأكيد كحجر مقدس، فان البناء المقصود هنا كان بلا شك البناء الجديد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في موقع معبد رِشِف القديم، الذي أجزم أنه كان مكرساً بدوره لعبادته.

يلفت النظر في شواهد بلاط معبد رِشِف العصر البرونزي تكوينها الرشيق والمخروطي، الذي تسبب في إطلاق اسم (معبد المسلات) عليه (شكل 31) وهي تسمية صائبة، لأنه كان لأنصابه المعنى الذي عزاه الإغريق لرموز ديانة عبادة الشمس في مصر، وأطلقوا عليها اسم «أبليشك / المسلات» ـ تشبيهاً لها بأسياخ الشوي. والحقيقة أن ثمة ملامح لإله الشمس نعثر عليها لدى رِشِف أيضاً، خاصة حين يمثل شمس الصيف المحرقة. كما يذكر معبده بمعابد الشمس لدى الأسرة المصرية الخامسة. وهناك، أخيراً، إثباتات قاطعة على حدوث تماه منذ العصر الهلنستي بينه وبين أبولو الإغريقي الذي كان إله الشمس والأوبئة في آن معاً. ترى، ألا يمكن أن يكون معبد المسلات الجبيلي من العصر الروماني قد كرس لعبادة أبولو، خلف رِشِف القديم؟

حظيت عبادة أدونيس بمحبة خاصة في جبيل، رغم أنه لم يحتل مركزاً مهماً في مجمع آلهتها. لا تذكر عبادة أدونيس في جبيل إلا منذ القرن الثاني بعد الميلاد، فهو إله شاب، وإن كان ينتسب، في الوقت نفسه، إلى نموذج أقدم للإله الذي يمثل صيرورة وفناء النبات. أما الوثائق الأقدم حول

الشكل (31): معبد المسلآت في جبيل خلال العصر الروماني. تقول الكتابة على قطعة العملة (مهداة الى جبيل المقدسة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبادته، التي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، فمصدرها المجال الإغريقي، مع أن أصله السامي مؤكد وليس محلاً لأية شكوك؛ بدلالة اسمه (أدون) الذي يعني (سيد) في اللغة السامية الغربية. تقوم أسطورة أدونيس جبيل، التي نقلها لنا كتاب من العصر القديم، على حكاية بسيطة: يحب الصياد الفتى أدونيس الإلهة أفروديت، التي نستطيع أن نتعرف فيها ببساطة الإلهة عشتار الفينيقية في شكلها الجبيلي. لكن الإله المحارب أرز، أي رِشِف جبيل في إهاب إغريقي، يغار منه فيكلف خنزيراً برياً بقتله في أثناء واحدة من رحلات الصيد التي يقوم بها. يتحقق. مرام إله العالم السفلي، فيترنح أدونيس مثخناً بجراحه نحو المغارة التي درج على مقابلة أفروديت / عشتار فيها، حيث يموت بين ذراعيها. تسارع الإلهة إلى العالم السفلي كي تعيد حبيبها إلى الحياة من جديد، غير أن بِرسِفون، سيدة أرواح الموتى، لا تسمح بعودته إلا في الثلث الأخير من كل عام. هذه الملاحظة الأخيرة تفصح عن طبيعة أدونيس كإله للنبات، يبعث إلى الحياة خلال حقبة الإنبات من كل عام؛ فهو يموت في الصيف ويبعث من جديد مطلع العام.

ثمة ارتباط وثيق بين أسطورة أدونيس وبين نهر إبراهيم، الذي بقي اسمه نهر أدونيس إلى مطلع العصر الوسيط. فقد اعتُبرت مغارة نبع النهر العملاقة قرب أفْقَا الكهف الذي مات أدونيس فيه متأثراً بجراحه، واعتُبر اللون الأحمر، الذي تصطبغ مياه النهر به من حين لآخر بسبب ما يحمله من تربة حمراء، دم الإله القتيل. يفسر هذا أسباب تركز عبادة أدونيس خلال العصر الروماني في معابد وادي نهر إبراهيم أساساً؛ وهي عبادة كانت تبلغ ذروتها في الشكوى من موته في الصيف، وتفرض على مواكب الحجاج الذهاب إلى أفْقَا، البعيدة خمسين كيلومتراً عن الوادي، في أيام ثلاثة. في اليوم الأول، كان الحجيج ينطلق. من جبيل ويسير بمحاذاة وادي فِدار إلى الموقع الذي يسمى اليوم (خير الميدان) حيث بقايا مرممة لهيكل يشبه معبداً صغيراً يقع وسط فناء كبير (مساحته نصف هكتار) يقدم مكاناً لتجمعات العيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكثيرة العدد، يمكننا أن نتعرف فيه اليوم أيضاً مقرات الكهنة والحجاج، الواقعة ضمن مسطح خير الميدان. في اليوم الثاني، كانت الطريق القصيرة تقود إلى منطقة معبد يَنوا الذي اكتشفت بقاياه قبل سنوات قليلة، ويرجح أنه كان مكرساً لعبادة أدونيس وحده، لكنه استخدم فيما بعد كنيسة مكرسة لـ (مار جرجس الأزرق). أخيراً، كانت رحلة اليوم الثالث، وطولها اثنا عشر كيلومتراً، تقود إلى مغارة أفْقَا المقدسة ومعبد عشتار / أفروديت، حيث وجدت أيضاً غابة مقدسة ظلت بقاياها، أو بقايا الغابة التي خلفتها، محل تقديس شعبي إلى عصرنا. ويخبرنا المؤرخ الإغريقي سُوزيمُوس (حوالي عام 500 م) عن بحيرة كان الحجاج يلقون إليها بأعطياتهم، وخاصة منها تماثيل الآلهة البرونزية المطلية بالفضة أو بالذهب، فان رفضت قبولها، بقيت طافية على سطح البحيرة، مهما كان وزنها. لا تنطبق هذه الحكاية الغريبة على منطقة أفْقَا، وربما خلط مؤرخنا بين البحيرة المقصودة وبحيرة يَمُّونة، الواقعة على الجانب الآخر من السلسلة الجبلية، التي كان معبد لعشتار على ضفتها ومازالت الطبقات الدنيا من جدره قائمة إلى اليوم. تمتلئ بحيرة يَمُّونة مطلع كل عام بسرعة بمياه ينابيع كثيرة أهمها نبع الأربعين (شهيداً) الذي يقال إن مياهه تتفجر بصورة عمودية تقريباً لشدة قوتها، فلا تستطيع الأشياء الثقيلة الغرق فيها. هذا التصور البدائي للرابطة تحت الأرضية بين نبع أفْقَا وبحيرة يَمُّونة ترك بصماته على الأسطورة الخاصة بمعبدها، التي تقول إن أفروديت حولت نفسها إلى سمكة، ونجت باستخدامها طريقاً مائياً سرياً تحت أرضي يصل إلى بحيرة يَمُّونة، بينما كانت تفر من تيفون، الغول القديم قدم الدهر. تقيم هذه الأسطورة صلة دينية بين هذين المكانين المقدسين، وتلقي أضواء كاشفة على واقعة أن مواكب الحجاج إلى أفْقَا كانت تواصل طريقها إلى يَمُّونة، عبر سلسلة جبلية قليلة الوعورة.

كان لأهمية وادي أدونيس الدينية خلفيات اقتصادية أيضاً، فقد كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدخل إلى غابات أرْز المناطق الجبلية المجاورة لجبيل. وكان لنبع أفْقًا أهمية كبرى بالنسبة لتزويد المدينة بالماء، فقد كان ماؤه يكفي المدينة حتى في العصر الهلنستي، حيث كان يغور في مركزها ويشكل تجويفاً هائلاً يُنزل إليه سيراً على الأقدام. لتغطية الحاجة المتزايدة إلى الماء في العصر الروماني، كان لا بد من استغلال نهر أدونيس، المجرى المائي الوحيد في ضواحي المدينة القريبة، الذي يسيل فيه الماء خلال فصل الصيف أيضاً عبر قناة فرعية تبدأ قرب مجرى النهر العلوي، ثم تسير على جانبه الجنوبي الأقل انحداراً حتى قرابة خمسة كيلومترات من مصبه في البحر، حيث أقيم جسر على نهر إبراهيم له شكل قنطرة عملاقة يؤمن انحدارها وصول هذا السائل المانح للحياة إلى المدينة بواسطة قناة مغطاة.

لم يكن أدونيس إله ينابيع. هذه الوظيفة كانت جزءاً من مهام بعلات جبيل، التي كرس لها معبدا أفْقًا ويَمُّونِة، وبني معبدها الرئيس في المدينة إلى جانب النبع المذكور، قرب بحيرة صغيرة مقدسة. في الوقت نفسه، لم يكن بين عشتار جبيل وأدونيس غير تلك العلاقة الدينية الواهية التي تصفها الأسطورة. إن أدونيس لم يكن بعلاً، وهو لا يملك شيئاً. إنه ذاك الذي ينبعث من جديد على الدوام ليفنى مرة أخرى في الطبيعة. فهل كان ذات مرة إله الشجر بالمعنى الضيق للكلمة؟ لو كانت له هذه الصفة، لتوافقت تماماً مع علاقته بإلهة مدينة جبيل، سيدة غابات الأرْز. وتعتبر ألوهية الشجر جانباً خاصاً أيضاً بأوزيرِس المصري، الذي كانت لعبادته صلات قديمة مع جبيل، جعلت لوقيان وكتاباً متأخرين يماهون صراحة بينه وبين أدونيس. ربما كانت عناصر مختلفة من عبادة أدونيس قابلة للإرجاع إلى عبادة أوزيرِس المصرية، مثلما كانت عبادة بعلات جبيل مطبوعة بطابع عبادة الآلهة المصرية حاتور، التي تمت مماهاتها معها وجعلت شاهدة يِهَومِلك تظهرها في الهيئة المصرية التقليدية المعروفة لحاتور. كما أن تزويد معبد بعلات ببحيرة مقدسة ربما حدث احتذاء بنموذج مصري. يخبرنا الأب الكنسي كِريل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السكندري (توفي عام 444 م) عن الروابط المشخصة بين عبادة أدونيس في جبيل والإسكندرية، فيقول إن نساء الإسكندرية كن يبعثن كل عام برسالة إلى جبيل تعلن نبأ العثور من جديد على أدونيس المختفي، فتتوقف عندئذ طقوس الحزن عليه لدى نساء جبيل. كان احتفال الإسكندرية بأدونيس يجري، على حد قول الشاعر ثيوقريط الذي أمضى عام (270 ق. م) بعض الوقت في بلاط بطليموس الثاني المصري، في صورة عرض تمثيلي عام لأسطورة أدونيس يقدمه ممثلون ومغنون، بينما كانت الأضاحي الكثيرة تعرض أمام المنصة المحاطة بالعرائش، التي يجلس عليها الزوج الإلهي العاشق، وتتكون من ورود، وثمار، وتوابل، ومعجنات تجسم أشكال حيوانات متنوعة. في اليوم التالي،كان أدونيس يسلم رمزياً إلى البحر، مدخل العالم السفلي، وسط أغاني الحزن والحداد ـ.«لتمنحنا الرحمة، الآن وفي العام القادم، أدونيس! ولتقابلنا بمودة، كما في هذه المرة أيضاً، عند عودتك، أدونيس».(3)

يذكر إغراق أدونيس في البحر بأسطورة أوزيرِس، وينعكس في عبادة جبيل له، حيث يحمل نهر أدونيس دم الإله القتيل إلى البحر، ويلقى بجنان أدونيس، وهي آنية فخارية مزروعة ورداً يزعم أنها نبتت من دمه، بعد أن تيبس.

كانت حياة مدن لبنان الأخرى الدينية شبيهة بحياة صيدا وصور وجبيل. ثمة كائن لا بد من ذكره هنا هو بعل هَمُّون، ارتبطت به عادة رهيبة هي التضحية بالأطفال. ليس هناك أي دليل على عبادة هذا الإله في وطنه الفينيقي الأم، لكنه كان الإله الرئيس الذكر في المستعمرات الأفريقية وصقلية، حيث تم اكتشاف بعض محارق الأضاحي المسماة (تُوفِت) ومقابر كبيرة للأطفال تقطع الشك باليقين بصدد وجود هذا الطقس الديني. لئن

3. Theokrit, *Eidyllia* XV 143f..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت عبادة بعل هَمُّون غير مؤكدة في فينيقيا، فإنه لمن الأكيد أن وطنه كان المجال السوري / الفينيقي، حيث يرد أقدم ذكر له في نقش فينيقي يعود إلى عام (825 ق. م) وجد في سنغرلي بشمال سورية. عرف العالم المحيط بفينيقيا تقديم الأطفال أضاحي في الشدائد القصوى؛ حدث هذا في مؤاب وآرام ومملكة بني إسرءيل، نعتقد أن التضحية بالأطفال كانت معروفة وممارسة أيضاً في فينيقيا. تؤيد ذلك ملاحظة في ترجمة فيلو الجبيلي لتاريخ فينيقيا الذي وضعه سانخونياثون، تقول إن الإله كْرُنُوس (= ال) قدم لأورانوس في إحدى محنه الخاصة ابنه البكر كأضحية. ويخبرنا المؤرخ الروماني كْوِنتُوس كورتيُوس عن حصار صور على يد الإسكندر الأكبر ويقول إن أهالي صور عزموا على تقديم «أضحية لزحل» (= كرونوس). لكن هذه الأضحية، الأكثر صعوبة وثقلاً بين الأضحيات التي طلبها من عبدته عالم آلهة فينيقي بدا مرحاً وودياً من وجوه كثيرة، لم تقدم رغم وضع المدينة المحاصرة الميؤوس منه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين القوى الكبرى

«صعدت بأقصى سرعة، وبكل ما في قلبي من غل، إلى عربتي الحربية الجبارة، التي كنست العصاة كنساً.»[1]

في حوالي عام (900 ق. م) شرع تحول انعطافي يرتسم في علاقات قوى عالم دول الشرق الأدنى. فقد نجح هَدد نيراري وخلفاؤه في بلاد ما بين النهرين في ترجيح كفة أشور تدريجياً على جيرانها، عبر سلسلة طويلة من حملات عسكرية سنوية تقريباً، قيل أول الأمر أنها لتأمين الحدود، لكنها سرعان ما أخضعت البلدان المجاورة، التي سبق ضمها مراحل من النهب أخذت شكل حملات سطو منظمة، بينما فرضت أعباء والتزامات ضريبية باهظة تمت تأديتها بصورة منتظمة، فبدا في النهاية وكأنه يمكن تحقيق مطلب ملوك بلاد ما بين النهرين القديم بإقامة إمبراطورية عالمية تمتد من البحر (الأعلى) إلى البحر (الأدنى).

حققت الحملة العسكرية الآشورية الأولى في سورية، التي قادها الملك أشورنسيربال الثاني عام (877 ق. م) نجاحاً مفاجئاً. وكان قد مضى أكثر من مئتي عام على الحملة السابقة للملك تِغلاتبلصّر الأول. لم يلاق الملك أشورنسيربال مقاومة جدية، بل خطبت المدن الفينيقية وده بدفع الأتاوات له. بما أن الملك صرف جهوده في السنوات التالية

1. Sanherib, Taylor - Prisma V 56f.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للبناء الداخلي لدولته، فقد كسبت بلدان البحر الأبيض المتوسط وقتاً التقطت فيه أنفاسها وأفادت منه أحسن إفادة. لذلك، اصطدم خلفه سَلْمَنَصَّر الثالث (858 - 824 ق. م) الذي قام بإحدى وثلاثين حملة عسكرية خلال سنوات حكمه الخمس والثلاثين، بأعداء مسلحين أفضل تسليح. وعندما اعتزم التقدم في الداخل السوري عام (853 ق. م) واجهه في العاصي الأوسط جيش حليف يقوده «اثنا عشر ملكاً من ملوك ساحل البحر». تقول نقوش الملك الآشوري أن الاصطدام بهذا الجيش الذي بلغ عدده ثمانين ألف رجل، أدى إلى إنزال هزيمة ماحقة به، وأن عدد قتلاه كان كبيراً إلى حد أنه «عبر العاصي على جثثهم وكأنه يعبره على جسر». لم تكن نتائج المعركة قرب قرقر لصالح سَلْمَنَصَّر، الذي لم يقل شيئاً بعد ذلك عن تقدم جيشه، وإنما اكتفى بالحديث عن رحلة قام بها في البحر الأبيض المتوسط بالزوارق. كانت المشاركة الفينيقية في التحالف المنتصر ضئيلة، لم تتمثل فيه غير دولتي المدينتين الواقعتين في أقصى الشمال والمهددتين أكثر من غيرهما، وهما إيرقاتي التي بعثت بعدد يثير الدهشة من المقاتلين بلغ عشرة آلاف جندي مشاة، وأرواد، الواثقة من وضعها كجزيرة، التي شاركت بقوة رمزية من مئتي جندي فقط.

كرر سَلْمَنَصَّر الثالث حملاته السورية بنجاح أقل في أعوام (849 و 848 و 845 ق. م). بيد أن جنوده تمكنوا عام (841 ق. م) من بلوغ جنوب الساحل اللبناني لأول مرة، ودونوا ذلك على أقدم نقش آشوري عند نهر الكلب. عندئذ، سارعت صور وصيدا إلى دفع الضرائب وتقديم الأتاوات (شكل 32). حمت التضحيات المادية المدن الفينيقية من التدمير خلال حملات الآشوريين في أعوام (838 و 810 و 806 ق. م) وأثبتت سياسة الخضوع الاسمي ودفع الضرائب والأتاوات نجاعتها، وزاد من نجاحها أن أشور لم تكن تستطيع مواصلة غزواتها إلى الأبد، خاصة بعد أن عانت هي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسها أزمة جدية ترتبت على اضطرابات داخلية تعرضت لها في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، أفضت إلى توقف حملاتها السورية وتحول مملكة أورارتو إلى قوة عظمى تناثر أتباعها وحلفاؤها بين شمال سورية وإيران، فلم ينجح تِغلاتبلصَّر الثالث (745 - 727 ق. م) في تحطيم الطوق الذي ضربته حول ملكه إلا بجهد جهيد. هذه التطورات كشفت إفلاس ممارسات الآشوريين القديمة، التي أخذت صورة حملات نهب سنوية يقوم بها جيش فلاحين أنهوا حصادهم، وعبيد يعملون في الزراعة. وقد بادر تِغلاتبلصَّر إلى تأسيس جيش دائم من جنود محترفين ومرتزقة أجانب، تكفل بتماسكه الانضباط الصارم وأمل عناصره في الحصول على غنائم وفيرة. بهذا التنظيم الجديد للجيش، أمكن احتلال المناطق المستولى عليها احتلالاً دائماً، وإخضاعها لإدارة آشورية مباشرة، وإن تم في البداية التمسك بالنهج القديم المجرب، الذي قام على توظيف أتباع يدفعون التزامات ضريبية دائمة (شكل 33).

حظيت دول المدن الفينيقية بمعاملة آشورية أفضل من تلك التي عرفها جيرانها الداخليون، فتركت لها حرية حركة نسبية خدمت تجارة أشور مع مناطق. ما وراء البحار، وأفادت من روابط الفينيقيين القديمة معها. اعتمدت

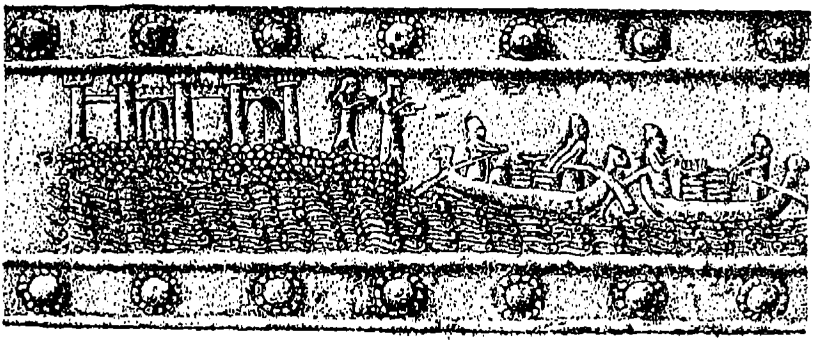

الشكل (32): اتاوة مدينة صور إلى سَلْمَنَصَّر الثالث. مجسّم برونزي على بوابة بَلوات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

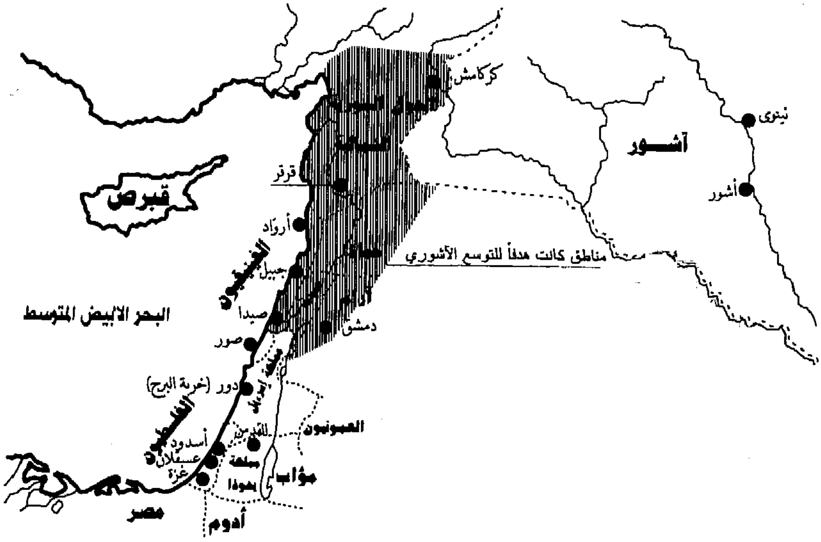

الشكل (33): اسيا الدنيا في حوالي عام 800 قبل الميلاد.

أشور كذلك على الأساطيل الفينيقية في عملياتها البحرية، التي بدأت بحملة في بحر إيجة وبالاستيلاء على قبرص في العام الأول من حكم سَرَغون الثاني (721 - 705 ق. م). في رسالة عثر عليها في حفريات نِمرود (قرب الموصل الحالية) كتبها موظف آشوري اسمه كردي ـ أشور ـ لامور يرجح أنه كانت له صلاحيات رقابية أيام الملك تِغلاتبِلصَّر الثالث، ثمة معلومات حول إمكانات دول مدن فينيقيا الاقتصادية / التجارية عند بداية السيطرة الآشورية. تقول الرسالة إنه ليس لنشاط ملك صور التجاري أي حد: «فعبيده يدخلون إلى البيوت التجارية ويخرجون منها، ويشترون ويبيعون على هواهم». منحت أشور صور حق التصرف الحر في استغلال غاباتها أيضاً، وإن أدت ضريبة مقابل ذلك إلى موظفين آشوريين يعملون في أماكن ترحيل الخشب، يرجح أنها لم كانت باهظة. يخبرنا كردي ـ أشور ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لامور أن الصيداويين طردوا جباة الضرائب، الذين سرعان ما عادوا بقوة السلاح إلى وظائفهم. بدورهم، حصل الصيداويون على حق استغلال غاباتهم استغلالاً غير مقيد، شريطة التقيد بالمقاطعة التجارية لمصر ومدن الفلسطيين. لم يكن وضع المدن الفينيقية سيئاً إذن في المملكة الآشورية. وهنـاك أدلة على أن ثروة صور الفخورة، التي يصفها سفر حزقيال (26:1 ـ 3) بإعجاب عام (585 ق. م) قد تم جنيها إبان السيطرة الآشورية.

إذا كانت تجارة فينيقيا قد ازدهرت رغم الأتاوات والتأديات الضريبية المرتفعة، ومستوى معيشة ملوك وتجار مدنها قد ارتفع، فإن هذا لا يجوز أن يحجب عنا حقيقة أنها فقدت استقلالها. لم تكن الدول السورية / الفلسطينية الصغيرة القائمة آنذاك، قادرة على الكفاح في سبيل استقلالها دون دعم من قوة كبرى. ولم يكن بمستطاع فينيقيا، كذلك، تعليق آمالها على مصر، التي عانت طوال مئتي عام حكم السلالتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، المتحدرتين من قادة مرتزقة مصريين / ليبيين، والتي تعرضت سلطتها المركزية لانحلال داخلي متزايد وسياستها الخارجية لضعف متفاقم. بيد أن الأمل بدعم مصر تجدد مع سلالة الملوك الأثيوبيين الخامسة والعشرين، التي استولت على السلطة عام (716 ق. م) وسارعت إلى انتهاج سياسة آسيوية فعالة معادية للآشوريين. تعلمنا حكم النبي إشعيا (إشعيا 18) أن بعثة أثيوبية وصلت إلى القدس. ويرجح أن روابط مشابهة أقيمت مع المدن الفينيقية، لذا، بدا وكأن فرصة التخلص من النير الآشوري قد دنت، خاصة بعد الفوضى التي أعقبت موت الملك سَرَغون الثاني عام (705 ق. م) ثم لاحت إمكانية النجاح مع انفصال بابل عن أشور، التي جعلت استعادة بابل هدفاً آشورياً يفوق في أهميته احتلالاتهما على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وصل مبعوثو ملك بابل مردوك ـ بالادان إلى أورشليم، ليجروا مباحثات مع حزقيا يهوذا، منظم الانتفاضة. فكان من الطبيعي أيضاً أن تقرر صور المشاركة في الانتفاضة، وتسارع إلى فرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقابتها من جديد على كِيتيُون القبرصية، التي كان سَرَغون الثاني قد فصلها عن ممتلكاتها. لكن سنحريب أشور (704 - 681 ق. م) تمكن من شن حملة سورية عام (701 ق. م) على العكس مما كان قد توقعه العصاة، في حين أخفق التحالف في تبني سلوك عسكري مشترك، فأجهز الملك الآشوري على أطرافه واحداً بعد الآخر، بادئاً بتسديد ضربته الأولى إلى إلوإيلي (لولي) ملك صور، الذي يبدو أنه انتظر الهجوم الآشوري في صيدا، شمال منطقة سيطرته. عندما هوجمت صور، لم يقاتل الصيداويون، بل خدموا مصالح مدينتهم وأعلنوا انفكاكهم عن سيادة صور، فلم يبق لإلوإيلي ما يفعله غير إنقاذ نفسه بالفرار إلى كِيتيُون في قبرص، بينما خضعت صيدا وبقية مدن منطقة صور، وكذلك أرواد وجبيل، للآشوريين دون مقاومة. لم يتردد سنحريب عندئذ في فرض نظام جديد على جنوب فينيقيا، وتعيين خلف لإلوإيلي هو توبالو من صيدا، الذي صار ملكاً على المدن التي كانت تحت سيطرة صور: «على عاتقكم ألقيتُ أتاوة وضريبة سيادتي، كل عام والى الأبد».

ألقى سنحريب عبء إخضاع الجزيرة المتشبثة بتمردها على كاهل تابعيه الفينيقيين. فحاول هؤلاء احتلالها بحملة بحرية من ستين سفينة، إلا أنهم منوا بهزيمة ماحقة أنزلتها بهم اثنتا عشرة سفينة تابعة لصور. عندما رجع سنحريب، بعد إعادة النظام الآشوري إلى فلسطين وإنزال هزيمة بالجيش المصري، فرض حصاراً كثيفاً على المدينة، التي صمدت طوال خمسة أعوام، ثم استسلمت بشروط يرجح أنها كانت مقبولة.

إنها لواحدة من سخريات التاريخ أن يكون عبديميلكوتي، خليفة توبالو على صيدا، قد ارتكب بعد عقدين الغلطة نفسها التي كان قد ارتكبها ذات يوم إلوإيلي ملك صور، لا سيما أن الوضع كان غير ملائم هذه المرة أيضاً للتمرد. بعد مقتل سنحريب، تصارع أصغر أبنائه واسمه أسرحدون (681 - 669 ق. م) مع اخوته على العرش، فلم يكن نجاح الأمير الشاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في فرض نفسه مؤكداً. وقد بحث المتمردون هذه المرة عن حلفاء لهم في الشمال، أي في كِلِيكْيا. عندما امتنع هؤلاء عن دفع الضرائب، بادر أسرحدون الذي كانت سلطته تتعزز بسرعة، إلى القيام برد شديد عام (677 ق. م) لم يسبق لفينيقيا أن شهدت مثيلاً له: «لقد سويت صيدا، المدينة المحصنة والواقعة وسط البحر، بالأرض. لقد دمرت الأسوار والبيوت ورميتها في البحر... وبتوجيه نبوي من أشور، سيدي، اصطدت ملكها عبديميلكوتي، الذي كان قد فر من أسلحتي إلى البحر، كما تصاد السمكة، وقطعت رأسه. أما زوجته، وأبناؤه، وبناته، ورجال بلاطه، وذهبه، وفضته، وتحفه، وأحجاره الثمينة، وثيابه الصوفية والكتانية الملونة، وجلود فيلته، وعاجه، وخشب إبنوسه وزانه وبقسه، وكل ما هو نفيس في قصره، فقد حملته بكميات كبيرة، بينما جررت إلى أشور رعاياه، الذين كانوا بلا عدد، وعجوله، وحيواناته الصغيرة، وحميره...». إلى جانب صيدا المدمرة، أنشِئَت مدينة جديدة أطلق عليها اسم ملك الآشوريين المنتصر، أسكن فيها قاطنو الساحل ومرحّلون من مناطق نائية في مملكته. بينما وضعت منطقة صيدا السابقة تحت إشراف حاكم تابع لأسرحدون، باعتبارها إقليماً من أشور.

خرجت صور غانمة، لأنها بقيت موالية لأشور هذه المرة. لذلك أضاف أسرحدون الصرفند ومدينة أخرى إلى ممتلكاتها، ونظم باتفاقية مع ملكها بعل صور علاقات أشور بالمدينة التي استعادت من جديد موقعها كأحد من أهم مراكز التجارة الآشورية على الساحل الفينيقي.

في القسم الذي بقي سليماً من النص، ثمة وصف لوظيفة الحاكم الآشوري المقيم في صور، الذي يتمتع بصلاحية إصدار التوجيهات إلى ملكها وأعيان المدينة، ومنع فتح وقراءة رسائل أسرحدون إلى الملك في أثناء غيابه. هذا التدبير الحصيف حال دون تلك الازدواجية في الإدارة، التي سببت متاعب كثيرة للمصريين قبل بضعة قرون. تحتل أهمية خاصة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النص البنود القانونية البحرية: «إذا ما جنحت سفينة لبعل صور أو للصوريين على الساحل الفلسطي أو غيره من المناطق الآشورية، يصير كل ما في السفينة ملكاً لأسرحدون، ملك أشور. أما الرجال الذين يكونون على السفينة، فلا يسمح لأحد بإزعاجهم...». ليست هذه البنود بحد ذاتها تدابير ذات طبيعة ضاغطة، بل هي تتفق مع الوضع القانوني العادي الذي بقي سائداً بوجه عام إلى القرن الماضي، بينما تنصب البنود الأخرى على المرافئ المفتوحة أمام سفن صور، وعلى شروط السماح بفتح وكالات للمقيمين من مواطنيها فيها. بوجه عام، قدم الاتفاق أرضية قانونية ملائمة لتجارة صور البحرية، واتفق. مع مصالح أشور في آنٍ معاً. أما إذا ما تأملناه بمنظار سياسي، فإن مضمونه سيبدو لنا أقل إيجابية، لأنه (يشرعن) خسارة مناطق الساحل، التي كانت خاضعة لرقابة صور حتى عام (701 ق. م) باستثناء نتوء الصرفند الصغير. يلقي هذا الضوء على سبب اندلاع انتفاضة مدعومة مصرياً بعد حين لاستعادة ما كان قد خسره. يقول أسرحدون عن هذه الواقعة، بالارتباط مع حملته في عام (671 ق. م): «... حفرت حفراً لمحاصرة بعل، ملك صور الذي وضع ثقته في تِرهاكا، ملك النوبة...». في الواقع، لم يفرض الملك الآشوري حصاراً شديداً على المدينة، بل واصل سيره السريع واستولى على مصر خلال وقت قصير. عندئذ احتاج إلى أسطول صور من أجل ضمان أملاكه وترحيل غنائمه الكثيرة؛ فتم تفاهم سريع معها أبقى بعل ملكاً مقابل قيامه بدفع الضرائب وتخليه عن بقية ممتلكاته البرية الداخلية.

بذلك، انتقلت فينيقيا بأسرها تقريباً إلى إدارة آشورية غير مباشرة، وانتظمت ممتلكات الآشوريين في ثلاثة أقاليم، اتخذ حكامها لأنفسهم مقرات رئيسة في سِميرا، (مدينة أسرحدون) المنشأة حديثا قرب صيدا، و(أُوشُو) والقسم البري من صور. ولم تبق من إدارة ذاتية إلا في المدن - الجزر التي تعذر قهرها: أرواد وصور وكذلك جبيل، التي ابتعد ملوكها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بذكاء عن المؤامرات ضد الآشوريين. بعد قليل، التقى بعل ملك صور مع ملك أرواد وجبيل في عصبة الأتباع الاثنين والعشرين (للأرض البحرية) لدعم حملة أشوربانيبال (669 ق. م - 626 ق. م) براً وبحراً ضد تِرهاكا.

لا نعرف السبب الذي دفع ببعل إلى القيام عام (665 ق. م) بمحاولة تمرد أخيرة ضد أشور، وكل ما نعرفه أن أشوربانيبال اتهمه بعدم احترام (أمره الملكي). قد يكون الباعث على شن حملة جديدة ضد صور موجوداً لدى الملك الآشوري نفسه، الذي يرجح أنه أراد ضم المرافئ الفينيقية المستقلة نسبياً إلى أقاليمه. يؤيد هذا التقدير أن حملته استهدفت أيضاً ياكِنلو، ملك أرواد «الذي لم يخضع لآبائي الملوك». يلقي كذلك بعض الأضواء على خلفية الأحداث رسالة بعث بها حاكم الدولة الآشوري إتّي - شمش - بَلَتُو من سِميرا، المكلف بالإشراف على المدينة / الجزيرة، يشكو فيها بمرارة من يَكِنلُو، الذي يدير العمل في مرفئه بالقوة، ولا يحجم عن تدمير السفن التي في طريقها إلى مرافئ آشورية، وشاركه أفعاله موظفون آشوريون أودعوا أموالهم لديه. توضح هذه الرسالة أن الفساد لعب دوراً في الأحداث، ذلك أن أرواد وصور لم تقاوما إغراء جني ثروات طائلة، أكبر بكثير مما هو مسموح به لهما من صفقات حول الغنائم المصرية. في نهاية الأمر، خضع الملكان في الوقت المناسب، وقد دفع بعل الضرائب، وأرسل ابنته وعدداً من حفيداته بهدايا وافرة إلى حريم الملك الآشوري. أما ابنه الرهينة، الذي لم يكن قد سبق له أن غادر الجزيرة أبداً، فقد أعاده آشوربنيبال إليها.

بذلك، استقرت الأوضاع في فينيقيا. فلم تحاول صور وأرواد الانفصال من جديد عن أشور، حتى عندما تم تحرير مصر عام (655 ق. م) في ظل بْسَامْتِخ الأول، مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، وإن رفض قوم (أُوشُو) دفع الضرائب خلال الانتفاضة التي هزت مملكة أشوربنيبال بين عامي (650 و 648 ق. م). بعد عودته من إخضاع العرب الذين شاركوا في الانتفاضة، أخضع الملك الآشوري سكان إقليم (أُوشُو) لإجراءات قاسية: «اقتدت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلهتهم ورجالهم كغنائم إلى أشور. أما أهل العصاة، فقد قتلتهم وعلقت جثثهم على عصي أحطت بها المدينة. في حين جلبت معي الأحياء إلى أشور ودمجتهم في جيشي...».

بدأ انحدار أشور قبل موت الملك أشوربنيبال، و ربما رجع أحد أسبابه إلى غزو مجموعات الخيالة السكيثيين الذين تقدموا إلى أن بلغوا فينيقيا. في أجواء التراجع تلك، استطاع عزيًّا حاكم مملكة يهوذا التملص منذ حوالي عام (626 ق. م) من رقابة أشور، بل إنه ضم جزءاً من مقاطعة سمر الآشورية إلى إقليمه. من جانبها، بدأت بابل، وارثة أشور في السيطرة العالمية، تتخلص من السيادة الآشورية العليا. كما تغيرت خطوط جبهة السياسة الدولية، حين انحازت مصر إلى الآشوريين الضعفاء، كي تتدخل بفاعلية فيما بعد، عندما ستنعدم إمكانية إنقاذهم ويصير بوسعها أخذ سورية وفلسطين. عندما احتلت قوات الفرعون نِكُو عام (609 ق. م) كِركامِش، اكتملت استعادة جميع ممتلكات تحتمس الثالث الآسيوية. بيد أن مصر الأسرة السادسة والعشرين لم تمتلك القوة اللازمة لتوطيد سيطرتها على هذه المنطقة الكبيرة. لذلك، ما إن حل عام (605 ق. م) حتى كانت كِركامِش في يد بابل الجديدة، ثم سقط بعد ذلك بقليل ساحل الشرق الأدنى بأكمله. رغم ذلك، أحيت مصر آمال الدول الصغيرة، التي تجاوزت العصر الآشوري وخضعت الآن للسيطرة البابلية، بإمكانية تلقي مساعدة تعينها على التحرر. ومع أن مندوبي هذه الدول، أي عمون وموآب وأدوم وصور وصيدا، اجتمعوا عام (549 ق. م) في أورشليم، فإنهم لم ينجحوا في الاتفاق على سلوك مشترك، لأن الآخرين لم يؤيدوا مسعى يهوذا لاسترداد المناطق التي كانت قد فقدتها بعد انتفاضتها الأولى سنة (598 ق. م). أما رحلة الحج التي قام بها الفرعون بْسَامِّتخ الثاني بصحبة عدد كبير من الكهنة، وتوجه خلالها إلى فينيقيا ووصل على الأرجح إلى جبيل (سنة 591 ق. م) فلم يكن لها غير قيمة دعائية صرف. فالسلطات البابلية لم تستطع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعتراض على زيارة الفرعون ذات الخلفيات الدينية، التي كان يمكن أن تؤدي إلى إحياء الارتباط الوثيق بين فينيقيا وبلاد النيل، بل إنها أحيته بالفعل. فعندما صمم صدقيا حاكم مملكة يهوذا على القيام بانتفاضة عام (588 ق. م) وصلته مساعدات مصرية، إلا أنها كانت ناقصة فلم تحل دون هلاكها. بالمقابل، حققت إدارة الحرب البحرية المصرية بعض النجاح، وإلا لما تجرأ ملك صور وانفصل عن نبوخذنصّر الثاني، بينما كان مصير يهوذا لا يزال ماثلاً أمام عينيه. يرجع حزقيال أسباب الانفصال إلى تجبّر أغنياء صور، ويعلن ثقته بأن المدينة لن تستطيع الصمود لهجوم نبوخذنصّر: «فيدمرون أسواركِ ويهدمون بروجكِ. وأجرفُ ترابكِ عنكِ وأجعلكِ صخراً عارياً. فتصيرين منشراً لشباك الصيادين في وسط البحر، وتكونين نهباً للأمم. فيخربون ضواحيكِ في البرية فيعلمون أني أنا هو يهوه» - (حزقيال 26:4 - 6). غير أن صور صمدت ثلاث عشرة سنة (585 - 573 ق. م) واضطرت حزقيال لسحب نبوءته: «حشد نبوخذنصّر ملك بابل جيشه على صور وبالغ في إجهاده حتى صار كل رأس أقرع وكُل كتف مسلوخة من العَمل (من حمل قفف تراب الحفر) ولكن لا هو ولا جيشه حصل من صور على أجرة...» - (حزقيال 29:18). لقد نجت صور، لكنها فقدت المركز الأول

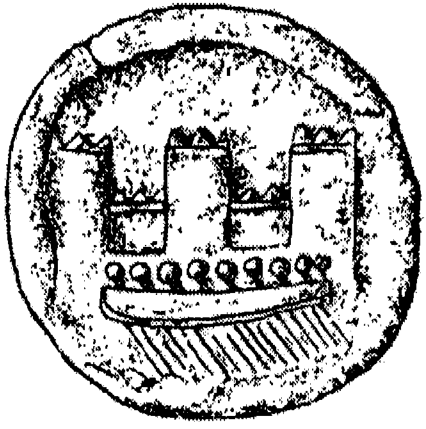

الشكل (34): سور مدينة صيدا منقوش على قطعة نقدية تعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي كانت تحتله بين مدن فينيقيا. أفادت صيدا الناهضة من جديد من اندثار منافستها (شكل 34) وزاد من توطد مكانتها أن داريوس الأول (520 - 483 ق. م) جعل منها مقراً إدارياً لواحد من عشرين حاكماً للإمبراطورية الفارسية، بعد أن سقطت منطقة ساحل الشرق الأدنى في أيدي الأخمينيين دون قتال عام (538 ق. م).

قبلت مدن فينيقيا تراجع سلطتها وثروتها منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد نتيجة توسع الممالك الكبرى لبلاد ما بين النهرين، واهتزاز احتكارها لتجارة البحر الأبيض المتوسط تحت وطأة منافسة إغريقية متزايدة، اقتدت بالنموذج الفينيقي فأسست مستعمرات نشأت أول الأمر على سواحل الإغريق الخالية من المستعمرات الفينيقية على البحر الأسود، ثم أدخلت صقلية في مجال استعمارها، إلى أن أسست إسبرطة سيرينايكا (برقة) عام (681 ق. م) فكانت أول مستقر إغريقي على الساحل الأفريقي. بعد قليل، نشبت مواجهات مسلحة وشهد عام (600 ق. م) هزيمة القرطاجيين، الذين أرادوا إحباط محاولة تأسيس مستقر في مَسَاليا (مرسيليا) قام بها إغريق فوكيون يونيون عرفوا كقراصنة بحريين مرهوبي الجانب.

في هذه الأثناء، برزت مصر كمنافس إضافي. فقد أدرك الفرعون نِكو (609 - 594 ق. م) ضرورة البدء بتجهيز أسطول بحري حربي، وأمر أن تكون سفنه من طراز سفن الإغريق ذوات الثلاثين مجدافاً، على أن تتركز مهماته على ضمان ممتلكات مصر في الشرق الأدنى. مع احتلال أماسِس (568 - 526 ق. م) قبرص، خضع جزء كبير من التجارة البحرية للرقابة المصرية، وإن بصورة مؤقتة. أخيراً، وفي القرن السادس قبل الميلاد، بدأت روما بدورها تظهر على مسرح الصراع من أجل السيطرة البحرية في البحر الأبيض المتوسط، فاعترفت عام (509 ق. م) اعترافاً تعاقدياً بسيطرة قرطاجنة على غربي البحر الأبيض المتوسط، وتوصلت إلى ترتيب معها حول إجازات الرسو في حالات الطوارئ نص على أنه: «لا يجوز لروما وحلفائها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإبحار في ما وراء برمونتريوم بولخاروم [رأس فارينا، غرب قرطاجنة مباشرة]، إلا إذا أجبرتهم على ذلك عاصفة أو قوى معادية. فان حدث أن دفع أحد ما إلى هناك بالعنف، فانه لن يسمح له عندئذ بشراء أي شيء، كما لا يسمح بأخذ أي شيء منه، باستثناء ما يحتاج إليه من أجل إعادة ترميم مركبه أو تقديم أضحية...».(2)

أعطى صعود إمبراطورية الأخمينيين مدن الشرق الفينيقية الأمل بإمكانية الحد من منافسة الإغريق والمصريين، تيمناً بما كانت قد حققته قرطاجنة في الغرب حيال روما. وقد احتل قورش الثاني كل آسيا الصغرى تقريباً وجزءاً من جزر بحر إيجة منذ عام (546 ق. م). كان الأخمينيون قوة عالمية قيد النشوء، نجحت منذ المحاولة الأولى في دفع حدودها عميقاً داخل المجال الحضاري الإغريقي. وقد وافق الاتجاه الذي أخذه التوسع الفارسي تطلعات الفينيقيين، الذين انفردوا بالقدرة على وضع أسطول قوي في تصرف الفرس، يمكّنهم من مواصلة تغلغلهم غرباً، ويستعيد في الوقت نفسه تفوّق فينيقيا في تجارة البحر الأبيض المتوسط البحرية، باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية العالمية الجديدة. وبالفعل، احتل قمبيز، خليفة قورش، عام (525 ق. م) قبرص ومصر وليبيا ومستعمرات الإغريق في شمال إفريقية بمعونة الأساطيل الفينيقية. ثم احتل داريوس الأول عام (517 ق. م) مقدونيا وثراقيا حتى نهر الدون. وكانت المدن الفينيقية قد أخذت تسترد ألقها بالفعل في هذه الفترة، فأصبحت صيدا مركزاً إدارياً للولاية الخامسة التي امتدت من حدود قبرص إلى نهر دجلة، وأحرزت حق إدارة نفسها ذاتياً، شأنها في ذلك شأن أرواد وجبيل (شكل 35). واستعادت صور ممتلكات برية امتدت من الصرفند إلى الكرمل، ووعدت بالحصول على عسقلان: «... أعطانا سيد الملوك دور ويافا، وأراضي الحبوب الغنية في سهل شارون، مقابل

2. Polybius, *Historiai* III 22..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأعمال الجبارة التي قمت بها»، هذا ما يقوله إشمونَصَّر، ويضيف: «وأضفناها إلى حدود البلاد، لتكون ملكاً أبدياً للصيداويين...».

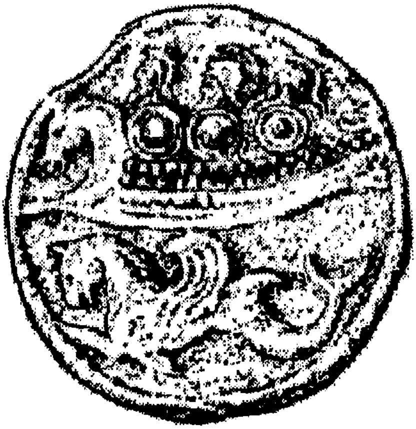

الشكل (35): قطعة نقدية فضية من جبيل تعود إلى العصر الفارسي، ويظهر عليها جنود. وفي القسم السفلي المخلوق البحري المجنح (فرس البحر).

لم يكن حديث «الأبدية» في محله، بطبيعة الحال، فقد نشبت عام (500 ق. م) انتفاضة في مدن آسيا الصغرى الإغريقية سحقت وأغرقت في الدماء، لكن محاولات إخضاع جميع بلاد الإغريق للسيطرة الفارسية أخفقت منذ بدايتها، لأن الأسطول الفارسي، المكون أساساً من وحدات فينيقية، هلك بسبب عاصفة هوجاء هبت عليه عند رأس أثوس عام (492 ق. م) في حين جاء عام (480 ق. م) بالمنعطف الحاسم لصالح الإغريق المقاومين، الذين أبادوا الأسطول الفارسي / الفينيقي في معركة بحرية نشبت قرب سالاميس. تقول روايات العصر القديم إنه تمت في اليوم نفسه معركة قرب هِيمِرا في صقلية، شهدت بدورها هزيمة القرطاجيين أمام الحشد الإغريقي.

تبدد حلم المدن الفينيقية ومستعمراتها باستعادة السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وكان عليها أن تصحو من أوهامها بعد انتفاضات بابل ومصر، التي أظهرت أن الإمبراطورية الفارسية تخطت نقطة الذروة من قوتها. بعد الصحوة، جاءت مرحلة إعادة النظر في التوجه العام، فتم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاشتراك مع قرطاجنة نقل التوسع الاقتصادي / التجاري إلى سواحل الأطلسي؛ وانضمت صور وحلفاؤها وعتيقة في شمال إفريقية إلى الاتفاقية الثانية حول حقوق التجارة والإقامة، التي عقدت عام (348 ق. م) بين قرطاجنة وروما. بخلاف قرطاجنة، انفتح الفينيقيون على المؤثرات الإغريقية أيضاً، وكانت مصالحهم التجارية قد أدت إلى قيام تعاون مع الدول الإغريقية قبل ذلك بوقت طويل، حوّلهم من منافسين إلى شركاء لها. بالإضافة إلى ذلك، كانت اتفاقية السلام مع فارس (عام 448 ق. م) قد جعلت من أثينا مركزاً تجارياً مهماً، وهذا دفع الصيداويين إلى إقامة مستقر خاص بهم على قدر عظيم من الأهمية فيها، أثناء هذه الفترة. ثم عرفت العلاقات انتعاشاً ملحوظاً مع انحياز فارس إلى أثينا في الصراعات التي نشبت بينها وبين إسبرطة بعد عام (370 ق. م) بقليل. يشهد على ذلك قرار أثينا المكتوب بتنظيم علاقاتها بصيدا، الذي يعالج بالتفصيل قضايا التواصل الديبلوماسي وإعفاء التجار الصيداويين من الضرائب. في هذا الوقت، ظهر أيضاً التأثير الإغريقي المتزايد في الفن. إذا كانت نماذج التوابيت الحجرية الأقدم، التي كانت مخصصة لدفن أثرياء الموتى من الفينيقيين، بقيت مصرية الصنع في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، فإن فن النحت الإغريقي أخذ في القرن الرابع يطبع بطابعه التمثيلات المصورة على جُدر هذه التوابيت.

تلقى توجه المدن الفينيقية الموالي للإغريق تحفيزاً قوياً بسبب سوء السياسة الاقتصادية خلال حكم أرتَكْسِيرِكْسِس الثاني الطويلة (404 - 358 ق. م). عندما استولى ملك الإغريق أُوياغوراس في سالاميس من قبرص على أجزاء من السواحل البرية عام (383 ق. م) أبدت صور، التي لم يكن قد يسبق لها أن منيت بهزيمة، مقاومة رمزية، مكّنت الملك من ضم عشرين سفينة من سفنها ذوات المجاديف الثلاثين إلى أسطوله، بعد استيلائه عليها مباشرة. لكنه لم يكتب لمشروع أُوياغوراس غير نجاح عابر، شأنه في ذلك شأن انتفاضة الولاة في غرب الإمبراطورية الفارسية، الذين اعتقدوا أن تحويل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاياتهم إلى دول مستقلة صار قابلاً للتحقيق، بعد إخفاق حملة أرتَكْسِيركْسِيس الثاني ضد مصر عام (373 ق. م). من جانبها، كانت الحملة التي قام بها الفرعون تِؤس (تَخُوس) عام (360 ق. م) في سورية، وأحرزت شيئاً من النجاح أول الأمر، محض حدثٍ عابرٍ أيضاً، وإن كان الاحتلال المصري عزز الطموح الاستقلالي لدول المدن في لبنان، بعد أن أفضت تدابير الإدارة الفارسية المتزايدة التعسف، والضرائب والتأديات المتكاثرة المخصصة للجيش، إلى جعل السيطرة الفارسية أمراً يصعب احتماله، وزادت من فرص نجاح انتفاضة جديدة. لم يكن التدخل العسكري لأرتَكْسِيركْسِيس الثاني هو الذي أبعد خطرِ ضياع الأقسام الغربية من إمبراطوريته في الستينات. إن ما أبعده كان إخفاق انتفاضة الولاة بسبب التنافس والرشوة والخيانة، وإخفاق حملة تِؤس بسبب النزاعات المصرية الداخلية. كما لعب دوراً في الإخفاق أن مخاطره لم تكن كبيرة، فقد حظي أُوياغوراس، مثلاً، بمعاملة كريمة من الفرس، رغم أنه خاض حرباً متواصلة ضدهم طوال عشرة أعوام (380 ق. م) مني فيها بهزيمة تامة.

في هذه الظروف، بدأ العمل من أجل الاستقلال في أعقاب انسحاب قوات الفرعون تِؤس مباشرة، فانضمت اكثر المدن الفينيقية أهمية إلى اتحاد شكّلته فيما بينها جعلت مقره طرابلس، المدينة التي تأسست في العصر الفارسي، واستخدمتها صيدا وأرواد وصور كمرفأ وكمركز صناعي مشترك. اقتدى الاتحاد في تنظيمه بالنموذج الإغريقي، فأسس «برلماناً» ينعقد كل عام، شاركت كل واحدة من المدن فيه بمئة مندوب، قام بإعلان استقلال فينيقيا عام (350 ق. م) عندما مني أرتَكْسِيركْسِيس الثالث (358 - 338 ق. م) بهزيمة نكراء في محاولته لاحتلال مصر من جديد. عقب قرار البرلمان، تمرد السكان ضد الإدارة الفارسية. ومع أن قيام الملك الكبير بتدابير مضادة كان مستبعداً، فقد اتخذت إجراءات مدروسة للدفاع كتجنيد المرتزقة، وتخزين المؤن، وقطع الأرْز من المحميات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملكية واستخدامه في تعزيز الأسطول. بيد إن الانتفاضة أخمدت دون كبير عناء بعد بضعة أعوام (عام 343 قبل الميلاد في أبعد تقدير).

ألقت الخيانة بظلها العاتم على الأحداث. فقد توجه الملك الكبير بجيشه دون إبطاء إلى صيدا، أكثر مدن الفينيقيين أهمية. قبل أن يصل إلى ضاحيتها القريبة، مثل ملكها تِنّس في معسكره عارضاً إدخاله دون قتال إلى مدينته ودعم حملته العسكرية الوشيكة ضد مصر. هذا العرض كان مغرياً إلى درجة جعلت قبوله متعذراً. عندئذ، انسحب تِنّس يصحبه مندوبو مواطني صيدا المئة الذين كانوا روح الانتفاضة، وخمسمئة جندي من المدينة، بدعوى الذهاب إلى طرابلس لحضور جلسة للاتحاد. غير أن أرتَكسِيركْسِيس أسر الرجال الستمئة في موقع قريب من معسكره وأمر بشنقهم. وحرك، في الوقت نفسه، قواته نحو صيدا، فأدخله إليها المستشار المتواطئ مع تِنّس، قائد فرقة المرتزقة الإغريق المكونة من أربعة آلاف رجل، التي كان نِكتانِبُوس الثاني المصري قد أرسلها لدعم المدينة. دافع السكان الذين أذهلتهم المفاجأة عن أنفسهم بشراسة. وفضل كثيرون منهم أن يهلكوا بين أنقاض مدينتهم المحترقة على أن يباعوا عبيداً. أما تِنّس، فقد نال بدوره الأجر الذي كان يستحقه، حين أمر الملك الكبير بشنقه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسكندر والسلوقيون

«فإن قهرنا صور، مكننا ذلك من امتلاك فينيقيا بأسرها...»[1]

كان انتصار ملك مقدونيا الشاب على جيش الإمبراطورية الفارسية العالمية العملاق مفاجئاً. وكانت مفاجئة أيضاً السرعة التي وطد الإسكندر بها انتصاره في معركة إسوس في نوفمبر من عام (333 ق. م). فقد نظم للتو إدارة عسكرية في كِليكيا واحتل دمشق بقوة استطلاع متقدمة، قبل أن تسير كتلة جيشه الرئيسة بعد فترة قصيرة إلى الجنوب، لتصل في كانون الثاني من عام (332 ق. م) إلى ساحل فينيقيا الشمالي، الذي كانت تتآكل الإسكندر رغبة جامحة في إخضاعه. وجدت المدن الفينيقية نفسها أمام خيار صعب، فقد كانت راغبة في التخلص من السيطرة الأجنبية ثقيلة الوطأة من جهة، وكان مصير صيدا مايزال ماثلا أمام عينيها، من جهة أخرى، يخوفها من التهور والانتقال علناً إلى جانب غازٍ معرفتها به قليلة، تبدو فرص نجاحه غير مؤكدة، بعد استيلاء أرتَكْسِيركْسِيس الثالث من جديد على مصر (سنة 341 ق. م) ووصول الإمبراطورية الفارسية إلى ذروة انتشار جديدة لقوتها. وزاد من صعوبة الأمور أن قرار التسليم أو المقاومة كان يجب أن يتخذ في غياب ملوك أكثر المدن المرفئية أهمية، بعد أن وجد ملوك أرواد وجبيل وصور أنفسهم مكرهين على مرافقة سفنهم إلى بحر إيجة، في سياق التعبئة العامة للأسطول الفارسي مطلع عام (334 ق. م) بعد أن

1. Rede Alexanders, Arrian, *Anabasis Alexandri* 217.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انضوت سفن صيدا بدورها في الأسطول الإمبراطوري، وأخذت تتلقى أوامرها من ملك جبيل، الذي كانت مدينته قد احتلت موقع المدينة المدمرة في نظام المدن الفينيقية.

لم يكن القرار الذي اتخذ في غياب الملوك موحداً. قبل أن يجتاز الإسكندر سهل إلويثِرُس ويبلغ الساحل، سارع ستراتون ابن ملك جزيرة أرواد لملاقاته معلنا استعداده للاستسلام مقابل الحفاظ على ممتلكات أرواد البرية الواسعة وحمايتها من التدمير. حذت المدن الساحلية الأخرى بسرعة حذو أرواد. بل إن سكان صيدا المدمرة استقبلوا بالهتاف المقدونيين المحررين الذين سيخلصونهم من النير الفارسي. عندئذ، بادر الإسكندر إلى منح المدينة ملكية أرضية، وأعاد إليها الحكم الذاتي، وأسند إدارتها إلى فرد من الأسرة الحاكمة القديمة، كان يعيش حتى ذلك الوقت من عمله بستانياً.

بدا أن كل شيء يسير على أفضل ما يكون مع صور أيضاً. فقد ذهب وفد من وجهاء المدينة يضم ابن الملك الغائب مع الأسطول، لمقابلة الإسكندر وتأكيد رغبته في الخضوع لمطالبه. أخفى الإسكندر مطالبه الأخرى تحت الرغبة في زيارة صور وتقديم أضحية لإلهها مِلقارت. لكن الصوريين، غير الموافقين على دخوله مدينتهم، دعوه لزيارة معبد مِلقارت القائم على البر وتقديم أضحيته فيه، قائلين إن بقاءهم على الحياد يفرض عليهم إغلاق مدينتهم بوجه الفرس والمقدونيين على حد سواء. لم يكن حياد صور مما يخدم الإسكندر، الراغب في امتلاك مدن فينيقيا الساحلية، لأن ذلك يفصل الأسطول الفارسي عن قواعده ويتيح له الاستيلاء على سفن صور الحربية الثمانين، ليحمي بها خطوطه الخلفية المهددة بسيطرة الفرس على البحر. بغير تحقيق هذين المطلبين، كان من الصعب على الإسكندر التفكير باستئناف الحرب ضد داريوس الثالث. وبالنظر إلى أن الزمن كان يضغط عليه، فقد اتخذ تدابير عسكرية للاستيلاء على جزيرة صور، وركز جهوده أول الأمر على حرمانها حمايتها الطبيعية، وشرع يردم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمتار التسعمئة التي تفصلها عن البر بركام أحد السدود. بيد أن سكان صور نظروا بهدوء إلى أعمال الإسكندر، التي كانت توقفها بين فينة وأخرى تدابيرهم المعاكسة الفعالة. وزاد من ثقتهم بأنفسهم أن آلات الحصار، المنصوبة على السد، لم تكن تستطيع الضغط إلا على جزء صغير فقط من سور المدينة ركزوا بدورهم دفاعاتهم عليه. لهذا، لم يأت الاختراق الحاسم الذي أدى إلى سقوط المدينة، من السد.

في هذا الوقت، كان الإسكندر يكثّف جهوده لتجهيز أسطوله، فاستطاع تركيب بعض القطع البحرية في منشآت جديدة أقامها داخل ترسانات مرفأ صيدا لبناء السفن. ثم أتاه مدد هائل جسدته قطع البحرية الفينيقية التي رجعت في مطلع الصيف من بحر إيجة، لان قباطنتها انفصلوا عن الأسطول الإمبراطوري لمحض سماعهم نبأ تسليم مدن فينيقيا إلى الإسكندر. هكذا لم يكن لدى هؤلاء ما يفعلونه غير الانصياع لشروط الملك المقدوني، ومحاصرة صور بالاشتراك مع أسطول قوي من قبرص ووحدات أخرى مختلفة أصغر منه. تحت ضغط هذا التفوق البحري، انسحبت وحدات صور البحرية إلى المرفئين المغلقين، وصار وصول أي عون خارجي إليها مستحيلاً. أما سفينة قرطاجنة المقدسة، حاملة بعثتها إلى العيد السنوي للإله مِلقارت، فقد كانت وصلت إلى صور وخضعت بدورها للحصار. استطاع الصوريون استغلال لحظة مناسبة، فأخرجوا بطريق البحر قسماً من سكان مدينتهم غير القادرين على القتال. بينما اتسمت المعارك، التي امتدت إلى شهر آب من عام (332 ق. م) باستخدام وسائط تقنية مبتكرة على الجانبين، قبل أن يتقرر مصير المدينة مع نجاح أسطول الإسكندر في تطهير الممر المائي المحيط بسورها من العوائق الصنعية، رغم محاولات الصوريين اليائسة لمنعه من ذلك، واستخدامهم وسائل قتال مختلفة بينها غواصون مقاتلون. منذ تلك اللحظة، صارت سفن الآلات قادرة على الرسو ونصب أبراج وكباش القتال حول الأسوار، التي ما لبث هجوم عام أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسقطها بسرعة. وقد حمل احتفال الإسكندر بالنصر نكهة خاصة، عندما قدم أضحيته في معبد مِلقارت.

لم يتخذ الإسكندر تدابير ضد صور كتلك التي اتخذها الآشوريون والفرس ضد صيدا، ولم يفكر بتدمير ما استولى عليه بتضحيات هائلة. كانت صور، بوصفها قاعدة للأسطول ومركزاً تجارياً خاضعاً للملكية مقدونيا المباشرة، ذات قيمة لا تقدر بثمن بالنسبة لسيطرة الإسكندر على العالم. لذلك استعادت عافيتها بسرعة، وأسهم في عودتها إلى حياتها العادية إبقاء المقدوني على حياة ممثلي شرائحها العليا، الذين كانوا قد لجؤوا إلى معبد مِلقارت مع رسل قرطاجنة إلى عيد الأخير، وسماحه بعودة الهاربين من سكانها إلى بيوتهم بعد وقت قصير، كان الصيداويون قد سمحوا لقسم منهم بالالتجاء إلى سفنهم، تدفعهم إلى ذلك أواصر قربى أنستهم تناقضاتهم معهم، فأنقذوهم من الموت أو من البيع عبيداً. كانت خسائر السكان مرتفعة جداً، قدرها كتّاب من العصر القديم بستة إلى ثمانية آلاف قتيل سقطوا في المعارك، وألفين إضافيين صلبوا بعد الاستيلاء على المدينة. هذه القسوة تصير مفهومة بعض الشيء، إذا ما علمنا أن مقاتلي صور كانوا يخنقون أسرى جيش الإسكندر على أسوار المدينة ويلقون بجثثهم من فوقها، ليدمروا معنويات أعدائهم.

قصد الإسكندر صور من جديد مطلع عام (331 ق. م). لقد جاء متوجاً بأمجاد محرر مصر من السيطرة الفارسية، فصاحبت إقامته استعراضات، ومباريات رياضية، وحفلات تمثيلية ثقافية شارك فيها أكثر ممثلي الإغريق أهمية، إلى جانب جوقات رجال ملوك قبرص الشهيرة. بينما تلقى مِلقارت، الذي تمت مماهاته مع هرقل، أضحيات وافرة. إلا أن الاستعدادات لاستئناف الحرب ألقت بظلها على الاحتفال المتألق. وتأهب التجار الفينيقيون لمرافقة الحملة العسكرية إلى داخل الإمبراطورية الفارسية، ليتولوا تثمين الغنائم المرتقبة بأنفسهم. في حين عملت الورش من أجل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجهيز جيش الإسكندر، وبدا أن آفاقاً رحبة ستنفتح أمام بناء السفن والملاحة، إذا ما تحققت خطط المقدوني الطموح في السيطرة على العالم والتجارة العالمية. طلب الإسكندر مساعدة بناة السفن والبحارة الفينيقيين مما قاد إلى حدث مثير تقنياً، لأنه عنى نقل سفن قابلة للتفكيك إلى الفرات عام (324 ق. م) وأدى إلى وصول بحارة وعبيد مجدفين من فينيقيا إلى معسكر جيش الإسكندر في بابل، إلى جانب صيادين وحتى قواقع أرجوان حية، بعد أن شاع أن المقدوني يريد استغلال السواحل العربية الشرقية بواسطة معمرين فينيقيين. لكن وفاة الغازي وضعت نهاية مبكرة لتلك الخطط كلها.

قدم تقسيم إمبراطورية الإسكندر العالمية بين قادة جيوشه مادة صراعات متفجرة وطويلة الأمد، رغم الحفاظ على وحدتها الوهمية تحت قيادة وصي تولى إمرة جيشها. غدت المدن الفينيقية مطمع المتصارعين على تركة الإسكندر في أجزاء الإمبراطورية التي تطورت تدريجياً إلى دول مستقلة، لأن امتلاكها كان يعني السيطرة على مراكز تجارة آسيا التقليدية، وامتلاك مرافئ وترسانات بحرية تستطيع بناء وصيانة أسطول قوي، وكسب موقع استراتيجي متميز يمكن الانطلاق منه لتحقيق خطط سياسية واسعة الأبعاد. لئن كانت مدن لبنان قد عجزت عن ممارسة سياسة خاصة ونشطة في عصر خلفاء الإسكندر، فان حمايتها كانت المسألة الأكثر أهمية بالنسبة للأطراف المتحاربة.

عند تقسيم الإمبراطورية، أعطيت ولاية سورية مع فينيقيا إلى لاومِدُون (شكل 36). لكن منطقتها الساحلية سقطت منذ عام (320 ق. م) في يد الخليفة بطليموس، صاحب مصر وسيرينايكا (برقة). بعد عامين من هذا التاريخ، ظهر أويمِنس كاتم أسرار الإسكندر السابق مع جيش مركزي في سورية، لينتزع من بطليموس المناطق التي استولى عليها بغير حق ويضعها تحت سلطة الإمبراطورية. وقد تحقق هدفه بسهولة، لأن بطليموس انضم

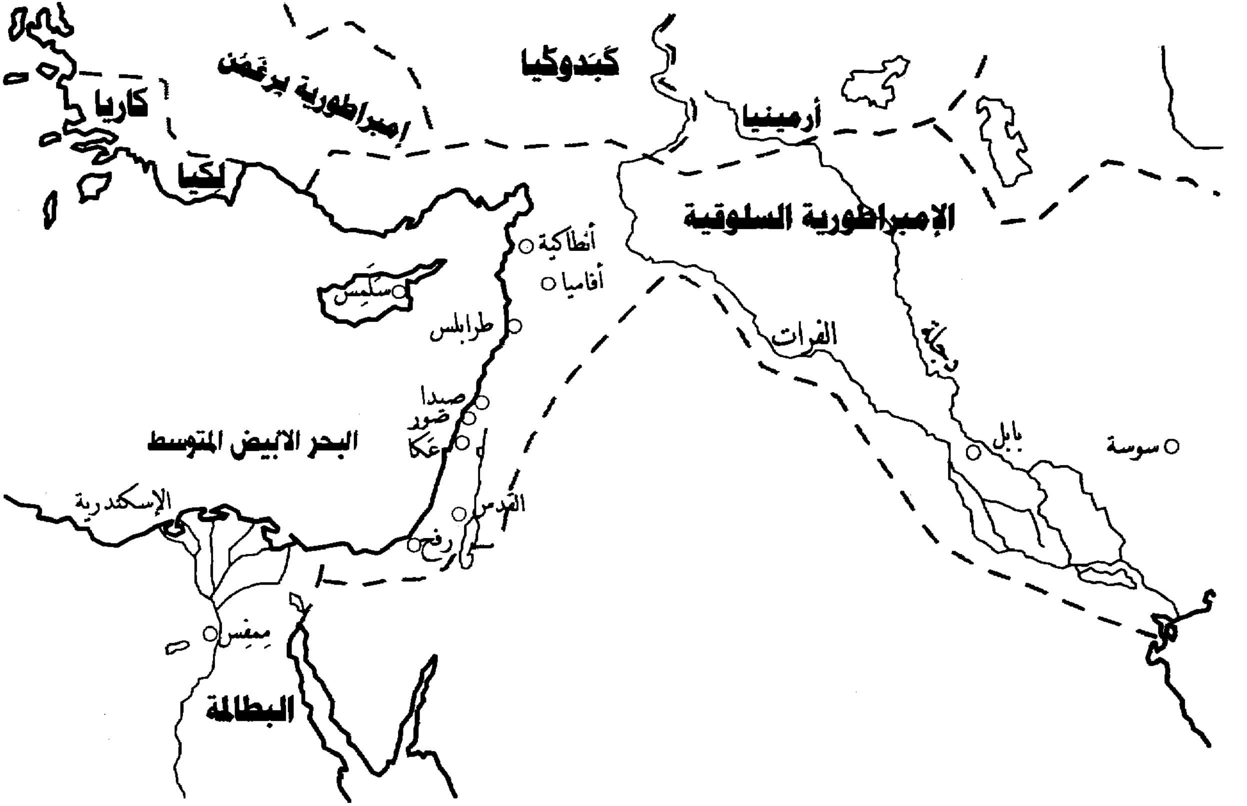

الشكل (36)، المشرق العربي في عام 189 قبل الميلاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأسطوله المكون أساساً من سفن فينيقية إلى وحدات أنتِغُنُس، الذي كان يتطلع بدوره إلى توسيع ولايته وسيطرته على حساب وحدة الإمبراطورية. ما إن حقق انتصاره، حتى بدأ أويمِنِس بتجميع أسطول في الموانئ الفينيقية، لتحميله بالضرائب التي تمت جبايتها في سورية. عندما صارت سفنه جاهزة للإبحار، ظهر أسطول أنتيغُنُس، الذي كان هزم قوات الإمبراطورية البحرية قرب بيزنطة، وجعل سفنه تقوم بإبحار استعراضي وعلى مقدماتها مناقير السفن الإمبراطورية المدمرة. عندئذ، نهبت طواقم السفن الفينيقية التابعة لأويمِنِس أموال الضرائب، وانتقلت إلى سفن أنتيغُنُس.

استمر التحالف بين أنتِغُنُس وبطليموس فترة قصيرة، لان نجاحات الأول الإقليمية سرعان ما حولت بطليموس وغيره من الحلفاء إلى أعداء ساخطين. تركّزت المعارك الأولى بين حلفاء الأمس على فينيقيا، التي كان إخفاق أويمِنِس قد أعادها إلى بطليموس. لمواجهة خصومه، بادر أنتيغُنُس بالتحرك، فقام بطرد الجيش المصري الضعيف من فينيقيا في مطلع عام (315 ق. م) لكن حامية صور المصرية القوية انفردت بمقاومته إلى أن سقطت في صيف عام (314 ق. م) بسبب نقص الماء والغذاء، بعد حصار دام خمسة عشر شهراً. بعد عامين من ذلك، في صيف عام (312 ق. م) كان جيش بطليموس يقف أمام أبواب المدينة المنكوبة، وجيش مصر ينزل هزيمة ماحقة قرب غزة بدِمِتريُوس، ابن أنتيغُنُس. فرض شعب المدينة اليائس تسليمها هذه المرة دون قتال، فوقعت من جديد في يد بطليموس. لكن الحظ ابتسم مجدداً لأنتيغُنُس، فاسترد ابنه دِمِتريُوس المنطقة الساحلية ونجح في الحفاظ على صيدا وصور، أكثر موانئ الفينيقيين أهمية، حتى عام (294 ق. م) رغم أن والده كان قد فقد حياته وملكه في معركة قرب إبسوس، تقرر فيها مصير المدينتين الفينيقيتين اللاحق على يد أعدائه: السلوقي من بابل ولسيماخوس الثراقي. بعد إبسوس، تقرر إعطاء شمال سورية والمدن الفينيقية للسلوقي، وكان على بطليموس، الذي لم يشارك في المعركة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاكتفاء بفلسطين والقسم الداخلي من سورية الوسطى؛ وهي مناطق كان قد نجح من جديد منذ عام (305 ق. م) في إخضاع القسم الأكبر منها لرقابته.

لم تكن العقود الثلاثة الأولى من حكم خلفاء الإسكندر سنوات تطور هادئ بالنسبة لتلك المدن الإغريقية، التي لم تتعرض مباشرة لمآسي العمليات الحربية. فقد خنقتها التكليفات والأتاوات التي فرضها سادة الحرب العديدون من أجل تجهيز وتقوية أساطيلهم. لو أخذنا أنتيغُنُس مثالاً، لوجدنا أنه بنى أسطولاً من مئة وعشرين سفينة في ترسانات طرابلس وجبيل وصيدا خلال أشهر قليلة من عام (315 / 314 ق. م) مستخدماً عدداً من القوى العاملة لم يشهد أحد مثيلاً له من قبل. وكان ابنه دِمِتريُوس قادراً على تمجيد نفسه كباني أكبر سفينة أنجزتها ترسانة فينيقية، تكونت قاعدتها من جذع شجرة أرْز بلغ ارتفاعها أربعين متراً، زودت بأحد عشر صفاً من المجاديف واحتاجت إلى ألف وثمانمئة عبد على الأقل خلال إبحارها. بالإضافة إلى هذا، كانت سفن الفينيقيين موزعة بين أسطولي دِمِتريُوس وبطليموس، لذلك قاتل فينيقيون فينيقيين في معركة سالاميس البحرية الكبرى (عام 306 ق. م) قرب قبرص... فكان من الطبيعي أن تؤدي أحوال كهذه إلى خمود تجارتهم، التي زاد من انطفائها سيطرة أساطيل مصر ورودس التجارية المتزايدة على طرق المواصلات البحرية، ومرور العلاقات التجارية حتى مع جنوب الجزيرة العربية مروراً متعاظماً بغزة والإسكندرية؛ المدينة التي تطورت إلى حاضرة تجارية عالمية كبرى في ظل بطليموس الثاني (285 - 246 ق. م) صاحب الفضل في توسيع الاتصالات البحرية في البحر الأحمر، وفي إعادة حفر قناة تصله بنهر النيل، وهو الذي عقد اتفاقات تجارية مع سرقسطة وروما وقرطاجنة. استعادت التجارة الفينيقية شيئاً من ازدهارها في حكم السلوقي الأول، مع تحول المدن الفينيقية إلى جزء من إمبراطورية جبارة امتدت من نهر الهند إلى بحر إيجة، أوكلت إليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظائف مربحة في التبادل السلعي مع أسواق. ما وراء البحار، وإن بقيت فرصة احتلال موقع شبيه بموقعهم الاحتكاري القديم معدومة في إمبراطورية السلوقيين، نتيجة صعود مدينة أنطاكية الطموح، التي كان السلوقي قد أسسها عام (300 ق. م).

لم تبق المدن الفينيقية متحدة لفترة طويلة مع إمبراطورية السلوقيين، فقد سقطت عام (280 ق. م) من جديد في أيدي المصريين، عندما كان بطليموس الثاني يتأهب للدخول في نزاع مع الأنطاكي الأول، ابن وخليفة السلوقي الأول المقتول، حول التركة السورية، التي أخفق السلوقيون في استعادتها قبل الأنطاكي الثالث (223 - 180 ق. م). وصل الأنطاكي الأول إلى فلسطين عبر البقاع خلال حملاته الميدانية التي قام بها عامي (221 و 219 ق. م) دون أن يتمكن من إقصاء حاميات بطليموس عنها بصورة تامة. فما كان منه إلا أن جرد حملة ثالثة في عام (218 ق. م) بدأها بعمليات برية وبحرية منسقة ضد مدن لبنان الساحلية. غير أن موقعا بطليمياً محصناً أغلق الممر الساحلي الضيق عند نهر الدامور، فأوقف تقدم الجيش السلوقي السهل، إلى أن هزمته في النهاية قوات جبيلية قامت بمناورة التفافية جريئة من حوله. تحاشى الأنطاكي صيدا شديدة التحصين، ولم يتخذ أية تدابير لمحاصرتها، رغم أن جيشه كان أكبر الجيوش التي تجرأت وتقدمت في السهل الساحلي منذ أيام رمسيس الثاني. ويبدو أن القائد السلوقي، الذي واجه في مطلع العام التالي الجيش المصري قرب مدينة رفح، وساق جيشه المكون من 102 فيل قتال، و62000 جندي مشاة و6000 فارس، عبر الدرب الساحلي الصعب وليس عبر البقاع إلى فلسطين، قد خسر المعركة: «احتل بطليموس رفح والمدن الأخرى من المسير، لأن كل جماعة كانت تسابق جيرانها إلى إعادة سيطرته والانضمام إليه». هذا ما يقوله بوليبيوس، قبل أن يضيف: «إن شعب تلك المناطق بالذات يتبنى بسهولة الولاءات التي تتطلبها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللحظة».[2] إن الانتقال السريع بين السيطرة البطليمية والسلوقية، الذي حدث في السنوات التالية أيضاً، جعل هذا السلوك مفهوماً ومسوّغاً. مهما يكن من أمر، فقد تمكن الأنطاكي الثاني عام (198 ق. م) ضمان استقرار السيطرة السلوقية حتى على ضفة وادي النيل الشرقية، بعد أن تولى عرش البطالمة منذ عام (203 ق. م) طفل ضعيف هو بطليموس الرابع.

في الوقت ذاته تقريباً الذي حقق الأنطاكي فيه التفوق على مملكة البطالمة، حسم صراع القوة في غرب البحر الأبيض المتوسط لصالح روما. كانت معاهدة السلام التي أنهت الحرب القرطاجية سنة (201 ق. م) قد حصرت قرطاجنة في ممتلكاتها الأفريقية وجعلت من أسبانيا، أكثر مناطق المواد الخام أهمية، مستعمرة رومانية. ذلك كان ضربة قاسية تجاوزت آثارها قرطاجنة إلى التجارة الفينيقية بمجملها، وأدت إلى تعاظم مركز الفينيقيين الاقتصادي داخل مملكة السلوقيين، وبلوغه مستوى لم يسبق له أن وصل إليه من قبل. في هذا الوقت، كان هؤلاء يعلقون آمالهم السياسية على قرب نشوب النزاع الحتمي بين القوى المنتصرة: الرومان في الغرب والسلوقيين في الشرق؛ صراع مهد له سعي مصر إلى التقارب مع روما، وتعاطف قرطاجنة مع السلوقيين، وقيام قائدها هنيبعل بوضع الخطط لإنشاء تحالف بين أقاليم أسبانيا المتمردة على روما وبين مملكتهم. من المعروف أن إخفاق هذه الخطط بسبب يقظة مجلس الشيوخ الروماني جعل هنيبعل يفر إلى الأنطاكي الثالث، الذي عينه قائداً في بحريته. بعد هزيمة السلوقيين في معركة مَغنيزْيَا في ليديا (190 ق. م) دخل هنيبعل في خدمة كريت ثم بيثين، تلاحقه أوامر روما بتسليمه إليها، إلى إن وضع هو نفسه حداً لحياته عام (183 ق. م).

2. Polybius, *Historiai* V 87..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد مَغنيزْيَا، تغيرت موازين القوى لصالح روما حتى في حوض المتوسط الشرقي. أما مملكة السلوقيين، التي أضعفتها كثيراً شروط معاهدة سلام أفاميا (المعقودة عام 189 ق. م) بما فرضته عليها من اقتطاعات إقليمية وتقييدات تسليحية حاسمة ودفعات جد مرتفعة من التعويضات الحربية، فقد قامت في حكم الأنطاكي الرابع (175 - 164 ق. م) بمحاولة أخرى لاسترداد موقعها الضائع. عندما استعر عام (170 ق. م) النزاع السلوقي - البطليمي من جديد حول منطقة ساحل الشرق الأدنى، شن الأنطاكي هجوماً خاطفاً استولى خلاله على كامل مصر الدنيا تقريباً، وتوج نفسه ملكاً على مصر (169 ق. م) رغم إخفاقه في الاستيلاء على الإسكندرية، التي نظم ضدها حملة جديدة في العام التالي، قاد خلالها أسطولاً قوياً انطلق من الموانئ الفينيقية، واكب تحركه في البحر حركة الجيش في البر. لم يكن بوسع الإسكندرية الصمود لفترة طويلة في وجه هجوم الأنطاكي المنسق، فإذا بروما تمد لها يد الإنقاذ، وترسل مبعوثا هو بوبِليُوس لايِنَس إلى معسكر الأنطاكي حاملاً إنذاراً من مجلس شيوخها بالإنهاء الفوري للحرب وإخلاء مصر. رجا الأنطاكي إعطاءه وقتاً للتشاور، فإذا بوبِليُوس يرسم بعصاه دائرة في التراب ويفهمه أن عليه إعطاء جوابه وهو واقف داخلها. بخضوع الأنطاكي، فرضت روما رقابتها بصورة نهائية على ميزان القوى في الشرق الأدنى، فقصلت الأسطول السلوقي عام (163 ق. م) بعد موت الأنطاكي، إلى قوام رمزي كانت معاهدة أفاميا قد حددته بعشر سفن، وأحرقت الوحدات التي زاد عددها عن ذلك في موانئ فينيقيا وشمال سورية تحت إشراف لجنة رومانية. وقطعت أوتار الأرجل الخلفية لفيلة جيش الأنطاكي المحاربة كي لا تستخدم بعد ذاك. في حين ضمن الرهائن الذين أخذتهم تبعية السلوقيين لها بعد اتفاقية أفاميا للسلام.

يعتبر مصير دِمتريُوس الأول مميزاً للوضع في المملكة السلوقية الخاضعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لرقابة روما. فقد أرسله أبوه السلوقي الرابع (187 ـ 175 ق. م) إلى روما بديلاً لأخيه الأنطاكي، الذي كان رهينة هناك. بعد موت السلوقي الرابع، تولى الأنطاكي العرش كرابع شخص يحمل هذا الاسم، متجاوزاً حق حفيده فيه، الذي كان أصغر منه بعشرة أعوام. بما أن مجلس الشيوخ الروماني دعم ترشيح ابنه اليافع وأوصله إلى السلطة تحت اسم الأنطاكي الخامس، فقد حاول دِمِتريُوس، الذي كان قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر واعتبر على درجة رفيعة من الكفاءة، أخذ عرش السلوقيين بوسائله الخاصة. أيدت قرطاجنة، من جانبها، استيلاء دِمِتريُوس الواعد على السلطة، وساعدته على الهرب من روما في واحدة من تلك السفن المقدسة، التي كانت قرطاجنة تنقل أعطياتها بواسطتها كل عام إلى مِلقارت صور. انتصر دِمِتريُوس الأول، الذي كانت روما اعترفت به، في الصراع مع الأنطاكي الخامس، بيد إن صراعات سلطة عنيفة نشبت بعد مقتل والده الشاب أدت إلى انحلال مملكته. لم يكن قتل الملوك حدثاً نادراً في المملكة السلوقية، فقد مات من ثلاثة وعشرين ملكاً سلوقياً اثنان فقط ميتة طبيعية هما الأنطاكي الأول والرابع، وقتل منهم تسعة، وسقط خمسة في المعارك، ومات ثلاثة وهم على طريق الفرار أو في الأسر، وأعدم اثنان شنقاً، وانتحر واحد، وضرب آخر حتى الموت في أثناء محاولة نهب معبد.

تتجسد في نهاية الأنطاكي الثالث الأزمة المالية الدائمة للسلوقيين. وكان الأنطاكي الرابع قد تحين، دون أي وازع، الفرص لمصادرة ثروات المعابد، ومنها كنوز هيكل أورشليم التي كان السلوقي الرابع قد حاول عبثاً وضع يده عليها بدوره. نهب الأنطاكي الكنوز عام (167 ق. م) فردت ولاية يهوذا الطامحة إلى الاستقلال منذ وقت طويل بتمرد مفتوح عليه. من جانبها، عبرت الضرائب الثقيلة المفروضة على مدن فينيقيا الغنية عن حاجة السلوقيين إلى المال، دفعتهم إلى تبني ممارسات عنيفة وحالت بين فينيقيا والإفادة من الظروف السياسية ـ التجارية الملائمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان للأوقاف السخية التي منحها الأنطاكي الرابع للدول الإغريقية نصيباً مرتفعاً في نفقاته التبذيرية، التي عجزت الضرائب وسياسة بيع المناصب عن تغطيتها، لا سيما أنه أراد إقامة جبهة إغريقية / سلوقية ضد روما بواسطة سياسة الهدايا التي اتبعها. يفسر هذا لماذا أصرت الأخيرة بعد موته على التقيد الصارم بشروط نزع سلاح عام (189 ق. م). وكان التقارب السياسي بين الإغريق والسلوقيين، و«الهلينة» النشطة للمملكة السلوقية، قد أججا حنق روما، خاصة بعد أن فتح الأنطاكي أبوابه أمام المعمرين الإغريق، وأيد بناء الحضارة المدينية وفق النموذج الإغريقي، وأضفى طابعاً إغريقياً على أعياد مملكته الدينية تجسد في تنظيم مهرجان كل خمسة أعوام على شرف هرقل في صور، وفي اقتران الاحتفالات الدينية ذاتها بمباريات رياضية. في مهرجانات هرقل الأولى، التي جرت عام (174 ق. م) في صور، بعث ياسون، كبير كهنة هيكل القدس ذو الميول الهلنستية برسل محملين بتبرعات للأضاحي. حين طلب حملة الأضاحي، المخلصون لإيمانهم اليهوذي، إنفاق المبلغ المخصص لهرقل على غرض آخر، أبدى الصوريون تفهماً فورياً لمطلبهم وحولوا المبلغ إلى بناء السفن الحربية.

لم تقاوم المدن الفينيقية سياسة الأنطاكي الرابع في «الهلينة»، لأن تأثير ثقافة الإغريق كان يتعاظم منذ العهد الفارسي. إن تأسيس الفلسفة الرواقية على يد تاجر فينيقي هو زينون (حوالي 333 - 261 ق. م) من كيتيون بقبرص، يؤكد الصميمية التي ربطت الروح الإغريقية والفينيقية بعضهما إلى بعض. كما كان أمراً هائل الدلالة أن كتابة ولغة الفينيقيين اختفتا منذ مطلع القرن الأول قبل الميلاد من نقوش وطنهما الأم ذاته، وأن الفينيقية لم تستخدم بعد القرن الأول الميلادي في نقوش مسكوكات العملة ثنائية اللغة. وفيما استمرت اللهجة القرطاجية /الفينيقية حية إلى ما بعد ذلك بفترة طويلة في إقليم قرطاجنة الروماني، وبقيت تقاليد فينيقيا الثقافية والدينية بعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اندثار قرطاجنة وإمبراطوريتها التجارية بوقت طويل، كانت مدن الوطن الأم الهلنستية تتجه نحو تطور جديد في ظل السيطرة الرومانية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحت السيطرة الرومانية

«سكب نهر السوريين العاصي ماءه منذ زمن
طويل في نهر التيبر عندنا.»[1]

تتصف العقود الأخيرة لمملكة السلوقيين بانحلال الدولة، التي كانت كبيرة ذات يوم، إلى عدد كبير من الجماعات المستقلة نسبياً. هذا التطور قدم أفقاً جديداً لمدن الفينيقيين التجارية، التي ربما كانت قد شعرت بالقلق. مما يجري جنوبها، حيث كانت ولاية يهوذا قد أعلنت استقلالها منذ عام (141 ق. م) تحت قيادة كبير الكهنة سمعان، ووطدته في حكم خليفته يوحنا هِيركانوس الأول (134 - 76 ق. م). بالاستيلاء على إقليم سمر، واصل ألكسندر ينّاوُس (102 - 76 ق. م) سياسة الفتوحات هذه، فقام بحملة عسكرية أولى ضد ميناء عكّا الفينيقي الجنوبي وإن أخفق في ضمه إلى أراضيه. إلى جانب يهوذا، تشكلت في شرق لبنان أيضاً كيانية جديدة هي مملكة اليطوريين[2]، أنصاف البُداة الذين قدموا من شرقي الأردن وتغلغلوا في البقاع؛ واستخدمتهم السلطات الآشورية من حين لآخر خلال القرن الثامن قبل الميلاد كقوات معاونة في جبال لبنان. اتخذ ملك

1. Juvenal, *Satiren* 3116 - 114.

2. إقليم أطور / يطير. وقد وردت إشارات عديدة إلى هذا الإقليم في كتابات يوسفوس على سبيل المثال، وإلى سكانه على أنهم عرب، والسبب أن سفر أخبار الأيام الأول (1:31): يشير إلى [يطير] على أنه اسم أحد (أبناء) إسماعيل المعرَّف تقليديا بأنه أبو العرب. وحيث أن الإشارة الكتابية ليطور هذا تربطه بـ (ـ أبناء) آخرين لإسماعيل منهم تيماء، فقد اعتبر الخطاب الكتابي أن موطن هؤلاء السكان وقع قرب دومة الجندل (تيماء) - (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليطوريين من خَالقِس القديمة مقراً له، ويمثل الهيكل الصخري قرب قب إلياس، غير البعيدة عن مدينة شتورا الحالية، النصب الأكثر أهمية الذي خلفه هؤلاء في لبنان، ويذكّر تكوينه بالواجهات الصخرية في البتراء النبطية وبالقرابة بين الأنباط واليطوريين، الذين كانت مناطق وجودهما قد تجاورت لبعض الوقت في شمال شرقي الأردن. بلغت مملكة اليطوريين أقصى اتساع لها حين بلغت مشارف دمشق في القرن الأول قبل الميلاد، وراقب رماة الأقواس التابعون لها، والذين تمتعوا فيما بعد بتقدير رفيع لدى الرومان، طرق التجارة من أوكارهم في لبنان. وما إن نجح اليطوريون في احتلال جزء من منطقة الساحل في الشمال، حتى صار البترون ميناء ورأس شكا قاعدة عسكرية لهم، سيطروا بها على الطريق الساحلي، وأذاقوا جبيل وبيروت الأمرين عبر حملات غزو ونهب شنوها ضدهما، لتهيئة هذا الجزء أيضاً من الساحل للاحتلال. ثمة خطر آخر هدد فينيقيا مع نهاية سبعينيات القرن الأول قبل الميلاد وهو ملك أرمينيا تِغرَانِس الأول، الذي مهد لاحتلال موانئ فينيقيا الشمالية بتنظيم عمليات سلب ونهب بحرية، وكان قد انتزع أقساماً كبيرة من تركة السلوقيين في آسيا الصغرى وسورية.

كان التراجع الاقتصادي العام أشد وطأة على المدن الفينيقية من الأخطار الخارجية، من حيث أنه حال بينها وبين الإفادة من استقلالها، المستعاد في صور منذ عام (126ق. م) وصيدا منذ عام (111 ق. م) وبيروت عام (81 ق. م). وقد نجم التراجع عن الحروب الدائمة التي دمرت البلدان المجاورة، وعطلت الطرق التجارية الداخلية تعطيلاً جسيماً في الوقت نفسه، بينما خضعت طرق المواصلات البحرية لقراصنة كِلِيكيا، قبل تدخل روما لتحريرها منهم وجعلها تشهد تحسناً حقيقياً.

واجهت الجمهورية الرومانية ذاتها أزمة اقتصادية / اجتماعية أدت إلى قيام عبيدها وفلاحيها في الداخل وحلفائها الخارجيين بانتفاضات شديدة. بعد سحق التمردات، أخذت روما ببرنامج توسع خارجي معزز اعتبرته

سبيلها إلى الاستقرار، تركز بصورة أساسية على الشرق. في البداية، ركزت روما أنظارها على حماية ممتلكاتها في غرب آسيا الصغرى، التي كان مِثريداتِس السادس ملك بونتوس يهدد بانتزاعها وضمها إلى مملكته. وخشيت كذلك اختلال توازن القوى بسبب تقدم مملكة أرمينيا الكبرى نحو ساحل الشرق الأدنى، وهو تقدم زاد من خطورته كون ملكها تِغرَانِس الأول زوج ابنة مِثريداتِس. أضف إلى هذا التطلعات التوسعية لدى حكام مملكة الفرتيين الفتية التي كانت قد بلغت نهر الفرات، وسعي روما إلى حماية علاقاتها التجارية الوثيقة بمصر، مصدر ما تتزود به من حبوب، من تِغرَانِس الأول، الساعي إلى نسج أواصر عائلية مع ملكية البطالمة، والمتحالف مع قراصنة البحر الكيليكيين. ورغبة روما في ترسيخ سيطرتها في الشرق الأدنى، تمهيداً لإقامة إمبراطورية إسكندر رومانية.

لم تكن حملة ملك المقدونيين العسكرية الظافرة قابلة للتكرار. صحيح أن بُومبِيُوس، كبير أمراء البحر الأبيض المتوسط وصاحب الصلاحيات غير المقيدة، أباد بسرعة مستعمرات قراصنة كِلِيكْيا، لكنه لم يتمكن من دخول المجال السوري إلا عبر مفاوضات اتصفت بالمكر، استغل خلالها تناقضات الفرتيين وتغرانس ومثريداتس الذين كانت قد أنهكتهم معارك استمرت طوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صارماً عليه استهدف احتلال منطقة هيكل القدس وقصرها.

اتخذ بُومبيُوس تدابير ضرورية لضمان سيطرة روما على المناطق المكتسبة والاستئثار بأعظم قدر من عائداتها. لذلك جعل من سورية إقليماً رومانياً ضم مجمل المجال الساحلي، وألزم الرومان بالامتناع عن المساس بالترتيبات الإقليمية التي تكونت تاريخياً، وعن التدخل في الشؤون الداخلية للدول والمدن التي غدت الآن محض وحدات إدارية تابعة لهذا الإقليم، في حين قلص الدول الإقليمية التي كانت قد أظهرت تطلعات توسعية؛ ففقدت مملكة الحسمونيين جميع ما كانت قد استولت عليه من ممتلكات، وتعرض اليطوريون لخسارات أرضية، مع إن ملكهم نجح في الاحتفاظ بملكية البقاع بإبداء خضوعه لبُومبيُوس وإدخال البهجة إلى نفسه بإهدائه 1000 طالِنت (تعادل ستة ملايين فرنك ذهبي). دمرت القوات الرومانية كذلك أعشاش القرصنة والنهب في جبال لبنان، ووضعت حداً لحملات السطو التي كان اليطوريون يقومون بها في السهل الساحلي، فأحست المدن الفينيقية بالرضى عن الوضع الجديد، وزاد من رضائها أن الكبيرة منها تمتعت بحكم ذاتي وتلقت ضمانات بعدم المساس بممتلكاتها الإقليمية، شريطة تخليها عن دستورها الملكي وتبني آخر جمهوري، احتذاء بالمثل الأعلى الروماني.

لم يكن هذا كله كافياً لإحداث ازدهار اقتصادي. فالحكام الرومانيون كانوا يتغيرون بسرعة، وكان معظمهم أشخاصاً لا يبعثون البهجة في النفوس، يوجهون جهودهم نحو اعتصار أكثر ما يمكن اعتصاره من أقاليمهم، كما فعل غَبينيوس الذميم، الذي «لم يفكر أي شخص أثناء حكمه لسورية بأي شيء على الإطلاق غير عقد الصفقات مع المستبدين، والرشاوي، وعمليات النهب والسلب، وحملات القرصنة، وارتكاب جرائم القتل...».[3] إلى هذا، وقع أيضاً عدد كبير من الورطات الحربية،

3. Cicero, *De provinicis consularibus* 49.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع العرب أول الأمر ثم مع الفرتيين، الذين نجح ملكهم بين عامي (40 و 38 ق. م) في احتلال الإقليم كله تقريباً بصورة مؤقتة، لأنه لم تقاومه أية من مدن الفينيقيين باستثناء صور. وفي حين تلازمت حروب الفرتيين مع صراعات داخلية من أجل السيطرة على الإمبراطورية دار قسمها الأكبر في إقليم سورية، بقي لبنان بمنأى عن الحرب الأهلية التي نشبت بين قيصر وبُومبيُوس (49 - 44 ق. م) وتغلغل القيصر أثناءها في سورية مؤكداً اعترافه بامتيازات المدن الفينيقية. أما في أثناء صراع أنطونيو وأوكتافيان (41 ق. م - 30 م) الذي تعرضت خلاله فينيقيا ويطير (إيتوريا) لمعاناة أكبر، فقد خضعت الأولى فجأة لسيد جديد، عندما أهدى أنطونيو يطير بكاملها تقريباً ومدن الساحل في لبنان، عدا صيدا وصور، إلى عشيقته كليوباترا، ثم غيّر الأمر بعد حين ومنحها لبطليموس، ابنه من كليوباترا، الذي أُعطي سورية بما فيها فينيقيا، على أن تحتفظ أمه بيطير وحدها. صحيح أن مجلس شيوخ روما رفض المصادقة على الإهداء، لكن هذا لم يحل دون سك نقود تحمل صور كليوباترا، في بيروت على الأقل. هذه المناطق لم يتم ضمها إدارياً إلى مصر، لأن الوقت لم يسمح بذلك؛ ولأن أوكتافيان أعاد الأمور إلى ما كانت عليه، بعد هزائم أكثيوم والإسكندرية وانتحار الزوجين، أنطونيو وكليوباترا، عام (31/ 30 ق. م). بسيطرة أوكتافيان، الذي أمر عام (27 ق. م) بمنحه لقب أغسطُس[4]، بدأت حقبة سلام طويلة للبنان، الذي بقي بعيداً عن القتال خلال حروب الإمبراطورية الرومانية ضد يهوذا، والفرتيين، والساسانيين، وتدمر. إنها حقبة سلام لم تنته إلا عام (614 م) عندما أغار الساساني خسرو الثاني على سورية وفلسطين ودمرهما.

شهد الاقتصاد الفينيقي ازدهاراً جديداً بفضل التطور السلمي للعصر

4. أي «المُعَظَّم»، وأطلق أيضاً على الشهر الثامن (ز. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الروماني، رغم المنافسة التي تعرض لها من مراكز التجارة والحرف الأخرى. وكان التجار الفينيقيون قد أسسوا وكالاتهم في روما وموانئها. وقد نشأ في العاصمة الرومانية حي فينيقي ضخم مازالت بقاياه موجودة إلى اليوم في (فيا كَمبَانا). كما أُقيمتِ مستقرات فينيقية مهمة في نابولي وميزينوم، وأكثر من ذلك في موانئ أُوسْتْيا وبْوِيتُلي (اليوم بوزولي) الكبيرة على خليج نابولي. وهناك توجيه محفوظ صدر عام (174 م) عن مجلس شيوخ صور يوعز بدفع عشرة آلاف دينار (حوالي 8500 فرنك ذهبي) سنوياً مقابل إيجار مخازن وقاعات بيع وما شابه في بْوِيتُلي. إن تحول روما ووسط إيطاليا إلى مراكز جديدة للتوسع الاقتصادي الفينيقي لا يعني أن شبكة مكاتب الفينيقيين التجارية لم تنتشر في الإمبراطورية بأسرها؛ فقد بحث تجار وحرفيون وممثلو حرف خدمية عن رزقهم في عرض إمبراطورية روما العالمية وطولها، مثلما كانوا قد بحثوا عنه ذات يوم في مستعمرات ما وراء البحار.

لازم ذلك التوسع الاقتصادي للمدن الفينيقية إشعاع ثقافي قوي بلغ ذروته في حكم الأسرة السورية / اللبنانية (193 - 235 م.). فقد تحدر سبتِموس سفروس، أول قياصرة هذه السلالة، من مستعمرة لِبتس (لِبدَة) الفينيقية القديمة في إفريقية الشمالية، بينما كانت حمص السورية مسقط رأس زوجته يوليا دُمنا، ابنة أسرة أقامت أفضل الصلات مع عَرقا في شمالي لبنان، مسقط رأس ألكسندر سفروس، آخر حكام السلالة. بوصفهما وطن القيصر والآلهة التي حظيت عبادتها بانتشار واسع، صار لكل من جنوب سورية وجنوب لبنان قوة جذب كبيرة على السياحة الرومانية، تزايدت باطّراد مع انتشار منشآت العبادة الرحبة.

تمثل أنقاض المباني العامة الكبيرة شهادة مؤثرة على ازدهار فينيقيا تحت حكم روما. فما لم يتحقق بقدر وافٍ إبان العصر الهلنستي المفعم بالمحن، غدا الآن حقيقة: فقد انقشع ضيق مدن الشرق القديمة الكئيب، ولم يعد الأمن الخارجي متوافراً فقط على أسوار وأبراج المدن، بل تمتع الناس بالحماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي أوصلتها إلى أعماق سهوب الشرق الطرق المحصنة، وأبراج المراقبة، وقلاع الحزام الروماني التي حمت إقليم سورية من غارات الفرتيين والعرب: من فلسطين حتى نهر دجلة. في ظروف الأمان والازدهار هذه، نشأت خارج المدن دارات تحيط بها حدائق، ونشطت المواصلات بفضل منظومة شوارع جيدة، وتم، قبل هذا وذاك، توسيع الدرب الساحلي إلى طريق سريع يربط شمال سورية بفلسطين. بل إن الرواد الرومان فتحوا المقطع الأشد خطورة من هذا الدرب، ألا وهو (طريق مدارج صور) أمام حركة العربات التي حفروا لها مزالق في الصخر.

شهدت بيروت ازدهاراً لم يكن يخطر في بال أحد، بعد أن كانت قد عاشت على الدوام في ظل جارتيها جبيل وصيدا. وللعلم، فان بيروت هي المدينة التي اختارها موطناً لهم عام (15 م) ماركوس أغريبّا، قائد معركة أكثيوم الظافر، وصهر القيصر أغسطُس، ومحاربو الفرقتين الأولى والثامنة القدماء. أما الأراضي اللازمة لتوطينهم، فتم شراؤها من المدينة، وكانت ماتزال ركاماً منذ دمرها المطالب بالعرش السلوقي دِيوتُتُوس تْرِيفُون (عام 140 ق. م). منحت روما المستقر الجديد وضع مستعمرة ذات حقوق إيطالية، فأعفته من ضرائب الأرض والرأس، وأسمته تيمناً باسم ابنة أغسطُس: (مستعمرة يوليا أغسطُس فيلكس بِريتُوس) التي تطورت إلى مركز للنفوذ الروماني في فينيقيا، وغدت مرفأً حربياً ونقطة انطلاق أقصر طريق بري عبر لبنان إلى دمشق، ومحطة طبيعية تتوسط مدن الساحل اللبناني. ولأن خرائب بيروت هذه تقع تحت المدينة الحديثة، فما أكثر ما تظهر عند القيام بأعمال بناء فيها (مستعمرة يوليا أغسطُس السعيدة). ويمكن التعرف بشكل أعمق على التكوين الروماني للمدن الإغريقية بإلقاء نظرة على حفريات جبيل، مع أن قسماً كبيراً من أبنيتها في العصر القديم تم دمجه في مباني ومنشآت العصر الصليبي، مثلما حدث لمباني صيدا القديمة الضخمة، التي لم يفض استخدامها، مع ذلك، إلى إزالة جميع مباني العصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الروماني الرحبة. وخلال السنوات العشرين الأخيرة، تم الكشف عن الجزء الأكبر من خرائب صور الرومانية وترميمها، بفضل حفريات قام بها لبنانيون تحت إشراف الأمير موريس شهاب.

يقع شارع الأعمدة الكبير، الذي كان يصل الميناءين القديمين شمالي الجزيرة وجنوبها، في مركز المنطقة التي تم الكشف عنها، حيث لم يبق غير عدد قليل من الأعمدة المنحوتة من حجر واحد من مرمر سيبولين أوبوا متغير الألوان، التي كانت قد نصبت على جانبي شارعين عرضهما أحد عشر متراً، أحاط بهما رواقان مسقوفان عرض كل منهما خمسة أمتار. أما المئة والخمسة والسبعون متراً الفارغة من المقطع الجنوبي لشارع الأعمدة، فكانت تقود إلى الحي المخصص للمنشآت الرياضية بالدرجة الأولى، وفيه مضمار مربع يتسع لألفى متفرج، تقع في مواجهته منابع مياه غازية وواسعة إلى جانبها مركب (الباليسترا) أي مدرسة المصارعين. هذه المنطقة القريبة من الميناء كانت في الأصل موقع مهن يدوية وحرف، لكنها أخلت مكانها تدريجياً للمرافق الرياضية بدءاً من نهاية القرن الأول، إلى أن أكملت أزمنة تالية، جد متأخرة، بناءها، حين تم عام (400 ق. م) استبدال مبنى جديد بالمضمار المربع. بعد ذلك بقليل، تعرضت المنشآت نفسها للتهدم؛ وفي نهاية القرن الخامس بعد الميلاد دمرت مدرسة المصارعين وتقرر استخدام أرضها مجدداً لأغراض صناعية. أما ينابيع المياه الغازية، فقد دامت أكثر من غيرها، ويعتقد أنها كانت ماتزال مفتوحة أمام الزائرين في العصر العربي.

لم يكن في جزيرة صور أرض تكفي لبناء منشآت رياضية ومسارح كبرى، فأقيمت في البر وربطت بجسر ثابت بالجزيرة، بني من بقايا سد الإسكندر ومن الطمي، مر عليه شارع عريض يقود على بعد كيلومترين إلى حلبة من أعظم الحلبات يبلغ طولها أربعمئة وثمانين متراً وعرضها الأقصى اثنين وتسعين متراً. ومع أن حجارتها استخدمت فيما بعد لبناء بيوت سكنية وكنيسة صغيرة أقيمت بداخلها، فقد بقيت في وضع جيد نسبياً، وقدمت

لرياضيي ركوب الخيل البيروتيين مكاناً ينظمون فيه سباقات عربات كتلك التي كانت تقام في العصر القديم (شكل 37).

تقع مقبرة العصر الروماني والبيزنطي الكبيرة على مقربة لافتة من هذه المنشأة الرياضية العملاقة. وقد تم الكشف بصورة جزئية عن صف التوابيت الحجرية الطويل، التي كانت تنضد أحياناً فوق بعضها بعضاً في طوابق متعددة. أما التوابيت الأكثر جمالاً وغالية الثمن بالتأكيد، التي صنعت من المرمر البروكونيزي، فكان جلياً أنها من إنتاج إغِيُوم ذاتها. وتشير المصورات التجسيمية التي تزينها بكثرة إلى مكان إنتاجها غير البعيد عن موقع طروادة القديمة، وتصور أساساً مشاهد من إلياذة هومير. ولا حاجة للقول إن العدد الأكبر من التوابيت الحجرية كان متواضعاً ومصنوعاً من حجارة محلية.

كانت المقبرة أقدم زمنياً من الحلبة، التي بنيت على قرب كبير منها

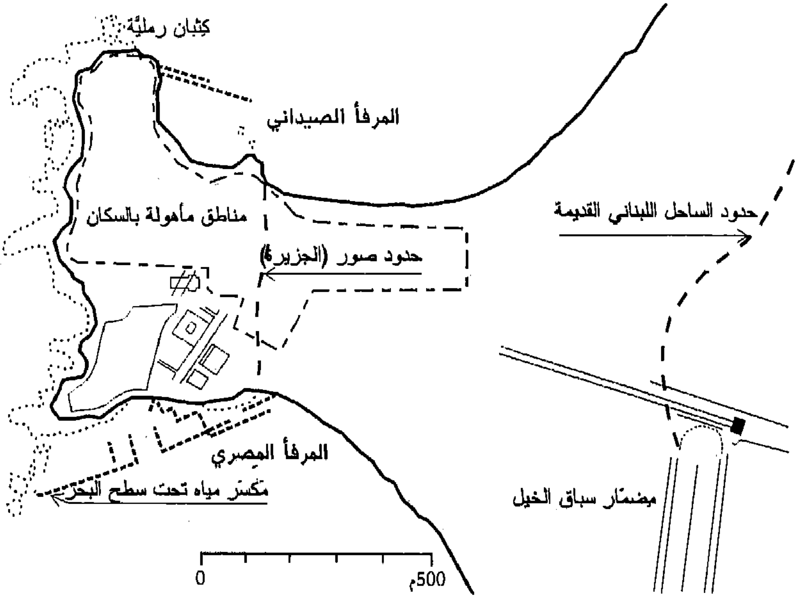

الشكل (37)، مدينة صور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتكون بدورها شاهداً على منجزات بانٍ عظيم هو على الأرجح القيصر سبتِموس سفروس، مؤسس الأسرة السورية / اللبنانية الحاكمة، الذي أعلنه جيش الدون قيصراً، بعد قتل سلفه كُمُدوس (عام 192 م) بينما بايعت قوات روما في بريطانيا ألبِينُوس، واعتبرت الفرق المرابطة في سورية وآسيا الصغرى نِيغر مرشحها، فخضع له شرق الإمبراطورية بأسره. انفردت صور بدعم سبتِموس سفروس، الذي هزم منافسه نِغر عام (194 م) في معارك ثلاث خاضها ضده في كِلِيكْيا، ثم انتصر بعد أعوام ثلاثة على ألبِينُوس وأزاحه بدوره. لم ينس القيصر الجديد الخدمة التي قدمتها صور له، فمنحها حقوق مستوطنة رومانية، بعد أن كان هَدريان قد رفعها إلى مرتبة عاصمة. استجابة لهذا الترسيم القيصري، أقيمت مبانٍ ومنشآت تمثيلية كثيرة، بينما ارتبط إنشاء الحلبات غالية الكلفة، المخصصة لسباق العربات من الطراز الروماني، كلياً أو جزئياً بالوقفيات القيصرية. وأمر سِبتِموس سفروس ببناء حلبة في اللاذقية (لاوْدِيكْيا) أيضاً، فكانت واحدة من أكبر حلبات الولاية السورية، إلى جانب حلبات أنطاكية وبيروت وبصرى وقيسارية وإدِسّا (الرُّها) وصور، التي تم العثور فيها على بقايا تمثال عملاق لهرقل، يؤكد صلتها بمهرجاناته التي أسسها الإسكندر الأكبر وجددها الأنطاكي الرابع. ومن الجدير بالذكر أن سِبتِموس سفروس خصّ عبادة هرقل بدعم قوي، واستغل الاحتفالات اللادينية التي نظمت عام (204 م) ليضع العصر العالمي الجديد تحت حماية آلهة وطنه هرقل (مِلقارت) وديونِيسُوس (إشمون).

مثَّل إقامة المباني الدينية، والمرافق الثقافية والرياضية، وقاعات الأسواق وغيرها من المباني العامة بمعونة الوقفيات القيصرية واحدة من مزايا العصر الروماني. لا حاجة للقول إن هذه (الهدايا) بنيت بأموال ضرائب تمت جبايتها من الولايات، ومن أموال تبرع بها أثرياء وموظفون رومانيون هامون. وكانت هدايا ملوك إقليم يهوذا التابعين ذات أهمية كبيرة بدورها للمدن الفينيقية خاصة. فقد تبرع هِيرُودُس الأكبر (37 ـ 4 ق. م) ببلاط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شوارع وحدائق، وببناء معابد ومسارح. وقد لعبت ميوله العمرانية دوراً لا مجال للشك فيه، لكن طمعه في احتلال موقع بارز بين زملائه في ولاية سورية كان له الدور الأكبر في ما شاده من بنيان. على أنه كان، قبل هذا وذاك، يخطب ود القيصر بدعم الوحدة الثقافية للإمبراطورية الرومانية، الذي حصل مقابله على إهداءات متكررة من أراض هائلة الأحجام. في حكم حفيده الماكر هِرُودُس أغريبا الأول (37 ـ 44 م) بدا جلياً أن (سياسة الهدايا) هذه يمكن أن تكون خطيرة بالنسبة للسيطرة الرومانية، خاصة أن أغريبّا ركز هداياه على المستعمرة الرومانية بيروت، التي كادت مسارحها وحماماتها وقاعاتها ذوات العمد تضفي عليها طابع مقر هيرودياني[5]. وعزز هذا الانطباع أنه كان غالباً ما يزورها ليستمتع في مسارحها بالعروض والمنافسات التي كان محروماً منها في بلده، بحكم تأييده الاتجاه الفريسي من اليهودية. أما المحاولات التي قام بها للانفكاك عن سيطرة روما العليا، فقد أحبطها، على كل حال، مارسوس: حاكم ولاية سورية القيصرية اليقظ. ما النفوذ السياسي الذي كان أغريبّا الأول يمارسه على المدن الفينيقية؟ هذا ما تظهره ملاحظة في أعمال الرسل من العهد الجديد، تقول إنه وجد نفسه في السنة الأخيرة من حياته «ساخطاً على الصوريين والصيداويين، فحضروا إليه بنفس واحدة واستعطفوا بلاستس الناظر، الموظف في البلاط، ثم صاروا يلتمسون المصالحة لان كورتهم تقتات من كورة الملك» ـ (أعمال 20: 12 ـ 13).

5. نسبة إلى هِرُودُس (ز. م)..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معابد الجبال وطرق الحجيج

«لكن حدث على جبل قاسيون، عندما أتم (القيصر هَدريان) صعوده إلى قمته، أن هطل المطر وانقض البرق وقتلت الأضحية الحيوانية مع الكاهن في أثناء طقس التضحية.»(1)

«إنه لبيد الآلهة أن تأتي إلي، وليس بيدي أن اذهب إلى الآلهة.»(2)

سمح توطد العلاقات السياسية في عصر السلام الروماني بتوسيع استيطان الشرق توسيعاً كبيراً، تحولت معه المناطق التي لم تكن مأهولة بصورة دائمة على حافة السهوب وفي الجبال إلى مواقع متحضرة مزدهرة خلال وقت قصير نسبياً. في هذه الفترة، أقيمت بعض قرى منحدرات لبنان الغربية الكبيرة، بعد أن تطلبت زيادة سكان المدن الساحلية، إلى جانب أسباب أمنية، فتح واستغلال المناطق الداخلية المجاورة لها، التي كان قد تم إهمالها خلال مرحلة استيطان مناطق ما وراء البحار. كما نشأت، فضلاً عن قرى الفلاحين، بيوت ريفية أمضى منعمو المرافئ فصل الصيف الحار فيها ضمن ظروف مناخية مريحة، حيث مارسوا شيئاً من الزراعة، وتفرّغوا قبل كل شيء للأشجار المثمرة، واستمتعوا بصحبة مرحة في مستعمرات

1. Aelius Spartianus XIV 3..

2. Plotin. *Porphyrios, Leben des Plotin* 10.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتكون من دارات مزودة بالحمامات وسواها من وسائل الراحة، بما أنهم كانوا يفضلون بناء قراهم قرب معبد يقصده الحجيج، كمستقر بيت مِرّي الذي تم الكشف عنه عام (1959 م) والذي يقدم مثالاً للقرية المطلوبة بما حوته من أمكنة مكرسة لعبادة بعل مرقود. في حمأة هذا الاهتمام العام، فقدت حتى معابد الجبال القديمة تواضعها ولم تعد تشبه في شيء المواقع القديمة للعبادة السامية.فأقيم معبد ضخم لبعل مرقود في بشلي، إلى جانب معبدها الجبلي المفتوح الذي تمت المحافظة عليه، ثم ما لبث أن أحيط بمبان أكبر منه، بقي منها اليوم ركام هائل وحسب. هذا التوسع العمراني شهدته أيضاً أماكن مقدسة كثيرة أخرى.

ثمة عدد كبير بدرجة مفاجئة من بقايا معابد العصر الروماني، مازالت موجودة اليوم في جبل لبنان (شكل 38) وإن كان قليلاً عدد ما بقي منها سليماً، يقتصر أحياناً على بعض قطع أعمدة في جدار كنيسة مسيحية حلت محل المعبد الوثني. من الناحية الهندسية، لم تكن معابد جبال لبنان مباني مكلفة، إذ تعلق الأمر، في الغالب، بمعابد صغيرة لها جدر جانبية بارزة سهمية التكوين أو معابد تخلو أعمدتها من تيجان تزين رؤوسها ويقتصر بناؤها على قاعة تحملها أعمدة قدس أقداسها ناتئ قليلاً طبقاً لتقاليد البناء الفينيقية. إلا إنه كان لهذه المواقع المقدسة ذات المعبد الواحد تأثير هائل يرجع إلى مجمّعها المعماري بمبانيه الجانبية وسوره الجبار، الذي يحيط بها تبعاً للتقاليد الفينيقية أيضاً. هذا الانطباع الجمالي المتناغم لمعابد العصر الروماني الجبلية تم بلوغه بفضل إدراج الطبيعة البارع في التكوين المعماري، وهو ما تجسد أجمل تجسيد في موقع مقدس يسمى اليوم قلعة فَقْرا، يقع شمال غرب جبل صنين غير بعيد عن شير الحجر؛ وكذلك في مركّب معابد يسمى اليوم حصن صفيرة في مرتفعات القرنة السوداء الشمالية الغربية، يحمل طابعاً مغايراً بعض الشيء ويقع مباشرة على حدود الأرض التي تكاد تصلح للزراعة، التي تحولت في أيامنا إلى مدارج مزروعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا، كان حجاج العصر الروماني يصعدون منطقة ريفية كثيفة الغابات، قبل أن يصلوا إلى معبد متوسط الحجم مازالت بقاياه قائمة وسط القرية الصغيرة الحديثة. من هذا الموقع، كانت الطريق تقودهم إلى منطقة مقدسة تربض فوق شرفة ضيقة تقع عند أقدام كتلة صخرية شديدة الانحدار (1345 متراً) تزاحم فيها معبدان صغيران قرب معبد ذي أعمدة داخلية موزعة على صفين متقابلين، مازال تأثيره هائلاً إلى يومنا (رغم فقدانه أعمدته) هو الوحيد من نوعه إلى الغرب من قمم جبال لبنان. بعد تلك المنطقة، كان طريق الموكب يرتقي الكتلة الصخرية المطلة على مسافات بعيدة من الريف، فيصل أول الأمر إلى معبد خامس صغير، ثم إلى مدارج عريضة ومرتفعة تصعد إلى سطح الجبل، حيث هيكل كبير يتلقى فيه بعل الجبل المتوج بالغيوم أضحيات الحجاج.

هذا التوسع العمراني الكبير، وهذا التأسيس الجديد لأماكن الحج الذي شهده العصر الروماني من حين لآخر، ارتبطا بعملية فتح واستغلال جبل لبنان، التي جعلت أماكن جد منعزلة كمواقع العبادة في منطقة الأرْز أكثر أماناً وأسهل منالاً، ومكنت الحجيج من بلوغ معبد كمعبد جبل حفرون في منطقة أرْز جبيل، الذي دمره، في زمن أحدث، الباحثون عن الكنوز، وكان أعلى معبد جبلي في لبنان (1950 متراً). على أن هذا العدد الضخم من معابد الجبال لا يعني أن هذه كانت مسكونة بكثافة، فالمستقرات التي تشكلت إبان العصر الروماني عند مقدسات قريبة من مناطق زراعية، كانت ثانوية الأهمية بوجه عام، كمستقر بيت مِرِّي على سبيل المثال، لا وظيفة لها غير إيواء العدد المتعاظم من كهنتها وموظفيها، والحجاج القادمين إليها.

كان لبعض المعابد صلات وثيقة فيما بينها، فنشأت طرق حجيج ربطت منظومة كاملة منها. تأكد هذا بالنسبة لأماكن وادي أدونيس المقدسة، الذي ضم طريقاً قديمة ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمواصلات إذ كانت أقصر طريق بين جبيل والبقاع، تمتد من يَمُّونة إلى بعلبك، شكّل المعبد الجبلي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسمى اليوم قصر بنات قرب شليفة في جبل البقاع محض محطة بينية فيها، شأنه في ذلك شأن مواقع في محيط نهر إبراهيم، ربما انضوت بدورها في منظومة الأماكن الأدونيسية المقدسة. هذا ما يعتقد على كل حال بالنسبة للمعبد الصغير في غِينة، الذي يجاوره إفريز صخري يصور مصارع دببة اعتقد بعضهم أنه أدونيس ذاته، لكن المنصة الواضحة القسمات عند قدم الصخرة تجعلنا نميل لاعتبار الإفريز محض حلبة للمصارعة (شكل 39).

اعتبرت منطقة معبد قلعة فَقْرا، في الغالب، جزءاً من منظومة معابد أدونيس، بسبب طريق قديم جعل الوصول منها ميسوراً إلى فَقْرا، الواقعة

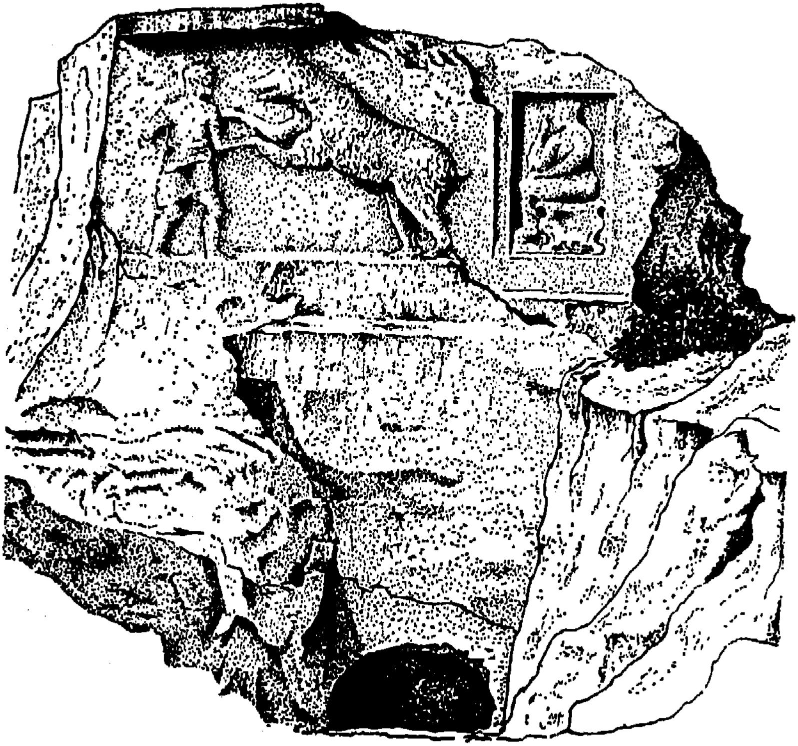

الشكل (39)، مجسّم صخري في غِينة. قتال الدببة، والمراة في ثياب الحداد. تحمل الكتلة سمات صخرة قديمة مقدسة. ثمة أيضاً مغارة نراها في أسفل المجسّم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على بعد اثني عشر كيلومتراً فقط (شكل 40). بيد أن جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس كان في أغلب الظن هو الإله الرئيس الذي عُبد في القلعة. يؤكد ذلك دليل مكتوب يقول إن المعبد الأصغر كرس للإلهة أتَارغاتِيس. ليس جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس غير بعل البقاع القديم وقد اكتسب قسمات إله الشمس في العصر الهلنستي المتأخر بفعل مؤثرات عربية، الأمر الذي يفسر سبب إطلاق اسم هِليُوبُوليس (مدينة الشمس) على بعلبك أيضاً. ومثلما كان جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس كائناً هجيناً، كذلك تكونت رفيقته أتَارغاتِيس من عناصر مختلفة؛ نشأت عبادتها بالأصل من شمال سورية، ثم انتشرت انتشاراً واسعاً منذ بداية العصر الهلنستي، بعد أن اندمجت فيها تمثيلات عشتار المتنوعة. لم تكن حاجة لأن يمر طريق المعبد الرئيسي في هِليُوبُوليس بالضرورة في أفْقَا، بل كان ثمة إمكانية أيضاً لاجتياز ظهر الجبل إلى الشرق مباشرة من قلعة فَقْرَا، في أقصى جنوب المرتقى بين القرنة السوداء وجبل صنين. هذا الدرب كان يترك الجبل عند الحدث، المنطقة التي تدل بقايا معبدين وهيكل كبير على أهميتها الدينية في العصر الروماني.

بتأسيس مملكة اليطوريين في القرن الثاني قبل الميلاد، اكتسب إله بعلبك/ هِليُوبُوليس أهمية عبر إقليمية وبلغ موقعه المهم هذا بعد أن صارت هِليُوبُوليس، أكثر أماكن العبادة في البقاع أهمية، مكاناً مقدساً للمملكة اليطيرية. ترجع بدايات المنشآت الدينية العملاقة التي عرفها العصر الروماني إلى ملوك اليطوريين، الذين بقيت هِليُوبُوليس مركزاً لعباداتهم، وبقيت كذلك بعد تحولها إلى مستعمرة رومانية في حكم القيصر أغسطُس، وتوطين محاربين رومانيين قدماء فيها وسّعوها وجعلوا منها مرتكزاً للسيطرة الرومانية في منطقة البقاع الهامة استراتيجياً واقتصادياً. وقد دعمت روما من جانبها ديانة هِليُوبُوليس، ومنحت نزعتها الهلنستية / التلفيقية قدرات تأثيرية كبيرة لإلهها الرئيس جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس، الذي كان إله أكثر الأقاليم

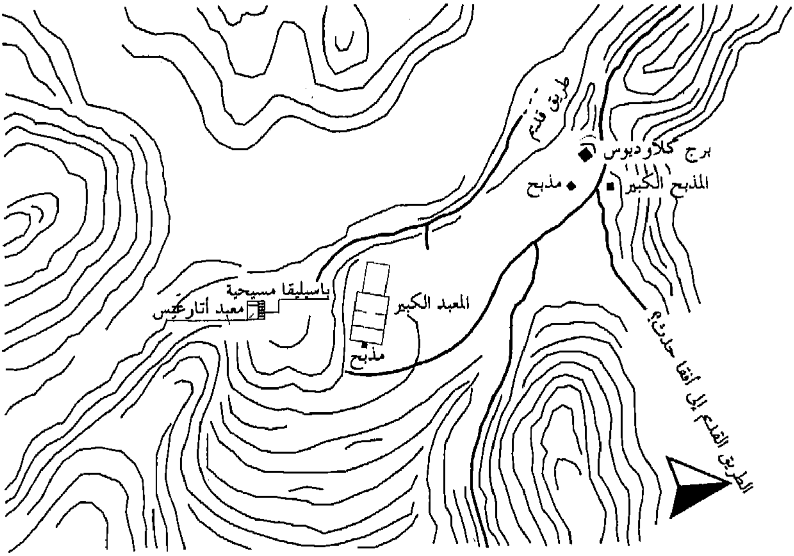

الشكل (40): قلعة فقرا ومحيطها.

الرومانية أهمية وقيمة، فاحتل بصفته هذه مكانة راسخة في حياة روما الدينية لم يحظ بمثلها إلا قلة من آلهة الشرق.

بنيت هِليُوبُوليس الرومانية على مرحلتين، أقيمت في الأولى منهما مستعمرة رومانية وشقت طرق مواصلات تلبي متطلبات الجيش والإدارة، وربطت مستعمرتا هِليُوبُوليس وبيروت بواسطة معبر بيروت ـ دمشق وجبيل ـ يَمُّونِة القديم. كما نقشت كتابات توثق الأعمال الكبرى التي أنجزها القيصر دُومِيتيان (81 ـ 96 م) في المقطع بين أَفْقَا / العاقورة ويَمُّونِة. إلى هذا، حظيت طريق هِليُوبُوليس / دمشق باهتمام خاص، مازلنا نلمس نتائجه إلى أيامنا، لأن الطريق الرومانية التي مرت تحت قمة سلسلة جبال لبنان الشرقية مباشرة، وحافظت على وضع جيد نسبياً إلى يومنا هذا، بقيت قيد الاستعمال إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. فمن أجل بناء طرق رئيسة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان لا بد من إقامة أبراج حراسة وقلاع وطرق فرعية تحمي المواصلات، وتحول دون انتعاش القرصنة من جديد، وتضمن الاستغلال القانوني للغابات الجبلية. أخيراً وليس آخراً، كان لهذه المرافق أهميتها بالنسبة لإدامة الرقابة العسكرية على الممالك التابعة في البقاع، التي كانت دولاً صغيرة نشأت على أنقاض مملكة اليطوريين، وكان لها تاريخ بقي غير معروف، إلا إن إحداها استمرت على ما يبدو إلى عام (49 م) إلى الشمال من هِليُوبُوليس تحت اسم أبِيلا، شملت أساساً منطقة حرمون حتى شمال سلسلة جبال لبنان الشرقية، وحكمها ملك يطيري حتى عام (37 م). سقطت بقايا مملكة اليطوريين هذه في يد آل هِرُودُس، إبّان حكم القيصرين كاليغولا (37 - 41 م) وكلاوديوس (41 - 54 م). في البداية، حصل هِرُودُس أغريبا الأول سنة (37 م) على أبِيلا، وصار أخوه هِرُودُس ملكاً على خَالقِس في العام ذاته. وبسبب رغبة أغريبّا الأول المكشوفة في توسيع ملكه والاستقلال عن روما، اتخذ الحاكم الروماني تدابير عسكرية احترازية أثبت التطورات اللاحقة أنها كانت ضرورية. وفيما بعد، قام وحد هِرُودُس أغريبّا الثاني، خلف أغريبّا الأول، بتوحيد المنطقتين تحت لوائه لأمد قصير دون اعتراض روماني هذه المرة، لأنه كان هو نفسه تابعاً مخلصاً لروما.

وقع التوسيع السخي لقلعة فَقْرا في الطور الأول من ترسيخ السيطرة الرومانية في البقاع. أما إشادة معبد لجُوبِتَر هليوبوليتانيس في هذا المكان بالذات، فكان لها قدر عظيم من الأهمية الثقافية / السياسية، تحول معها إله هِليُوبُوليس إلى سيد للبنان، يربض معبده على ارتفاع ألف وخمسمئة متر، تحت قمة جبل صنين. لم يكن لهذا الجانب الثقافي/ السياسي غير أهمية ضئيلة بالنسبة إلى السيادة الرومانية العليا، بينما رأى ملوك اليطوريين فيه تعبيراً عن طموحاتهم التوسعية. لهذا، يعتقد أن قلعة فَقْرا ربما كانت في الأصل بناءً يطيرياً، وأن الهيكل في شمال منطقة القلعة، الشبيه بالبرج والمطبوع بطابع تقليد أقدم، هو بدوره من بقاياه. يرجح كذلك أن يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البناة الذين وسعوا المعبد من خلفاء ملوك اليطوريين، الذين كانت قلعة فَقْرَا بالنسبة إليهم هدفاً سياسياً بذاته. فإهداء برج العبادة الهائل المسيطر على مجمل القلعة إلى القيصر كلاوديوس عام (43 م) يشير إلى أغريبّا، الذي كان في آن معا صديقاً حميماً للقيصر وعدواً للسيادة الرومانية، بينما يرجع معبد أتَارغاتِيس في قلعة فَقْرَا إلى فترة حكم أغريبّا الثاني. لذلك نعتقد أن المكان بأسره ربما يكون نشأ بين عامي (40 و 60 م).

خلال سيطرتهم على يطير، قام الهيروديون بنشاط عمراني جم في البقاع أيضاً، وان كانت الآثار المتبقية منه قليلة. ويرجع إلى هِرُودُس حاكم خَالقِس (37 - 48 م) أو أغريبّا الثاني، الذي بقيت عاصمة اليطوريين خاضعة له أربعة أعوام فقط (49 - 53 م) بناء معبد بِرِيبِيتِروس الكبير في مجدل عَنْجَر بأعمدته الداخلية المنسقة في صفين متناظرين، والذي حافظ على مهابته إلى اليوم، وسما على مسافة من خَالقِس فوق ظهر جبل يشرف على مساحة واسعة من السهل، كان هو ذاته موقعاً للعبادة في عصر شرقي قديم. هذا المعبد ربطته بمعابد هِليُوبُوليس صلات وشيجة جسدت نفسها في التشكيلات الصورية الغنية واستخدام كتل حجرية ضخمة في بنائه. ولربما كان الهِرُدِيُّون قد شاركوا أيضاً في استكمال بناء معبد جُوبِتَر هيليوبوليتانوس الرئيس، الذي بنيت أجزاء منه خارج منطقة الركائز العملاقة لمنصته منذ حوالي منتصف القرن الأول الميلادي، ويحمل أحد أعمدته نقشاً يرجع إلى عام (60 م).

تتميز مرحلة بناء هِليُوبُوليس الثانية (شكل 41) التي بدأت في مطلع القرن الثاني الميلادي، بالدعم السخي الذي حظيت به مواقع العبادة على يد السلطات والأفراد. فقد انتهى بناء الأروقة المفضية إلى معبد المدينة في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد على أبعد تقدير. أما رؤوس تيجان أعمدتها فطليت بالذهب بناءً على أمر ضابط من الفرقة الأولى زمن القيصر أنطونيو بيوس (138 - 161 م) في حين تواصلت الأعمال في بنائه العملاق طوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأعوام المئتين التالية. وبدأ بناء معبد أتَارغاتِيس الجديد، الذي بقي سليماً وفي حال ممتازة، في القرن الثاني الميلادي أيضاً. ونشأ في الوقت نفسه تقريباً معبد مِركور (عُطَارِد) المدمر خارج المنطقة المقدسة، ومعبد النبع المعاد ترميمه عند رأس العين شرقي المدينة، في حين يرجع معبد فينوس الصغير، الذي يشبه رواقاً من عصر النهضة، إلى تاريخ أحدث بالتأكيد.

شهدت الفترة منذ منتصف القرن الثاني الميلادي بناء عدد كبير من المعابد الصغيرة والهياكل الضخمة على الهضاب القريبة من حافة البقاع، كان للقسم الأكبر منها علاقة وثيقة (بمدرسة هِليُوبُوليس) التي ظهر تأثيرها الواضح في هندستها وأسلوب بنائها. بذلك انضمت إلى المعبد الهِرُودِياني، الذي أقيم لجُوبِتَر هِليُوبوليتانوس قرب خَالقِس، معابد فرعية في دير الأحمر ونخلة ومواقع أخرى، لم تعد بقاياها تبوح لنا باسم الإله الذي كانت مكرسة له. لكن معبد حام الجبلي الصغير، الذي بني عام (172 م) على الطريق التجاري الموصل إلى دمشق، استخدم لعبادة الإله مِركور. وكان ثمة هيكل واحدٍ على الأقل في معبد جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس في نِيحا (شكل 42) ثاني مراكز العبادة في البقاع أهمية بعد بعلبك / هِليُوبُوليس. في هذا المكان، توجد عند نهاية الوديان العرضية لجبل البقاع بقايا معبدين ضخمين، ينطلق من أحدهما طريق طواف حفرت أجزاء منه في الصخر، يقود إلى تجمع يضم ثلاثة معابد أخرى، بنيت بالتأكيد في فترة أقدم بعض الشيء من تلك التي شهدت إقامة أبنية الوادي؛ ربما قامت أيضاً صلات دينية وثيقة بينها وبين المعابد العديدة في الوديان المجاورة، كمعبد قصر نِبا ذي الموقع المهيب، ونبع تمنين الفوقا المقدس الذي بقي في وضع ممتاز، ومعبد فُرزل الصخري الذي يحمل طابعاً سامياً قديماً (شكل 43).

لم يكن لعبادة جُوبِتَر هليوبولياتوس أهمية حقيقية في المعابد الواقعة على منحدر لبنان الغربي، بينما كانت حركة الحجاج القادمين من المدن الساحلية الكبيرة إلى هِليُوبُوليس وسواها من مواقع الحج في البقاع نشطة إلى أبعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حد. بالمقابل، وجدت الآلهة، التي كانت مراكز عبادتها أبعد من ذلك، قبولاً تاماً في معابد لبنان الفينيقية الجبلية لذلك العصر التلفيقي، فتم تقديس عزيز، إله القوافل الذي تمثله نجمة الصبح وتوطنت عبادته في إدِسَّا وتدمر، في معبد بزيزة (بيت عزيز) على حافة الكُورَة. وكان معبد شحيم غير المعروف كثيراً بعد في لبنان الجنوبي مكرساً لعبادة إله الشمس هِيليُوس. ومثله كان المعبد الأحدث في منطقة قصر نُوس المقدسة قرب عين عَكرين على حافة الشرفة الجبلية الوسطى فوق الكُورَة. ويبدو كذلك أن أحد معابد حصن صفيرة الصغيرة كان مكرساً بدوره لعبادة إله الشمس، الذي كان الاهتمام به جزءاً من نشر العبادات السورية على يد قياصرة الأسرة السورية/ اللبنانية، وخاصة منها إلَغبَال (218 ـ 222 ق. م) مشجع عبادة بعل مسقط رأسه حمص، الذي تطور وصار إله الشمس، وكان هو نفسه كاهناً تسمى باسمه قبل إعلانه قيصراً. هذا الإله الحمصي صار الإله الأعلى للمملكة تحت اسم (سول إنفِكتوس إلَغبَل). ومن غير المستبعد أن يكون التوسيع الرحب لصفير، الذي أضاف معبد هِيليُوس إليها، راجعاً إلى مبادرة من إلَغبَال، الذي كان قد رفع منطقة صفير، الواقعة وراء عَقرَا، إلى مرتبة مستعمرة رومانية. وخضعت العلاقة بين شحيم وصيدا إلى شيء مماثل، إذ منحها إلَغبَال مرتبة مستعمرة بدورها.

بدأ نفوذ إله الشمس السوري في مرحلة متأخرة ولم يستمر لفترة طويلة، لأن دين المسيحيين، المحظور في الإمبراطورية الرومانية، أخذ ينتشر انتشاراً متزايداً في لبنان أيضاً، إلى أن صار أكيداً أن حلول المسيحية محل العبادات التلفيقية للعصر القديم المتأخر مسألة وقت وحسب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدايات المسيحية

«فلو كانت المعجزات التي جرَت فيكما جرَت في صور وصيدا، لتابَ أهلها من زمن بعيدٍ ولبِسوا المسوح وقَعَدوا على الرماد.»(1)

على بعد كيلومترات قليلة جنوب صيدا، في أرض هضاب الشرفة الجبلية الأدنى للبنان، كنيسة صغيرة تقع في مغارة صخرية تحمل اسم مريم، أم يسوع الناصري، التي تلقب هنا بـ (سيدة المنظرة). ربما كان الاسم على صلة بالأساس مع (منظر) (هذا يمكن أن يكون أيضاً معنى كلمة منظرة) صيدا الجميلة، الواقعة على مائتي متر تحت هذا المكان. بيد أن للاسم معنى أعمق من ذلك بالنسبة للتقليد الديني، فهو يحمل شيئاً من التاريخ المقدس، بما أنه المكان الذي انتظرت مريم فيه يسوع عندما كان يعلّم في صيدا لأن.الحكاية تقول إن الأم وابنها أمضيا ليلتهما في المغارة، ثم عادا في اليوم التالي إلى الجليل (شكل 44).

ينبئنا العهد الجديد أن يسوع وصل خلال تجواله إلى فينيقيا، وأنه شفى امرأة بين صور وصيدا (انظر إنجيل متي 15:21 وإنجيل مرقس 7:24). في التقليد اللاحق، يتم نقل هذا الحادث إلى الصرفند. لكن من المؤكد أنه نشأت في وقت مبكر جماعات مسيحية داخل صور وصيدا (أعمال 21:3 - 5 و 27:3) يمكننا إرجاع تكونها بصورة غير مباشرة

1. إنجيل متى (11:21).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

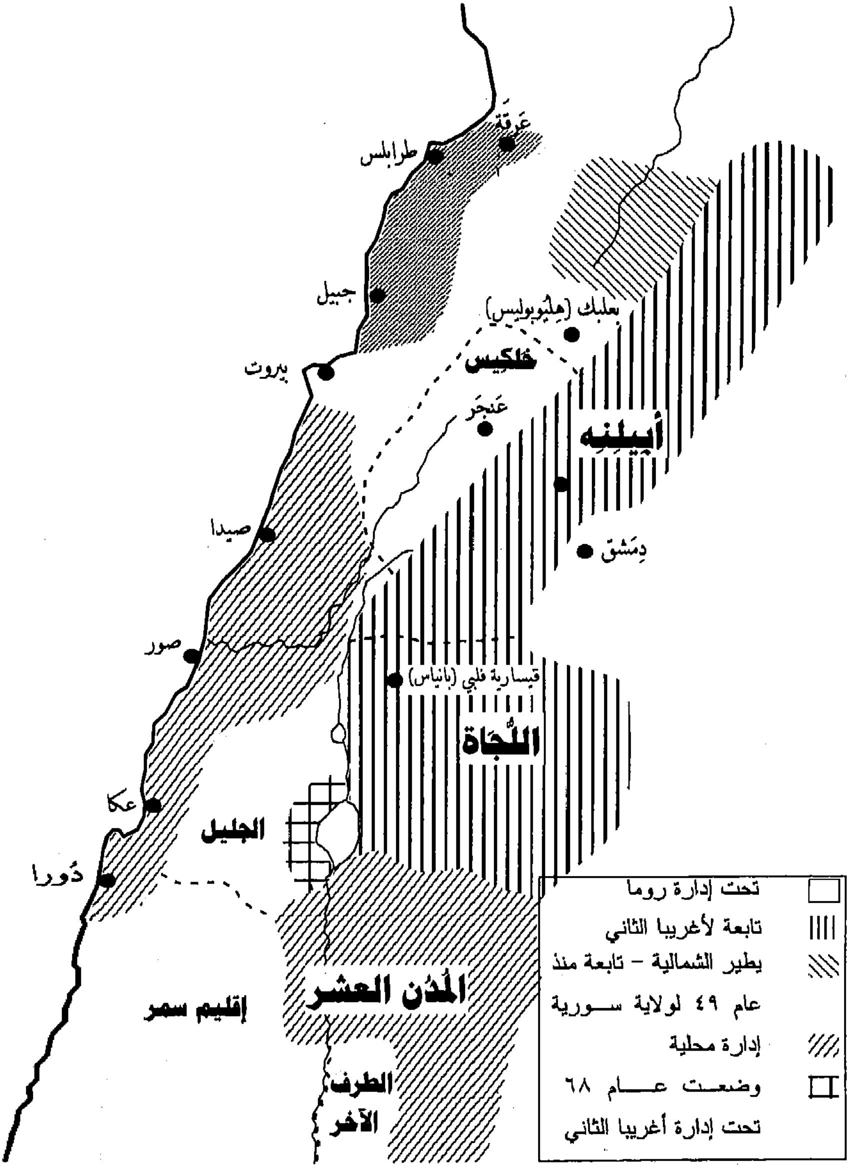

الشكل (44): تقسيم لبنان الإداري في منتصف القرن الأول.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الأقل إلى نشاط يسوع، الذي يذكر مواطنو هاتين المدينتين بالاسم بين سامعيه (إنجيل مرقس 3:8 وإنجيل لوقا 6:17). في زمن لاحق هو نهاية المئوية الثانية الميلادية، غدت صور أسقفية واحتلت لفترة طويلة مكانة ريادية بين التجمعات المسيحية على الساحل اللبناني؛ يقال إن أُورِيغِنيس (185 - 254 م) أعظم لاهوتي إسكندراني، مدفون في كنيستها. كما تدعي مصادر قديمة أن الكنيسة الأثيوبية تدين بوجودها إلى نشاط شابين من صور هما فْرُومِنتِيس وإيدسيُوس، قاما برحلة إلى البحر الأحمر عام (330 م) صحبهما فيها عم الأول الطبيب الصوري ميروبِس. عندما غرقت سفينتهما وقتل سكان الساحل طاقمها، أحضر فْرُومِنتِيس وإيدسيُوس إلى بلاط ملك أثيوبيا في أكسُوم، حيث نالا ثقته بسرعة ونقلا إيمانهما المسيحي إلى الأثيوبيين، بعد أن أسند الملك إليهما أعلى مناصب الدولة. فيما بعد، عاد إيدسيُوس من جديد إلى صور.

شجعت السياسة الدينية لملوك الأسرة السورية / اللبنانية نشر المسيحية في لبنان كما في الإمبراطورية الرومانية عموماً. فقد دعت يوليا مامِيَا، أم آخر ملك من ملوك الأسرة الأربعة، العالم أُورِيغِنيس إلى إلقاء محاضرات عن الدين المسيحي. ويقال إن ابنها ألكسندر سفروس، المولود في عرقا، وضع تمثالاً نصفياً ليسوع في كنيسة بيته إلى جانب تماثيل نصفية لإبراهيم، وأُوروفِيُوس، والفيلسوف وصانع الأعاجيب أبُولُونْيُوس من تِيَانا. ويقال أيضاً إنه فكر بإقامة معبد ليسوع في روما.

ومن الجدير بالذكر أن العديد من لاهوتيي الكنيسة القديمة المهمين تحدروا من فينيقيا، نخص بالذكر منهم بَامفِيلوس: تلميذ أُورِيغِنيس ومعلم أُويزبيُوس، سليل الأسرة البيروتية الثرية، الذي قتل عام (309 م) خلال حملة ملاحقات المسيحيين الأخيرة، التي بدأت عام (303 م). وقد قاسمه هذا المصير بعض تلامذة وأساتذة المدرسة القيصرية للحقوق في بيروت، التي خضعت خضوعاً متزايداً لتأثير المسيحية في نهاية القرن الثالث. كما قدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجبل بوديانه الموحشة ومغاوره الكثيرة ملجأ للمسيحيين، ويرجح أن بعض كنائس المغاور القديمة ترجع إلى تلك الحقبة. وقدّر الوافدون الأتقياء هدوء الوديان الجبلية الباعثة على الاطمئنان، فسكنوا المغاور وحفروا صوامع في الصخر، وأسسوا من حين لآخر مستقرات يقدم مثالاً شاعرياً عنها مجمع وصلنا من العصر المسيحي القديم هو مجمع حجرات الرهبان، التي تتخلل كخلايا النحل الجدار الصخري في نهاية وادي الحبيس، على بعد بضعة كيلومترات فوق قرية فُرزل. هذا الموقع، الذي يسمى اليوم (مغارة الحبيس) يتحدر جزء منه على الأقل من معبد سابق للعصر المسيحي، تشير إلى أهميته بقايا أبنية دينية أخرى أقيمت خلال العصر الروماني في القسم الأسفل من الوادي. إذا صح هذا، فان فُرزل ذاتها تكون مقراً من أقدم المقرات الأسقفية في لبنان.

ويتميز تاريخ المسيحية المبكرة في لبنان بانتقال أماكن العبادة الوثنية السهل إلى الدين الجديد، الذي صار دين الدولة إبان حكم أبناء القيصر قسطنطين حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي، حيث حول أتباعه كثيراً من معابد العصر القديم إلى كنائس. صحيح أن هذا تطلب في العادة أعمال إعادة بناء كبيرة جعلت من بيوت وثنية مكاناً صالحاً لاجتماع المؤمنين، إلا أن المحافظة على أماكن العبادة التقليدية سهل بدوره الانتقال إلى دين الدولة الجديد، الذي أبقى عليها وطرد آلهتها القديمة منها. كما أبقى أيضاً إلى حد ما على تعدد الآلهة والمعبودات المحلية، لكنه أحل محلها تقديس الشهداء والقديسين، محافظاً بذلك على أهمية بعض مواقع الحج كسمار جبيل مثلاً، التي تم تكريسها لذكرى الشهيد مار نُهرا، المبشر ذي الأصل الفارسي، الذي نشر الإنجيل في البترون والمنطقة المحيطة بها، وسقط عام (405 م) أثناء ملاحقة المسيحيين في حكم القيصر ديوقلطين. ولأن الأسطورة تخبرنا أن مار نهرا أصيب بالعمى قبل شنقه، فان الصلاة في موقعه المقدس تساعد على الشفاء من بعض أمراض العيون. تحوّل، كذلك،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معبد فينوس الصغير في هِليُوبُوليس إلى كنيسة للقديسة بربارة، التي اشتهرت بجمالها الخارق، تقول أسطورة محلية أنها قضت شهيدة في هِليُوبُوليس، بينما أُعطي معبد أدونيس في ينوا إلى القديس جورج، الذي ينتمي إلى رهط من قديسين يتمتعون بشعبية خاصة في لبنان. هذا الفلسطيني الملتحي، الذي كان ضابطاً سامي المقام، تخلى عن إيمانه وانتقل إلى المسيحية فلقي مصرعه شهيداً في الثالث والعشرين من نيسان عام (303 م). وقد ربطته ببيروت، فيما بعد، أسطورة أضفي عليها طابع محلي برباط خاص، موضوعها قيامه العجائبي وقتله تنيناً خطيراً. أخيراً، حلت مريم محل عشتار: كسيدة لغابة الأرز قبل كل شيء.

تعرضت الأعياد القديمة بدورها لعملية إعادة تأويل وتطوير، فحظيت سباقات العربات في الحلبات الكبيرة بتشجيع خاص حتى في العصر البيزنطي، رغم ارتباطها ببعض الممارسات السحرية، حسب نص منقوش على لوح رصاصي صغير عثر عليه في بيروت، يتحدر من نهاية القرن الرابع بعد الميلاد، يلعن بلغة احتفالية أحصنة العربات الخمس والثلاثين للفريق الخصم وخيالتها. وهناك أدلة تؤكد أن طلاب مدرسة الحقوق العليا في بيروت، التي تحولت إلى المسيحية، كانوا ما يزالون عند منتصف القرن الخامس الميلادي أنصاراً متحمسين لسباقات العربات. أما بعض أكثر سائقي العربات شعبية، مثل يوليان الصوري (نشط في الأعوام 460 ـ 480 م) وبروفِيريُوس (نشط في الأعوام 490 ـ 510 م) فكانوا من أصل فينيقي. ويرجح أن رياضة العصر القديم تلك لم تخبو إلا في القرن السادس، بعد أن دمر زلزال عام (551 م) الهائل حلبات السباقات الكبيرة.

لم يخل لبنان من صراعات جدية إبان حقبة الانتقال الطويلة من التلفيقية إلى المسيحية. فبروفِيريُوس (233 ـ 305 م) فيلسوف الأفلاطونية الجديدة تلقى تعليمه في صور، التي آوت خلال العصر الروماني علماء طبيعة وفلك وجغرافيا بارزين، فكان إلى جانب تلميذه يمبليخوس (حوالي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

250 - 325 م) المولود في خَالقِس (عَنْجَر) واحداً من أشد نقاد المسيحية الصاعدة تطرفاً. وكان فيلسوف أكبر سناً منه هو فِيلو الجبيلي (64 - 161 م) حاول إنقاذ عالم الآلهة القديمة من خلال شروح وتفسيرات عقلية الطابع. وقد تركزت الصراعات بين المسيحية والأديان القديمة في المعابد الكبرى، وخاصة منها معابد هِليُوبُوليس، التي كان إيقاف الأضاحي العلنية وقطع إعانات الدولة المقدمة إلى معابدها الكبيرة ذات النفقات الباهظة، يعنيان حكما بالموت عليها، فكانت مقاومتها، لهذه الأسباب بالذات، ضارية بصورة خاصة.

وتشكلت خلال القرن الثاني الميلادي جماعة مسيحية صغيرة في هِليُوبُوليس، قدمت شهيدين في الحقبة السابقة لقسطنطين هما فتاة معبد وممثل. وفي حكم قسطنطين، شيد هنا كنيسة ومنعت الدعارة الدينية - المقدسة، لكن يوليان المرتد (361 - 363 م) شنق شخصاً اسمه كِرِيلُّوس محا صوراً للآلهة الوثنية، وأعاد العبادات القديمة. وقد استردت الجماعة المسيحية تفوقها من جديد زمن ثِيُوذُويُوس الأول (من عام 379 إلى عام 395 م) الذي أمر ببناء كنيسة مسيحية ضخمة في بهو هيكل معبد جُوبِتَر، استخدمت في بنائها الأحجار المربعة الضخمة للهيكل الهائل، ودرجات سلم المدخل العريض إلى غرفة المعبد الداخلية. وقد بنيت الكنيسة بطريقة تحجب المدخل الرئيس إلى معبد جُوبِتَر وتشوهه، لكن أحداً لم يجرؤ آنذاك على منع ممارسة العبادة في المعبد، التي توقفت، على كل حال، عام (554 م) عندما ضربت صاعقة سقفه فاحترق وتهدم. ثم أجبر تجديدها القيصر طِبرِيُوس الثاني على إرسال قواته عام (579 م) لقمع انتفاضة قام بها مواطنو هِليُوبُوليس المخلصون لآلهتهم القديمة، قبل أن تسقط السيطرة المسيحية/البيزنطية بدورها مع دخول قوات أبي عبيدة، قائد جيوش الخليفة عمر، إلى بعلبك / هِليُوبُوليس بعد خمسة وخمسين عاماً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التسلسل الآثاري

قبل 12000	العصر الحجري القديم
12000 - 7000	العصر الحجري الوسيط
07000 - 4100	العصر الحجري الحديث
7000 - 6000	العصر الحجري الحديث ما قبل الخزفي
6000 - 4100	العصر الحجري الحديث الخزفي
4100 - 3100	العصر الطباشيري (النحاسي)
3100 - 2100	العصر البرونزي المبكّر
2100 - 1600	العصر البرونزي الوسيط
1600 - 1200	العصر البرونزي المتأخّر
1200 - 550	العصر الحديدي 1 و 2
550 - 350	العصر الحديدي 3
350 - 50	العصر الهلنستي
50 - 350 م	العصر الروماني
350 - 630 م	العصر البيزنطي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقب التتابع التاريخي

2900 - 2400	عصر الأسر المبكرة في بلاد ما بين النهرين.
2700 - 2200	مملكة مصر القديمة (من الأسرة الثالثة إلى السادسة).
حوالي عام 2630:	أول شهادة على إرسال بعثة أساطيل بحرية مصرية إلى لبنان بقيادة الفرعون سنفرو.
2340 - 2198	مملكة أكاد الكبرى في بلاد ما بين النهرين.
حوالي عام 2330:	سَرَغون الأكادي يبلغ البحر الأبيض المتوسط في حملته السورية الثانية.
2200 - 2040	العصر الوسيط الأول في مصر.
2111 - 2005	سلالة أُور الثالثة (جنوب بلاد ما بين النهرين).
حوالي عام 2040:	يصير أيبداتي من جبيل تابعا لأمارسوينا من أُور.
2040 - 1786	المملكة الوسيطة في مصر.
1991 - 1786	الأسرة المصرية الثانية عشرة.
	ينضوي لبنان أكثر فأكثر تحت النفوذ المصري. في نهاية هذه الحقبة، تندفع أشور نحو البحر الأبيض المتوسط وسورية الجنوبية بقيادة شمسي حدد الأول (1815 - 1782 ق. م).
1785 - 1570	العصر الوسيط الثاني في مصر.
1785 - حوالي 1630	الأسرة المصرية الثالثة عشرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ حوالي 1700:	عناصر حورية ومن آسيا الصغرى كشريحة عليا في مدن سورية وفلسطين.
حوالي 1670 - 1570:	سيطرة الهكسوس في مصر الدنيا والوسطى.
1563 - 1080	المملكة المصرية الجديدة.
1450 - 1190	الإمبراطورية الحثية.
1563 - 1306:	الأسرة المصرية الثامنة عشرة.
حوالي 1519:	أول حملة عسكرية لتحتمس الأول في سورية تصل حتى الفرات الأعلى. بداية سيطرة مصر على منطقة سواحل الشرق الأدنى وصراع حول الهيمنة في شمال سورية، مع مملكة ميتاني أول الأمر،ثم مع إمبراطورية الحثيين.
1496:	انتصار تحتمس الثالث عند مجدو على تحالف الأمراء السوريين / الفلسطينيين.
1306 - 1185:	الأسرة المصرية التاسعة عشرة.
1285:	معركة قرب قادش بين رمسيس الثاني وملك الحثيين مواتاللي.
1269:	معاهدة سلام بين رمسيس الثاني وملك الحثيين هاتوشيلي الثالث.
حوالي عام 1200:	توغل (شعوب البحر) في منطقة الشرق الأدنى الساحلية.
1174:	انتصار رمسيس الثالث على (شعوب البحر) وتوطن مجموعات منها في السهل الساحلي.
بدءاً من عام 1150:	تفقد مصر رقابتها على ممتلكاتها الآسيوية.
1150 - 750	(العصر الذهبي) لاستقلال فينيقيا. في حقبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	الضعف السياسي والاقتصادي للقوى الكبرى تنشأ دول إقليمية كبيرة في جنوب سوريو فلسطين. أما هجمات ملك الآشوريين تغلاتبلصَّر الأول (1114 - 1076 ق. م) وفراعنة الأسرة الثانية والعشرين باتجاه البحر الأبيض المتوسط، فتحرز نجاحات وقتية.
من 1150:	إقامة مستقرات تجارية فينيقية في ما وراء البحار.
1004 - 926	مملكة داود / سليمان في فلسطين..
980 - 817	عصر ازدهار صور تحت حكم حيرام الأول.
882 - 845	أسرة عمري في المملكة الشمالية، ارتباط عائلي مع إيتوبعل صور (878 - 847 ق. م).
911 - 609	المملكة الآشورية الجديدة.
877	أول حملة سورية لأشورنسيربال (ملك آشوري) الثاني وصلت إلى حدود فلسطين الشمالية ـ بداية التوسع الآشوري.
853	معركة بين شلمنصر الثالث الآشوري وتحالف من (ملوك ساحل البحر).
745 - 727	تغلاتبلصر الثالث يخضع سورية، فينيقيا وفلسطين للسيطرة الآشورية.
حوالي عام 700	بداية تراجع احتكار الفينيقيين للتجارة البحرية بفعل المنافسة الإغريقية، والمصرية لاحقاً.
664	احتلال أسرحدون مصر ـ أشور تبلغ نقطة الذروة من قوتها.
حوالي 654	مصر تحرز استقلالها من جديد بقيادة بسامتخس الأول.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ 650	تراجع سريع لأشور.
612	احتلال نينوى عاصمة الآشوريين على يد الميدر والبابليين الجدد.
609	نهاية المملكة الآشورية الجديدة - معركة قرب مجدو بين نِكو الثاني المصري وحوشيا يهوذا.
625 - 538	مملكة بابل الجديدة
605	انتصار نابوبولاسار على نِكو الثاني قرب كِركامِش.
منذ 604	نبوخذنصر الثاني يضم سورية، فينيقيا وفلسطين في الإمبراطورية البابلية الجديدة.
اندثار صور (585 - 537 ق.م.)	محاصرتها على يد نبوخذنصر الثاني. انتقال قيادة مدن الساحل اللبناني إلى صيدا حتى عام (343 ق. م).
546	ملك الأخمينيين قورش الثاني يحتل آسيا الصغرى.
539	احتلال قورش الثاني بابل - نهاية المملكة البابلية الجديدة.
538 - 330	إمبراطورية الفرس العالمية
525	قمبيز يحتل قبرص، مصر، وليبيا.
550	بداية الحروب بين الفينيقيين / القرطاجيين والإغريق في صقلية (مع انقطاعات حتى انتقال الجزيرة إلى ملكية روما عام 241).
492 - 448	نزاعات بين إمبراطورية الفرس والإغريق بقيادة أثينا وإسبارطة (حروب الفرس).
بعد عام 500	بداية بعثات الفينيقيين الأطلسية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

404	مصر تنفك عن الإمبراطورية الفارسية.
منذ 370	انتفاضات حكام الولايات الفارسية والتمردات الفينيقية (350 - 343 ق. م) تطبع بطابعها انهيار القوة الفارسية. تزايد النفوذ الإغريقي في فينيقيا.
358 - 338	أرتَكْسِيرِكْسِس الثالث يتمكن من توطيد السيطرة الفارسية من جديد. (341 إعادة احتلال مصر).
334	الإسكندر المقدوني يفتتح الحرب على الإمبراطورية الفارسية.
333	المعركة قرب إيسوس.
332	احتلال الإسكندر فينيقيا وفلسطين ومصر.
330	دخول الإسكندر إلى مدينة - نهاية الإمبراطورية الفارسية.
330 - 323	إمبراطورية الإسكندر.
323 - 280	عصر خلفاء الإسكندر.
280 - 64	عصر الإمبراطورية الهلنستية.
280 - 198	فينيقيا تصير جزءا من مملكة بطليموس.
264 - 241	الحرب القرطاجية الأولى.
منذ 237	توسع قرطاجي في أسبانيا.
218 - 201	الحرب القرطاجية الثانية.
198 - 74	فينيقيا تصبح جزءاً من مملكة السلوقيين.
191 - 189	محاربة روما الأنطاكي الثالث - بالسلام المعقود في أفاميا تتبع روما مملكة السلوقيين لها.
168	إنذار روماني يجبر الأنطاكي الرابع على إنهاء احتلاله لمصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ 160	الفرتيون في ظل مِثريداتِس الأول ينتزعون مدين وبلاد ما بين النهرين من مملكة السلوقيين (عام 141 م).
149 - 146	الحرب القرطاجية الثالثة. قرطاجنة تصير مقاطعة رومانية المدن الفينيقية تنال استقلالا ذاتيا منذ (126 ق. م).
104 - 63	مملكة الحسمونيين في فلسطين.
83 - 69	سورية تقع تحت سيطرة ملك الأرمن تِغرَانِس الأول.
64 - 63	نظام روماني جديد في آسيا الدنيا. بُومبيُوس يصل ولاية سورية نهاية مملكة السلوقيين.
64 - 35	لبنان تحت السيطرة الرومانية. منذ عام (395 م) تحت السيطرة الرومانية الشرقية (البيزنطية).
40 - 39	الفرتيون يحتلون مقاطعة سورية، صور وحدها تقاوم.
37 - 94	محكم أسرة هِرُودُس.
30	مصر تصير مقاطعة يونانية.
ميلادية	
66 - 70	حرب إقليم يهوذا.
98 - 117	ترايان قيصر روماني. أكبر توسع للإمبراطورية الرومانية.
106	المنطقة العربية النبطية تصير ولاية روما العربية.
227	الساسانيون يتولون تركة الفرتيين.
614	احتلال الملك الساساني خسرو الثاني الأقاليم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	السورية (619 م) واحتلال مصر أيضاً.
628	رد الأقاليم البيزنطية بعد حملات عسكرية ناجحة للقيصر البيزنطي هرقل وموت خسرو الثاني.
635 - 636	احتلال العرب المسلمين سورية وفلسطين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1) جبيل، سور المدينة (حوالي عام 2500 ق. م). في اسفل وسط الصورة، اقدم بقايا السور تعود الى عام (2800 ق. م).

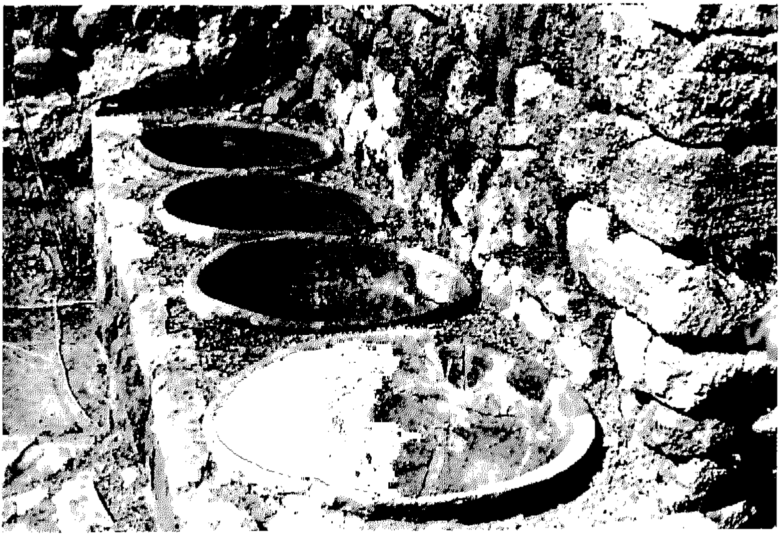

2) معبد رشف في جبيل: بقايا فخاريات كانت تستعمل، على ما يبدو، في طقوس تقديم الأضحية.

3) مذبح صخري لليطوريين في قب الياس بالبقاع.

4) صيدا: مدخل مؤدي إلى ساحة الأكروبوليس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

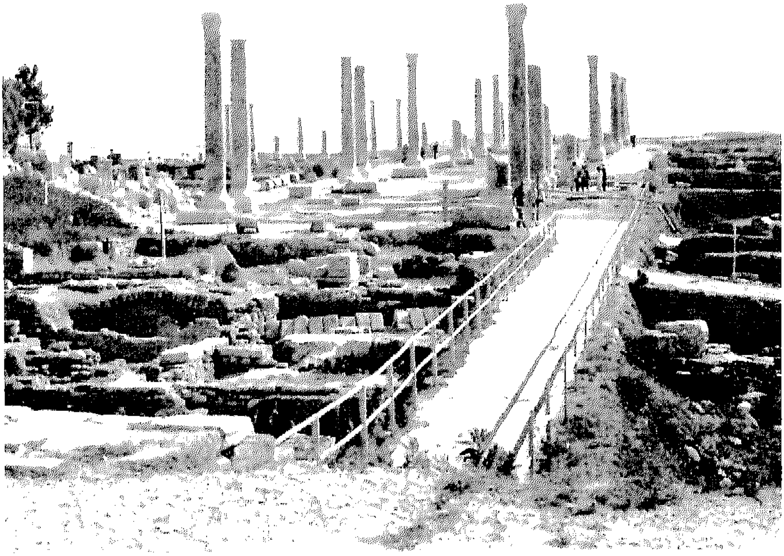

5) صور، طريق الأعمدة بعد ترميمه.

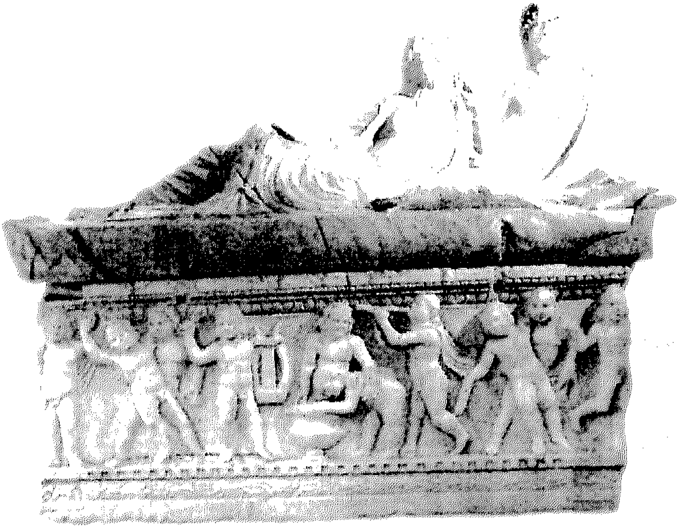

6) شاهدة قبر (القرن 2 م)، باخوس والصبي الخادم. يظهر على السطح تمثال المتوفى وزوجه. في وسط المجسّم صبي يحتسي نبيذاً، والى جانبه صبي مرح يعزف الموسيقا.

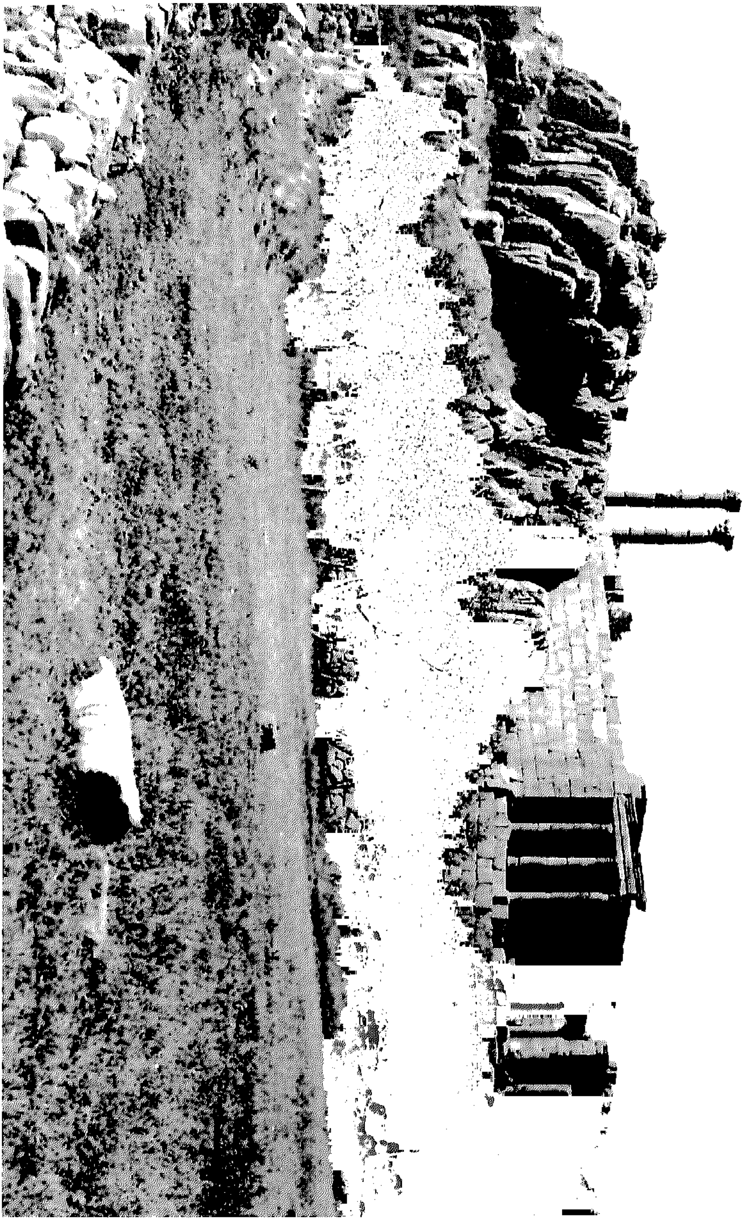

7) قلعة فقرا، المعبد الكبير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

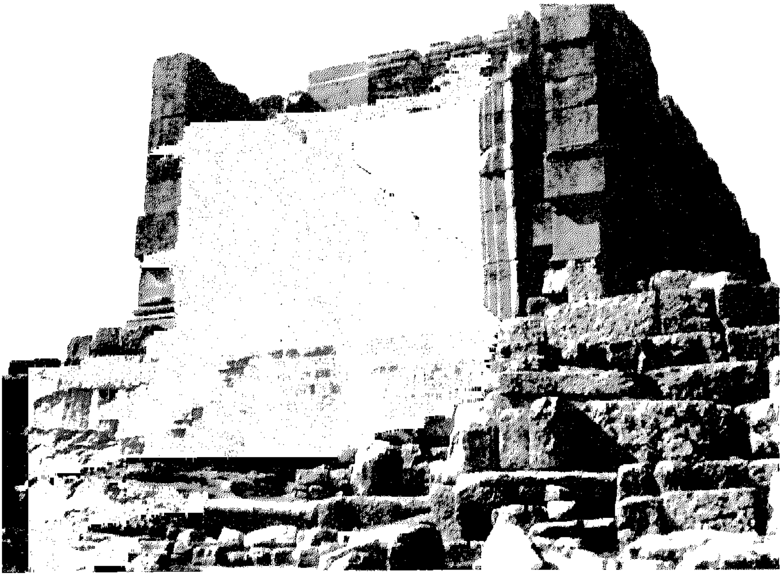

8) حصن صفير: المعبد الكبير.

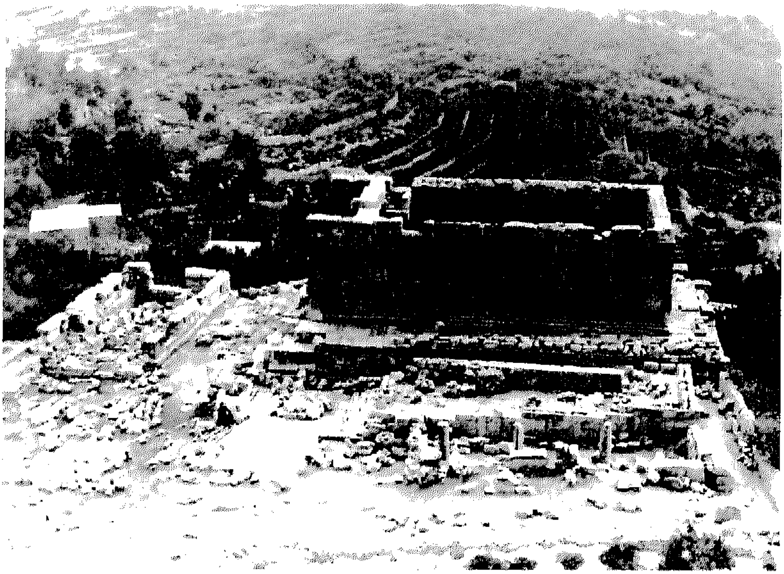

9) حصن صفير: صورة من الطريق المؤدي إلى المعابد الثلاثة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

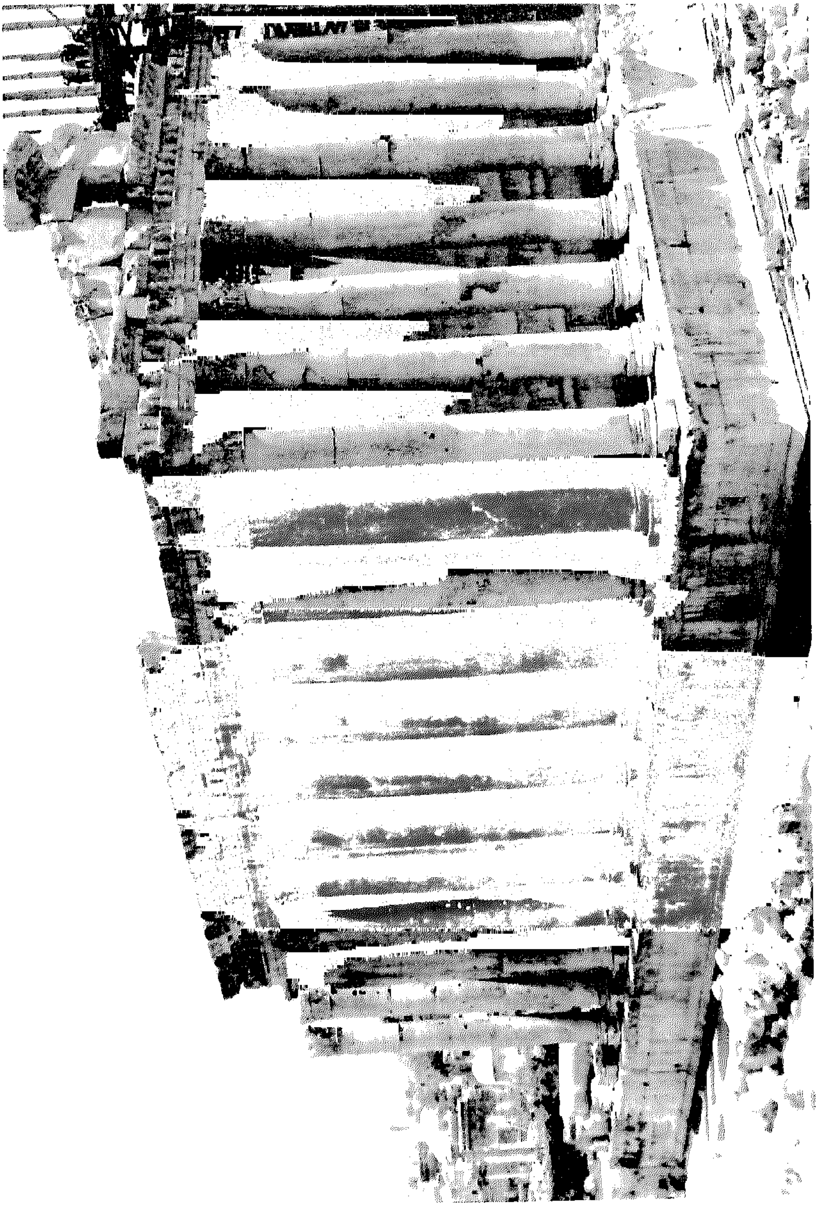

10) بعلبك: معبد اتارغاتيس / فينوس. بقي من الخمسين عموداً الأصلية خمسة وعشرون فقط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

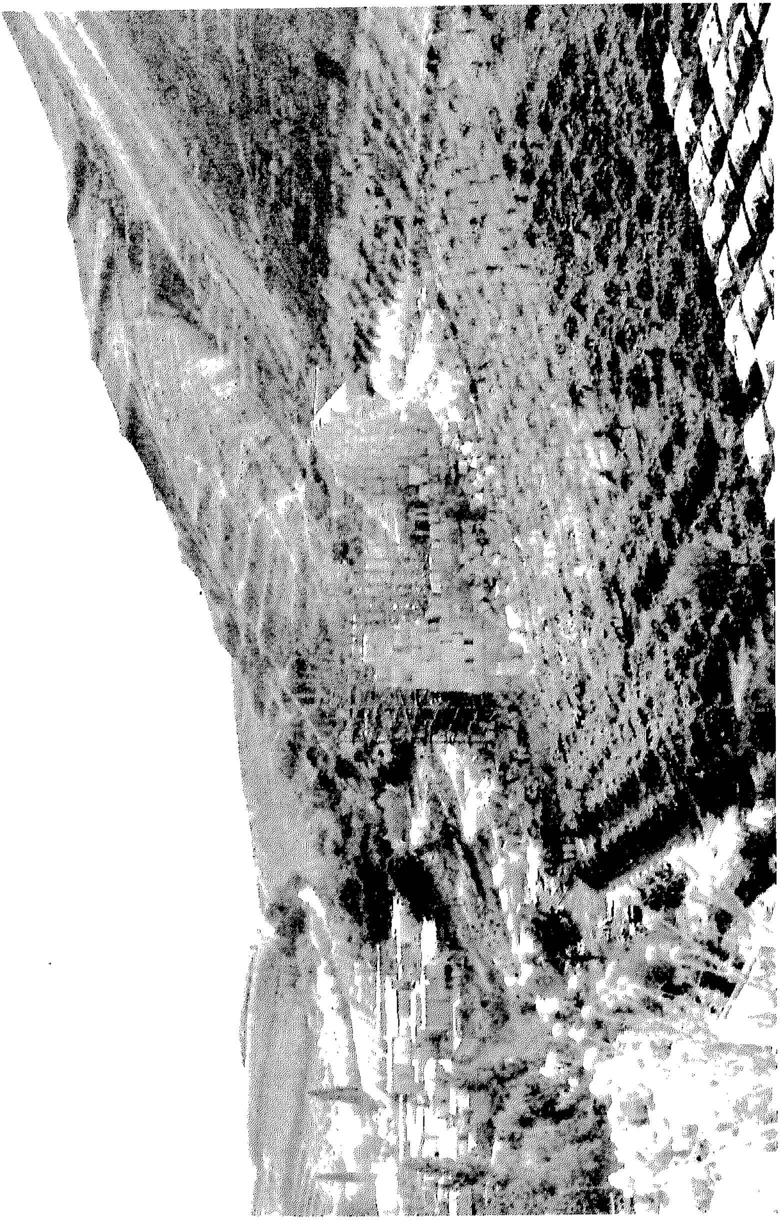

11) نيحا، المعبد الصغير. يمكن رؤية الطريق المؤدي إلى حصن نيحا في أعلى يمين الصورة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

12) قصر نبا: من بقايا المعبد.

13) إدة (إدّي): كنيسة مبينة على بقايا معبد قديم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثبت المراجع

ALOUF, M. M. *History of Baalbek*, Beirut 1944.

BARAMKI, D. *Die Phöniker*, Stuttgart 1965.

BAUDISSIN, W. W. GRAF *Adonis und Esmun*, Leipzig 1911.

BOSSERT, H. TH. *Altsyrien*, Tübingen 1951.

BROWN, J. P. *The Lebanon and Phoenicia*, I, Beirut 1969.

CHEHAB, M. *Tyr* Beiruth 1969.

CLEMEN, C. *Die phönikische Religion nach Philo von Byblos*, Leipzig 1939.

CONDE, B *See Lebanon*, Beirut ^{2}1960.

CONTENAU, G. *La civilisation phénicienne*, Paris ^{3}1959.

CULICAN, W. *The First Merchant Ventures*, London 1968.

DESCHAMPS DE MERTZENFELD, C. *Inventaire commenté des ivoires phéniciens*, Paris 1954.

Donner, H. und Rölling, W. *Kanaanäische und aramäische Inschriften*, I - III, Wiesbaden ^{2}1967 - 1969.

DUNAND, M. *Byblos. Son histoire, ses ruines, ses légendes*, Beirut 1965.

DUNAND, M. *Fouilles de Byblos*, I - II, Paris 1939 - 1954.

DUNAND, M. und DURU, R. *Oumm el - 'Amed. Une ville de l'èpoque hellénistique aux échelles de Tyr*, I - II, Paris 1962 - 1963.

DUSSAUD, R. *L'art phénicien de II^{e} millénaire*, Paris 1949.

EDZARD, D. O, HACHMANN, R, MAIBERGER, P. und MANSFELD, G. *Kamid el - Loz - Kumidi. Schrift - dokumente aus Kamid el - Loz*, Bonn 1970.

EISELEN, F. C. *Sidon. A Study in Oriental History*. New York 1907.

EISSFELDT, O. *Philister und Phöniker*, Leipzig 1936.

FLEMING, W. B. *History of Tyr*, New York 1915.

GESE, H. *Die Religionen Altsyrien, in: Die Religionen Altsyriens,*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Altarabiens und der Mandäer, Stuttgart 1970, S. 1 - 285.

HACHMANN, R. und KUSCHKE, A. *Bericht über die Ergebnisse der Ausgrabungen in Kamid el - Loz (Libanon) in den Jahren 1963 und 1964*, Bonn 1966.

HACHMANN, R. *Bericht über die Ergebnisse der Ausgrabungen in Kamid el - Loz (Libanon) in den Jahren 1966 und 1967*, Bonn 1970.

HAEFELI, L. *Syrien und sein Libanon*, Luzern/Leipzig 1926.

HARDEN, D. *The Phoenicians*, London [2]1963.

HELCK, W. *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3 und 2 Jahrtausend v. Chr*, Wiesbaden 1962.

HITTI, PH. K. *Lebanon in History*, London 1957.

JIDEJIAN, N. *Byblos Through the Ages*, Beirut 1968.

JIDEJIAN, N. *Tyre Through the Ages*, Beirut 1969.

KLENGEL, H. *Geschichte und Kultur Altsyrien*, Leipzig 1967.

KLENGEL, H. *Geschichte Syriens im 2 Jahrtausend v. u. Z.*, II - III, Berlin 1969 - 1970.

KRENCKER, D, und ZSCHIETZSCHMANN, W. *Rö-mische Tempel in Syrien*, I - II, Berlin 1938.

KUKAHN, E, *Anthropoide Sarkrophage in Beyrouth*, Berlin 1955.

MONTET, P. *Byblos et l'Egypte*, Paris 1928.

MOSCATI, S. *Die Phöniker von 1200 v. Chr. bis zum Untergang Karthagos*, Zürich 1966.

POIDEBARD, A. *Tyr, un grand port disparu*, Paris 1939.

POIDEBARD, A. und LAUFFRAY, J. *Sidon. Aménage-ments antiques du port de Saida*, Beyrouth 1951.

POPE, M. H. und RÖLLIG, W. *Syrien. Die Mythologie der Ugariter und Phönizier*, in: HAUSSIG, H. W. *Wörterbuch der Mythologie*, I, Stuttgart 1965, S. 217 bis 312.

RAPHAEL, P. *Le cèdre du Liban dans l'histoire*, Beyrouth 1924.

RENAN, E. *Mission de Phénicie*, I - II, Paris 1864 - 1874.

TAYLOR, G. *The Roman Temples of Lebanon*, Beirut [2]1971.

VAUMAS, E. *DE Le Liban. Etude de géographie physique*, I - III, Paris 1954.

WARD, W. A. (Herausgeber), *The Role of the Phoenicians in the Interaction of Mediterranean Civilizations*, Beirut 1967.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

WEIN, E. J. und OPIFICIUS, R. *7000 Jahre Byblos*, Nürenberg 1963.

WEISSBACH, F. H. *Die Denkmäler und Inschriften an der Mündung des Nahr el - Kalb*, Berlin/Leipzig 1922.

Wiegand, TH, (Herausgeber), *Baalbek. Ergebnisse der Ausgrabungen und Untersuchungen in den Jahren 1898 - 1905*, I - III, Leipzig/Berlin 1921 - 1925.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس الأعلام والأقوام

أ

إبراهيم (النبي): 217

أبّلّينارُوس مُودِستُس الصيداوي (أسقف غالي): 113

أبُولُونيُوس من تِيانا (الفيلسوف): 217

إبيفانِس (الأنطاكي الرابع): 130

إتّي - شمش - بَلّتُو (ملك آشوري): 63 - 165

آحاب (بن عمري): 105 - 106

الأخمينيين: 50 - 168 - 169 - 228

إدينا - أخو (تارج): 119

أرتَكْسِيرکْسِيس (إمبراطور فارس): 54 - 173

أرتَكْسِيرکْسِيس الثالث (إمبراطور فارسي): 172 - 175 - 229

أرتَكْسِيرکْسِيس الثاني (إمبراطور فارسي): 171 - 172

أُروفِيُوس: 217

أسرحدون (ملك آشوري): 53 - 147 - 162 - 163 - 227

أسكليبيوس (إله الطب عند الإغريق): 146

الإسكندر المقدوني: 45 - 178 - 179 - 229

إشمونصر (أحد ملوك صيدا): 143 - 144 - 145

أشوربنيبال (ملك آشوري): 165 - 166

أشورنسيربال (ملك آشوري): 157 - 227

أغريبّا الأول (حفيد هِرُودُس): 195 - 199 - 208 - 209

أغسطُس (قيصر روماني): 111 - 193 - 195 - 206

ألبِينُوس (إمبراطور روماني): 198

إلَغبَال (إمبراطور روماني): 214

إلوإيلي (لولي): 162

الأمورين: 76

أمينُوحتف الثالث: 76

أمينُوحتف الرابع: 79

أمِينوفِيس الثالث: 85

أمِينوفِيس الثاني: 65 - 86 - 89 - 90

أمِينوفِيس الرابع: 85

أنتِغُنُس مونوفثالموس: 43

الأنطاكي الأول: 183 - 186

الأنطاكي الثالث: 183 - 184 - 186 - 229

الأنطاكي الثاني: 184

الأنطاكي الرابع: 30 - 185 - 186 - 187 - 198

أنطونيو: 193

أنطونيوس بلاستيوس: 146

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنطونيو بيوس: 209

أوفيد: 112

أُوكتافيان: 193

أُوياغوراس: 171 - 172

أويدُوكسُس: 139

أُويمَائُوس: 128 - 130

أُويمِنِس (كاتم أسرار الإسكندر المقدوني): 179 - 181

أيدَاتي (أحد ملوك جبيل): 225

إيبيزا (مستعمرة قرطاجية): 136

أيتكمَا القادشي (أحد حكام قادش): 90

إيتوبعل (أحد ملوك صور): 105 - 108 - 227

إيدسيُوس (أحد الشابين الصوريين الذين أوصلا المسيحية إلى أثيوبيا): 217

إيزابيل (ابنة ملك صور): 105

إيزمارُوس الثراقي: 128

إيزيس: 29

إيُو: 129

ب

بَامفيلوس (تلميذ أُوريغنيس ومعلم أويزيبُوس): 217

بَرحدد (ملك آرام): 107 - 146

بِرسِفون (سيدة أرواح الموتى في الخرافات الإغريقية): 151

بروفِيريُوس الفينيقي (سائق عربة شهير): 219

بُرَيدُونيُوس الأفامي (عالم إغريقي): 139

بطليموس: 179 - 181 - 182 - 183 - 197 - 229

بطليموس الثالث: 139

بطليموس الثامن: 139

بطليموس الثاني: 154 - 182 - 183

بطليموس الرابع: 184

بُفُور (الجنرال الفرنسي): 70

بلوتارخ (كاتب إغريقي): 29

بْلينيوس الأكبر (عالم إغريقي): 114

بوبليُوس لايِنَس (مبعوث روماني): 185

بود - عشتار (ملك صيدا): 144

بُومبيُوس (قائد عسكري روماني): 191 - 192

بيرياوازا من أوبه (حاكم حثي): 91

بيري من هاشابو (حاكم محلي): 90

ت

تَتيانوس (حاكم روماني في لبنان): 67

تْجِكَر (أحد أقوام شعوب البحر): 102

تحتمس الثالث (فرعون مصري): 43 - 44 - 50

تِرهاكا (ملك نوبي): 164 - 165

تِغرَانِس الأول (ملك أرمينيا): 190 - 191 - 230

تغلاتبلصَّر الأول (ملك آشوري): 46 - 103 - 104 - 227

توبالو (ملك مستعمرات صور): 162

تِيُوس «تَخُوس» (فرعون مصري): 172

ث

ثِيُودُوسِيُوس الأول (إمبراطور بيزنطة): 220

ثيوقريط (شاعر إغريقي): 154

ج

جورج (قديس فلسطيني): 219

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ح

الحثيين: 70 - 84 - 90 - 226

حزقيال (النبي): 59

حَسرُورُم (أحد ملوك جبيل): 82

الحوريين: 84

حيرام الأول (أحد ملوك صور): 43 - 126 - 124 - 227

خ

الخابيرو: 85

خسرو الثاني (إمبراطور فارسي): 193 - 230

د

داريوس الأول (إمبراطور فارسي): 50 - 168 - 169

داريوس الثالث (إمبراطور فارسي): 176

دِمِتريُوس (ابن أنتيغُنُس): 181 - 182 - 185 - 186

دُوميتيان (إمبراطور الروماني): 207

دِيوتُتُوس ثْرِيفُون (مُطالب بالعرش السلوقي): 195

ديودور الصقلّي (كاتب روماني): 43

ديوقلطين (إمبراطور روماني): 218

ر

رسائل تل العمارنة: 85 - 86 - 88

رمسيس الثالث (فرعون مصري): 86 - 93 - 95

رمسيس الثاني (فرعون مصري): 51 - 70 - 91 - 183 - 226

رِيادّي الجبيلي (أحد ولاة جبيل): 88

ريزين الدمشقي (والٍ مذكور في العهد القديم): 59

ز

زكربعل (أحد ملوك جبيل): 102

زِمرِلِيم (أحد ملوك ماري «تل الحريري»): 83

زينون (تاجر فينيقي): 187

س

سانخونياثون البيروتي (مؤرخ فينيقي): 143 - 155

ساوهِرتِن أويَمَايُوس (أحد شخصيات الأوديسا): 128

سبتيموس سفروس (إمبراطور روماني): 194 - 198

سِبِكحُتِيف الرابع (فرعون مصري): 82

سترابو (مؤرخ وجغرافي إغريقي): 68

ستراتون (ابن ملك جزيرة أرواد): 176

سيتي الثالث (فرعون مصري): 76

سَرَغون الثاني (ملك آشوري): 47 - 59 - 120 - 160 - 161 - 162

سُزُمِنوس الغزي (مؤرخ كنيسي): 144

سِسُطرِس الأول (فرعون مصري): 74

السكيثيين: 166

سَلْمَنصَّر الثالث (ملك آشوري): 53

السلوقي الأول: 182 - 183

السلوقي الرابع: 186

سميراميس: 49

سنحريب (ملك آشوري): 49 - 52 - 64 - 162

سْنُفْرُو (فرعون مصري): 35

سِن - نِفِر (موظف مصري): 50

سُوزِيمُوس (مؤرخ إغريقي): 152

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سول إنفِكتوس إلَغبَل (إله حمصي): 214

ش

الشاسو: 85
شِشنق الأول (فرعون مصري): 105
شعوب البحر: 95 - 100 - 102 - 123 - 124 - 127 - 131 - 132 - 226
شِفِتبعل (أحد ملوك جبيل): 149

ط

طِبريُوس الثاني (إمبراطور روماني): 220

ع

عبديميلكوتي (أحد ملوك صيدا): 162

غ

غَبينيوس (والٍ روماني على سورية): 192
غلغامش: 63 - 64 - 65 - 71

ف

فْرُومِنتِيس (شاب من صور): 217
فقح (من ملوك مملكة إسرءيل): 59
فلافيوس أريان (مؤرخ حملة الإسكندر): 45 - 134
الفلسطيين: 95 - 161
فِيا كَمبَانا (حي «فينيقي» في روما): 194
فِيلو الجبيلي (مؤرخ «فينيقي»): 61 - 143 - 220

ق

قسطنطين (إمبراطور بيزنطي): 113 - 218 - 220
قمبيز (إمبراطور فارسي): 135 - 169 - 228
قورش الثاني (إمبراطور فارسي): 169 - 228

ك

كاليغولا (إمبراطور روماني): 208
كردي - أشور - لامور (موظف آشوري): 160
كِريل السكندري (أحد آباء الكنيسة): 153
كِريلّوس: 220
كلاوديوس (إمبراطور روماني): 208 - 209
كليوباترا (ملكة مصر): 139 - 193
كُمُدوس (إمبراطور روماني): 198
كُونتوس كُورتيُوس (مؤرخ روماني): 45
كين أمون الطيبي: 92

ل

لِسيماخوس التراقي: 181
لُكولُّوس (قائد عسكري روماني): 191
لوقيان: 153

م

مارسوس (حاكم ولاية سورية الرومانية): 199
ماركوس أغريبّا (قائد عسكري روماني): 195
ماركوس أورليوس (إمبراطور روماني): 67
مار نُهرا (أحد شهداء الكنيسة): 218
ماهِير: 91
مِثريداتِس السادس: 191 - 230
مردوك - بالادان: 161
مَرْيانو: 85
مِريكاري (ابن ستي الثالث فرعون مصر): 76

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مِسكيغالا الأدَبي: 71
مَكرينوس (إمبراطور روماني): 149
موريس شهاب (الأمير): 196
ميروبِس (طبيب من صور): 217

ن

نابليون الثالث: 70
نبوخذنصر (الثاني): 47 - 228
نِفِرخُتِف الأول (فرعون مصري): 82
نِكتانِبُوس الثاني (فرعون مصري): 173

هـ

هانو (أمير بحر قرطاجي): 137
هدد عزر (ملك صوبة): 118
هَدد نيراري (أحد ملوك أشور): 157
هَدريان (قيصر روماني): 55 - 198 - 201
هِرُودُس (والي روما على إقليم يهوذا): 198 - 208 - 209 - 230
الهكسوس: 83 - 84 - 226
هوراكِه (شاعر روماني): 112
هومير (شاعر إغريقي): 101 - 103 - 112 - 116 - 124 - 128 - 197

و

وِن - أمون: 36 - 43 - 44 - 51 - 80 - 102

ي

ياسون (كبير كهنة هيكل القدس): 187
ياكِنلو (أحد ملوك جزيرة أرواد): 168
يسوع الناصري: 215
اليطوريين: 189 - 190 - 206 - 208 - 209
يَقِينيل الجبيلي: 82
يَمبليخوس: 219
يَنتين (أحد ملوك جبيل): 82 - 83
يِهَومِلك ابن يهربعل (أحد ملوك جبيل): 148 - 153
يوحنا الغيشلي: 54 - 62
يوحنا هيركانوس الأول (أحد كبار كهنة هيكل القدس): 189
يوحنان: 63
يوسفوس فلافيوس: 134
يوليا دُمنا «الحمصية» (زوجة سبتِموس سفروس): 194
يوليا مامِيّا: 217
يوليان الصوري (سائق عربة شهير): 219
يونان (نبي التوراة): 129
يونيانوس يوستينوس (مؤرخ روماني): 95

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس الأسفار الكتابية

التكوين 10:15/ 100
التكوين 49:20/ 103
الخروج 28:29/ 112
العدد 4:6 - 8/ 112
القضاة 1:31 - 32/ 103
القضاة 5:17/ 103
القضاة 8:26/ 112
صموئيل الثاني 7:7/ 39
صموئيل الثاني 8:3 - 5/ 118
صموئيل الثاني 8:8/ 119
الملوك الأول 6:18/ 39
الملوك الأول 7:7/ 39
الملوك الأول 9:11، 14/ 104
الملوك الأول 9:16/ 105
الملوك الأول 11:14 - 15/ 105
الملوك الأول 12:2/ 105
الملوك الأول 14:25 - 27/ 105
أخبار الأيام الثاني 3:14/ 112
أخبار الأيام الثاني 8:2/ 104
نحميا 2:8/ 54
نحميا 13:15/ 113
أستير 8:15/ 112
أيوب 28:17/ 115
أيوب 40:17/ 59
المزامير 80:11/ 59
المزامير 92:13/ 58
المزامير 104:16/ 59
أمثال 31:10/ 113
نشيد الإنشاد 3:10/ 112
إشعيا 10:19/ 64
إشعيا 10:33 - 34/ 59
إشعيا 18/ 161
إشعيا 37:24/ 53 - 64
إشعيا 60:13/ 59
إرميا 10:9/ 112
حزقيال 23:6/ 112
حزقيال 26:1 - 3/ 161
حزقيال 26:4 - 6/ 167
حزقيال 27:3 - 4/ 123
حزقيال 27:5/ 35
حزقيال 27:13/ 130
حزقيال 27:33/ 123
حزقيال 28:3 - 4/ 121
حزقيال 29:18/ 167
حزقيال 31/ 58
حزقيال 31:1 - 3/ 59
يوئيل 4:4 - 5/ 130
عاموس 1:9/ 130

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشوع بن سيراخ 50:12/ 58
المكابيين الأول 3:41/ 58
إنجيل متى 15:21/ 215
إنجيل مرقس 3:8/ 217
إنجيل مرقس 7:24/ 215
إنجيل لوقا 6:17/ 217
أعمال 20: 12 - 13/ 199
أعمال 21:3 - 5/ 215
أعمال 27:3/ 215
أعمال 27:27/ 129

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس الآلهة الوارد ذكرها في الكتاب

أبولو: 150
أتَارغاتِيس: 206 - 209 - 211
إشمون: 143 - 144 - 146 - 147 - 198
أم - عشتار: 143
أمون: 36 - 44 - 50 - 51 - 52 - 62 - 93 - 102 - 129
إنكيدو: 63 - 64
أوديبيئوس: 128 - 129
أورانوس: 155
أوروبا: 129
بُزايدون إنْزِشتون: 61
بعل أدِر: 149
بعل البقاع: 206
بعل زفون (إله الشمال): 147
بعل شَمِم: 147 - 149
بعل مرقود (جُوبِتَر أُبتِمُس مَكسِمُس بعل مرقدوس): 61 - 142 - 202
بعل مَلَغ: 147
بعل هَمُّون: 137 - 154 - 155
جُوبِتَر هِليُوبوليتانوس: 61 - 206
حاتور: 65 - 153
ديونيشوس: 198
شمش: 63
عزيز: 214
عشتار: 65 - 141 - 143 - 144 - 146 - 147 - 151 - 152 - 153
كْرُنُوس: 155
مِلقارت: 106 - 107 - 146 - 147 - 176 - 177 - 178 - 186 - 198
هرقل: 146 - 178 - 187 - 198 - 231
هِيليُوس: 214

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نبذة عن المؤلِّف

ولد البروفيسور كارلهاينز بِرنهردت عام (1927 م) ودرس اللاهوت والدراسات الشرقية من عام (1946 م) إلى عام (1951 م) في جامعتي هَلِه وغْرَايشفالد. تقدم لامتحان الدكتوراه عام (1952 م) بأطروحة حول (حظر الصور في العهد القديم) طبعت كتاباً عام (1956 م) في برلين، وحاز على شهادة الأستاذية عام (1957 م) ببحث عن فكر الملوك الشرقية في العهد القديم، التي نشر في لايدِن عام (1961 م). عمل من عام (1952 - 1958 م) مساعداً علمياً في كلية اللاهوت بجامعة غْرَايسفالد ودرّس لغات شرقية قديمة.ثم صار أستاذاً للعهد القديم في جامعة رُستوك (1959 - 1966 م) وجامعة هُمبُلدْت في برلين (1966 - 1992 م). زار الدكتور بِرنهَردْت منذ عام (1959 م) بلدان الشرقين الأدنى والأوسط بصورة منتظمة، وتمت زياراته من عام (1970 إلى 1990 م) بوصفه عضو هيئة رئاسة (المعهد الألماني الإنجيلي لعلم الأرض المقدسة في العصر القديم) وله فرعان أحدهما في القدس الشرقية والآخر في عَمّان. وجد هذا النشاط تعبيره في كتاب تعليمي هو (عالم العهد القديم) - برلين (1967 م) الذي درّس فيه، بالدرجة الأولى نتائج تنقيبات أثرية، وفي عدد كبير من إسهامات علمية نشرت في مجلات وكتب مشتركة، وألقيت كمحاضرات وسطرت كمقالات لمراجع علمية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يصدر عن دار قَدْمُس للنشر والتوزيع

تلفيق اسرءيل التوراتية ـ طمس التاريخ الفلسطيني. تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى؛ يحوي مقدمة كتبها المؤلف خصيصاً للطبعة العربية (تحت الطبع).

الفتوحات العربية الإسلامية الأولى وبيزنطة. تأليف: وولتر كغي، ترجمة: نيقولا زيادة (تحت الطبع).

ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟ تأليف: فرنسس وود، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

لبنان القديم. تأليف: كارلهاينز برنهردت، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

النهايات ـ الهوس القيامي الألفي. تأليف: ديتر تسمرلنغ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

بحثاً عن إله ووطن ـ بين الاستكشاف وعلم الآثار والصراع الخفي على فلسطين بين عامي (1799 ـ 1917 م). تأليف: نيل أ. سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

شاركتُ في الخديعة. تأليف: سلوى النعيمي (تحت الطبع).

العرب والمسيحية. تأليف: نيقولا زيادة (قريباً).

طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام. تأليف: نشأت الحمارنة (قريباً).

التوراة في التاريخ: كيف يلفق الكُتّاب ماضياً. تأليف: توماس طمسون (قريباً).

الشعر العربي المغنى ـ دراسة تحليلية لموسيقى الشعر. تأليف: المقدم الدكتور إيلي فرانسيس (قريباً).

قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب. تأليف: سِبَستيان بروك وسوزان هارفي، ترجمة: فريدة بولس؛ مع مقدمة كتبها المطران يوحنا إبراهيم***** (قريباً).

الظاهر بيبرس. تأليف: بيتر ثوراو ـ (قريباً).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خالد وعمر ـ بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر. تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (قريباً).

الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب. تأليف: إ. آيكوف (قريباً).

الحمّام في العصر العربي ـ الإسلامي الوسيط ـ دراسة ثقافية تاريخية. تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).

هزيمة المسيحية، خطاب «العودة»، واليهود. تأليف: د. أولستر (قريباً).

الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي ـ دراسة تاريخية وآثارية. تأليف: روبرت شِك (قريباً).

غوته والعالم العربي. تأليف: كاتارينا مُمزن (قريباً).

المولوخ ـ نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة. تأليف: كارلهاينز دِشنَر (قريباً).

البحث عن إسرءيل التوراتية. تأليف: فيليب ديفس (قريباً).

إفريقية واكتشاف أمريكا. تأليف: ليو فيتَر. (قريباً).

الفتوحات الإسلامية الأولى. تأليف: فرِد دونَر (قريباً).

حكايات آرامية من معلولا (قريباً).

الغرب والإسلام ـ صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر. تأليف: إكهارت روتر (قريباً).

حكومات المسلمين. تأليف: عزيز العظمة (قريباً).

هامش الإثارة الجنسية ـ قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر. تأليف: إرفين كميل شِك (قريباً).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات قَدْمُس: مجموعة كتيبات تحوي ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق ببلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة، منها التالي ذكرها:

أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي. تأليف: غلِن بَوَرسوك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

(أشور) و(سورية) مترادفتان. تأليف: ريتشارد فراي، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

أورشليم داود: التلفيق والحقيقة. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

«عودة» اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790 ـ 1840 م). تأليف: ماير فرِيته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

فيليب العربي والمسيحية. تأليف: هانز بولزَنْدَر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

كنعان، فينيقيا، أرجوان. تأليف: ميخائيل أسطور، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة القادسية. تأليف: س. م. يوسف. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة اليرموك ـ إعادة تركيب. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة هليوبوليس. تأليف: ألفرِد بَتلَر. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

حول تاريخية يسوع المسيح. تأليف: زياد منى (تحت الطبع).

حول نقش «بيت دود [داود]». تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة. تأليف: د. ر. هِلّ، ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جغرافية سفر التكوين 14 في عسير. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

مشكلة (داود وجليات). تأليف: كمال الصليبي، ترجمة زياد منى (قريباً).

الفرار من «أورشليم». تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

ليس كل ناعم الملمس حرير - عن الأبيونيين والعبرانيين وتلفيق التاريخ. تأليف: زياد منى (قريباً).

مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي. تأليف: فراي هر فون غال، ترجمة: زياد منى (قريباً).

النبي محمد وهرقل. تأليف: أ. شارف (قريباً).

«بيت داود [دود]» مبني على الرمال. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).

بين المنهجية والجنون - عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).

(نَفَق سِلوان) هلنستي. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة زياد منى (قريباً).

الإسلام في الكتابات البيزنطية. تأليف: فولفغانغ آيشتَر (قريباً).

الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام. أ. شبرنغر (قريباً).

البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان. هِلغا سِيدِن (قريباً).

موقف العرب من بيزنطة - الرسمي، الشعبي، العلمي. تأليف: أحمد شبول (قريباً).

هل «عبرية» التوراة لغة؟ تأليف: إرنست أكزل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

KARL-HEINZ BERNHARDT
DER ALTE LIBANON
VERLAG ANTON SCHROLL & CO. WIEN UND MÜNCHHEN
(c) 1976 Verlag Koehler & Amelang (VOB), Leipzig
Lizenzausgabe (1977) für den Verlag Anton Schroll & Co, Wien
Zeichnungen Hans-Ulrich Herlod. Gestaltung Joachim Kölbel
Printed in GDR
ISBN 3-7031-0438-4

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب المؤرخ والعالم الكتابي الألماني الشهير هذا الكتاب في أوائل السبعينيات، وحدّثه أخيراً خصيصاً للطبعة العربية، وأضاف إليه ملاحظاته التي تأخذ بعين الاعتبار أحدث المكتشفات الآثارية في المشرق العربي.

يتناول المؤلف، وبالعديد من التفاصيل المثيرة، مختلف جوانب تاريخ وثقافة سكان تلك مدن ذلك الإقليم الذي عُرف تاريخياً باسم لبنان. ومن ذلك كيفية صناعة الصبغة الأرجوانية، وبناء السفن «الفينيقية»، وأسباب تفوقها على غيرها. وتكمن أهمية المؤلف الإضافية في التشديد على الإستمرارية بين الحضارات والثقافات التي قامت في ذلك الإقليم وعلاقاتها ببعضها وارتباطها برديفاتها في مختلف أقاليم المشرق العربي.